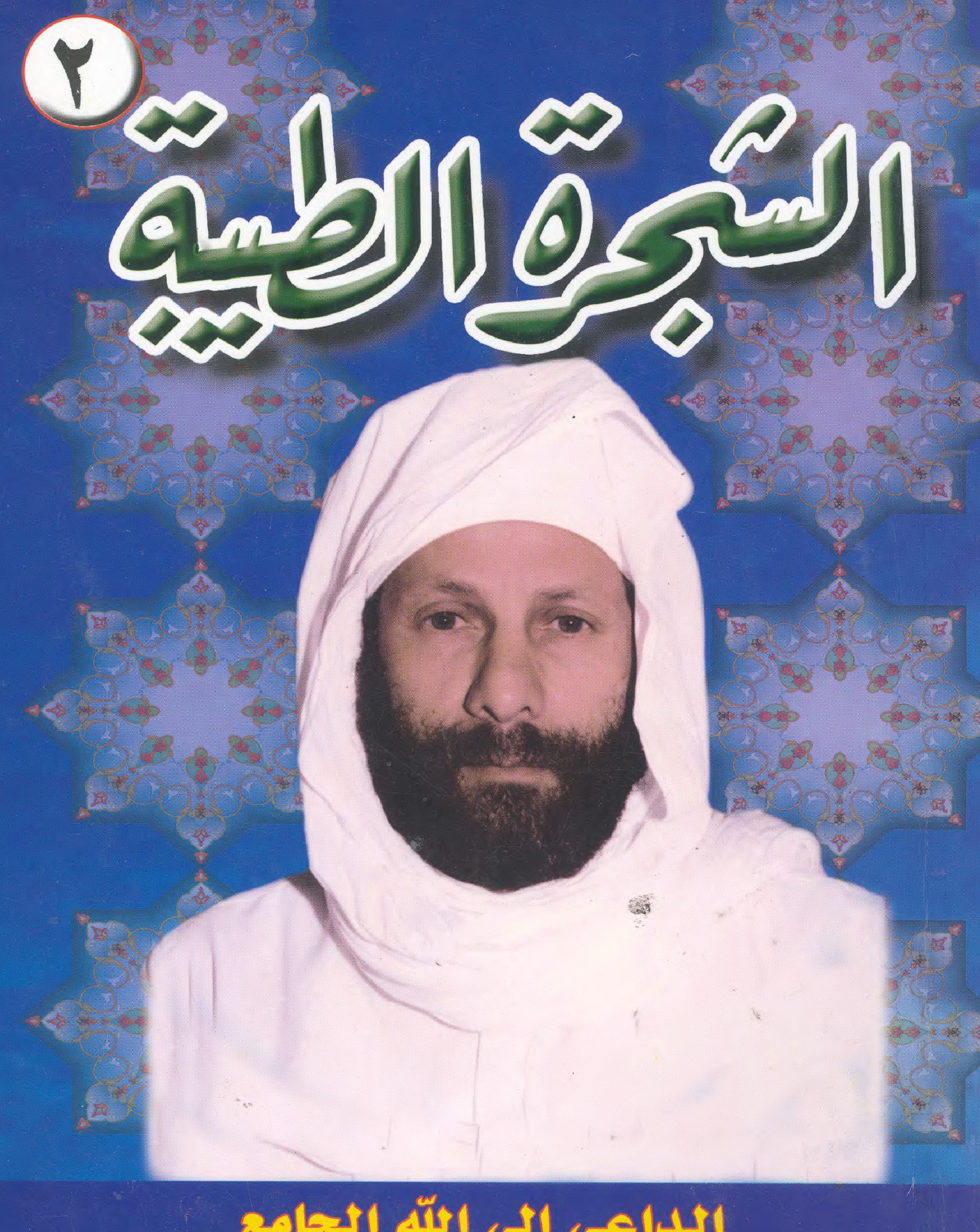


الداعي إلى الله الجامع

الشيخ أحمد البسفي الأول بن مصطفى



الشجرة الطيبة

مفاتيح العلم

الـــزاد

بقلم

الفقير إلى الله

أحمد البِسْفِي الأول بن مصطفى

الداعي إلى الله الجامع

ج . م . ع ـ بني سويف ـ الفشن ـ ش بحري المحكمة

ت : ٧٦٦٣٢٤٩ ـ ٧٦٦٢٩٧١ ـ ٧٦٦١١٦١ / ٠٨٢

محمول : ٠١٠٣٤٦٢٣٥٨

الطبعة الثانية

١٤٢٩هـ /٢٠٠٨م

الناشر

سوبر مان

للنشر والتوزيع

الفشن ـ شارع الشيخ منصور

ت : ٧٦٦٣١٨٤ ـ ٧٦٦٣١٨٥ / ٠٨٢

محمول : ٠١٠٦٣١٦٥٣١

رقم الإيداع
٣١٨٠ / ٢٠٠٨ م
الترقيم الدولي I . S . B . N
977 – 6112 - 30 - 7

دار
الحسين الإسلامية
٢٥ ح المدرسة خلف جامع الأزهر الشريف
ت: ٢٥١٤٧٣٢٢ - ٠١١٨٣٠٠٩٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الطريقة الجامعة

[٢]

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيِّدنا محمَّد رسول الله ، أمَّا بعد : فهذه هي الطبعة الثانية للكتاب الثاني من (الشجرة الطيِّبة) للطريقة الجامعة بقلم خادمها الداعي إلى الله الجامع سيِّدي الشيخ / أبي محمَّد أحمد البِسْفِي الأوَّل بن مصطفى ، بارك الله في عمره ، ونفع الله به في أثره ، ويسَّر الله نشر كلَّ ما مَنَّ به الله عليه من مفاتح غيوب علم الله التي يجليها الله بكماله في عصره ؛ لينفع الله بهذه الدعوة الجامعة كلَّ باحث عن الحقيقة المجرَّدة من هوى النفوس ، وزيغ القلوب ، وضلال العقول في ظلمات العصر ، ونيران الفتن في كلِّ قُطر ، وفي هذا الكتاب ستة أسئلة رئيسيَّة تُجلِّي الإجابة عنها جوهر علاقة المؤمنين بإخوانهم من الأولياء أحياء الدور وأحياء القبور ، فهل حقّاً تُعدُّ قبور الأولياء ومراقدهم وبخاصَّة ما كان منها داخل مسجد أو مجاوراً له من الأوثان والأصنام التي تُعبد من دون الله ؟ وهل يُعدُّ من يزور أصحاب هذه القبور والمراقد من المشركين عقيدةً وسلوكاً ؟ وهل يعني التوحيد المجرَّد الخالص لله أن تُزال هذه القبور والمراقد حتَّى تصحَّ الصلاة في هذه المساجد ؟ وهل هناك واسطة بين العبد وربِّه ؟ وهل يجوز البناء على القبور والمراقد ؟ وهل يجوز شدُّ الرحال ــ السفر ــ لزيارة الصالحين في مراقدهم ؟ وهل يجب على من يقصد المدينة المنورة أن يجرِّد نيَّته للصلاة في المسجد النبويِّ

فحسب ، فإن نوى زيارة النبيِّ محمَّد ﷺ يكون آثماً ؟ وهل يصحُّ شرعاً أن نُماثل قبور الصالحين ومراقدهم بما كان في الأمم السابقة كقوم نوح ﷺ الذين قال الله فيهم : ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً {٢٣} ﴾ نوح ؟

إنَّ الإجابة على الأسئلة التي طُرحت منذ ماضي الزمان وأجيب عنها من قبل ، لم تمنع ما يثار من الجدل حولها قبولاً وردّاً ، فإنَّ في الأمَّة من يحرصون كلَّ الحرص على تفريق أبناء الأمَّة حتَّى تبقى الأمَّة في صراع وتمزُّق ، وكلَّما أُطفئت نيران الفتنة أُوقدت ! فكم ضيَّعت الفتن على هذه الأمَّة ما ميَّزها الله به من الخيريَّة والوسطيَّة لتكون بما شُرع لها رحمةً في العالمين ، وسعادةً لمن يعتنق الإسلام في الدنيا ويوم الدين ؟!

ماذا كسبت الأمَّة من الإغراق في البحث في الذات والصفات ؟ ماذا جنت الأمَّة من الجدل حول الجبر والاختيار ؟ بماذا خرجت الأمَّة من القول بخلق القرآن ؟ وبماذا نعمت الأمَّة من الدعوة إلى التشيُّع أو الخروج ؟ وهل سعدت الأمَّة بالتمزُّق بين الداعين إلى السلفيَّة كما يهوون أو الداعين إلى الصوفيَّة كما يتوهَّمون ؟ ما الذي كسبته الأمَّة في نصف القرن الماضي من الصراعات والأهواء والحيرة بين مذاهب أهل الشرق وأهل الغرب في السياسة والاقتصاد والاجتماع ؟ إنَّ الشيخ البِسْفي يدعو إلى الله الجامع بهذه الدعوة الجامعة منذ أكثر من نصف قرن من ماضي الزمان ، يدعو إلى العلم النافع الذي يورِّث خشية الله حتَّى تكون الأمَّة بين عالِم يعلِّم بعلم الله ، وبين متعلِّم يتلقَّى علم الله ،

ومحبٌّ لهما حبّاً خالصاً لله ، إنَّ الإسلام قد جاء رحمة مـــن الله لعبـــاد الله ، ولم يكن أبداً دعوة لشقاء عباد الله : ﴿ طه {١} مَا أَنزَلْنَا عَلَيْـــكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى {٢} ﴾ طه ، إنَّ هذه الدعوة الجامعة تدعو إلـــى فطـــرة الله التي فطر الناس عليها ، فهي تدعو إلى إســـلام لله بـــلا رُكـــام ، وإيمان بالله بلا أوهام ، وإحسان بالله لكلِّ شيء ابتغاءً لمرضاة الله ذي الجلال والإكرام ...

اللهمَّ أنت النافع الحق ، فانفع بهذه الدعوة الجامعة مـــن يسَّـــرته لمـــا تحبُّه وترضاه من الحقِّ : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِـــزَّةِ عَمَّـــا يَصِـــفُونَ {١٨٠} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَـــلِينَ {١٨١} وَالْحَمْـــدُ لِلَّـــهِ رَبِّ الْعَـــالَمِينَ {١٨٢} ﴾ الصافات .

وكتبه / عبد الله عبد المجيد محمد علي

من موجِّهي اللغة العربيَّة والتربية الإسلاميَّة في محافظة بني سويف

الفشن في يوم الجمعة الثامن عشر من شهر ذي الحجَّة سنة ١٤٢٨هـ

الموافق الثامن والعشرين مـــن شهـــر ديسمبر سنـــة ٢٠٠٧ م .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة المؤلف

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله وخاتم النبيِّين . أمَّا بعد ...

فإنِّي أقدِّم للأمَّة هذا الكتاب الثاني من كتب الشجرة الطيِّبة ابتغاء وجه الله ، فأنا لست داعياً إلى طريقة معيَّنة ؛ لأُنَّني لست شيخاً لطريقة ، ولا أدعو إلى مذهب معيَّن ، فلست إماماً لمذهب ، ولا أدعو إلى جماعة معيَّنة ؛ لأنَّني لست أميراً لجماعة ، ولا أدعو إلى جمعيَّة معيَّنة ؛ لأنَّني لست رئيساً لجمعيَّة ، ولا أدعو إلى حزب معيَّن ؛ لأنَّني لست زعيماً لحزب ، وليس ليَّ أتباع ، وليس بعدي خليفة ، وملخَّص ما أدعو إليه ولا أخصُّ نفسي به ؛ لأنَّها دعوة الله ربِّ العالمين ، ومطلوب من كلِّ مسلم حرٍّ طاهر عاقل أن يدرك أنَّ هذه رسالة ، أقول : إنَّ ملخَّص ما أدعو إليه في كلمات بسيطة ، هي وحدة الأمَّة التي أُخرجت للناس لتكون خيراً لهم من خلال العلم وحُسن الخُلق ، فاقترب منِّي يا ولدي .

معلومة {1} :

يا ولدي هذا هو الكتاب الثاني من كتب الشجرة الطيِّبة ، وهو ردٌّ على الأفكار المتنطِّعة التي تصدُّ عن الصالحين وكلِّ ما يتعلَّق بهم من إقامة الأضرحة لهم متَّصلة بالمساجد أو غير متَّصلة ، واتِّخاذ السُرج فوقها لتيسير زيارتها وإقامة الموالد لأصحابها للتذكير بهم وبتقواهم ، وشدِّ الرحال لزيارتهم عند قبورهم والتوسُّل بهم إلى غير ذلك من الأمور التي

يجب أن نحكم عليها لا بأهوائنا ، ولا من خلال طائفيَّة مُتنطِّعة أو من خلال فرق مُتوهِّمة ، ولكن نحكم في أُمورنا كلِّها بالعلم الصحيح النافع الذي يحفظ للأمَّة وحدتها ، ويردُّها إلى صواب العلم بدون طائفيَّة طائشة وتفرُّق زائغ ، فالمسلمون لا ينبغي أن ينتسب الواحد منهم إلى طائفة معيَّنة ، وآخر إلى طائفة أخرى ، وثالث طائفته الجهل فلا يدري عن دينه شيئاً إلا أنَّه وُلد مسلماً أو لا يدري عن دينه إلا القشور ، ورابع يظنُّ في نفسه أنَّه متديِّن ولكن لا يعنيه من أمر المسلمين شيئاً ، وهكذا فرَّقنا ديننا إلى فِرَق وشِيَع ، منها من يفرِّق الأمَّة بإيجابيَّته الزائغة ، ومنها من يفرِّقها بسلبيَّته الغافلة ، وهكذا فرَّقوا دينهم لا دين الله الذي عنده تحت عناوين وأسماء وأشكال وأزياء ، ولكن المسلم الحقَّ هو الذي ينتسب للعلم ، والعلم كالماء المُطلق الطهور ، لا لون له ولا طعم ولا رائحة ، وهو أيضاً كالهواء ليس فيه كثافة تصدم ، وإنَّما فيه نقاء يُحيي ، فالمسلم الحقُّ هو مُعلِّمٌ ومُتعلِّمٌ ومُحبٌّ ، معلِّمٌ لمن هو أدنى منه ، ومُتعلِّمٌ لمن هو أعلى منه ، ومُحبٌّ للعلم والعلماء بدون تنطُّع أو تعصُّب ، وبدون انتساب لأيَّة طائفة ، يتعامل مع جميع الناس بمكارم الأخلاق ، هذا هو الإسلام ، فالإسلام علم في العقل ، وخُلق في القلب ، يجمع ولا يفرِّق ، ويبني ولا يهدم ، ويُصلح ولا يُفسد ، ويتسامح ولا يتعصَّب ، ليس له لون ولا طعم ولا رائحة لطائفة تُميِّزه عن غيره ، وإنَّما هو نسب العلم الذي يربطه بمن فوقه وبمن تحته : ﴿ ... وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ {٧٦} ﴾ يوسف ، ونسَب الحُبِّ الذي يجمع بين الجميع ، فالإسلام بعلمه وخُلقه للنَّاس جميعاً رحمةٌ وزادٌ

ولباسٌ ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا انقلبت الأمَّة الواحدة إلـــى فــرق وشيع تحت عناوين وأشكال وألوان وأزياء وأسماء ما أنزل الله بها مـــن سلطان ؟ فهذا سُنِّيٌّ وهذا شِـيعيٌّ وثالـــث صــوفيٌّ ورابــع قاديــانيٌّ ، وانتشرت عشرات الجماعات بأسماء مختلفة وأهداف متباينـــة ولا أدري ماذا جرى ؟ ولماذا لا يكون هذا مُعلِّم يُعلِّم ويتعلَّم ، وهذا مُــتعلِّم يــتعلَّم ويُعلِّم ، وهذا مُحبٌّ للعلم وخادم للعلماء ؟ هــذه هــي طوائــف الأمَّــة المشروعة التي تجمعها مكارم الأخلاق بدون شكل أو لــون أو اســم ، وهي جسم واحد ذو أعضاء ، كلُّ عضو يتغذَّى ويُغذِّي وحــين أقــول : طوائف الأمَّة المشروعة لا أقصد أنَّها طوائف متباينة أو مُختلفة ، وإنَّما أقصد طائفة المُعلِّمين بعلم الله ، وهم في الوقت نفســه المُعلِّمون لعلــم الله ، وطائفة المُتعلِّمين لعلم الله ، وفي الوقت نفسه مُعلِّمون بعلــم الله ، وطائفة المُحبِّين للعلم والعلماء التي تجمع بين الطائفتين ، إذاً هي أُمَّــة النبيِّ محمَّد ﷺ التي عقلهــا المُعلِّمــون وقلبهــا المُتعلِّمــون وجســدها المُحبُّون ، فبالحبِّ يكون لها وجود محسوس ، وبالعلم يكون لها عقــل حُرٌّ مُبْصر ، وبالتعلُّم يكون لها قلب سليم مُشرق ، هذه هي أمَّة الإســلام بلا أسماء أو ألوان أو عنــاوين أو أزيــاء أو صــرخات أو آهــات أو جمعيات أو جماعات .

معلومة {٣} :

يا ولدي يا ليت هذه الطوائف ــ التي أصبحت كلُّ طائفة منها طوائف ــ تثوب إلى رشدها ، وتنفض مــن حياتها نجاســات التفــرُّق والتنطُّــع والتوهُّم ، حتَّى تنقلب هذه الطوائف إلى مصابيح متعدِّدة والنور واحــد ،

نورها العلم والخُلق ، أو إلى صنابير متعدِّدة والماء واحد ، ماؤها العلم والخُلق ، أو إلى مساجد متعدِّدة والعبادة واحدة ، عبادتها للَّه بالعلم والخُلق ، يا ليتها تفرُّ من الأسماء والصور إلى الحقيقة والجوهر ، والحقيقة : هي العلم ، والجوهر : هو الخُلق . وإذا حدث تباين في الرأي فيكون الاختلاف عقليّاً لا نفسيّاً ، والاختلاف العقليُّ نتيجة للتفاوت في العلم مع حُسن النيَّة وطهارة القصد ، ويكون هذا الاختلاف رحمة لا نقمة ، ولذلك أصبح من المشهور أنَّ اختلاف المذاهب الأربعة رحمة ؛ لأنَّها تستوعب جميع أحوال الناس حتَّى تستمرَّ عبادتهم لله بدينه لا بأهوائهم ، مع فتح باب الاجتهاد للقلوب العاقلة والعقول الحُرَّة الطاهرة ، ويكون تنافسي معك لأتعلَّم منك قبل أن أُعلِّمك ، وكذلك يكون تنافسك معي لتتعلَّم قبل أن تُعلِّم ، فنكونا قدوة لمن يُحبُّنا وهو الطرف الثالث ، وبذلك تسلم أمَّة التوحيد بجسمها وعقلها وقلبها ، وتكون الكائن الحيُّ الذي يحيا به كلُّ كائن بإذن الله ، ولا يتحقَّق ذلك إلا إذا تجنبنا الضلال على علم ، وعلامة ذلك اختلافنا نفسيّاً لا عقليّاً نتيجة لتفاوتنا في الجهل.

يا ولدي كم أتمنَّى أن تتخلَّى كلُّ طائفة عن تكتُّلها الجاف المتصادم مع غيرها من الطوائف ، وعن اسمها الذي اختارته وشكلها الذي ألَّفته ، كم أتمنَّى لكلِّ طائفة متنطِّعة أن تنبسط كالهواء يتنفَّسه الجميع ، وتسيل تسْقي كالماء تروي الجميع . إذا كانت الأجساد والصور الكثيفة كلُّها لآدم وآدم من تراب أي لا صدام بينهما ، فبالأولى أن ترجع القلوب إلى الأصل المحمَّدي الذي هو على خُلق عظيم ، وترجع العقول للأصل المحمَّدي الذي رسالته العلم ، وهذا الأصل هو الإسلام ، والإسلام هو الدين عند الله ،

وينبغي أن تكون مرآته هذه الأمَّة : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ {٩٢} ﴾ الأنبياء ، إنَّ هذه الطوائف جعلت الأمَّة الإسلاميَّة أشبه بالأمم السابقة التي انقسمت وتفرَّقت إلى مذاهب متصارعة وعقائد متباينة وطوائف زائغة وكُتل متصادمة ، هل كان المسلمون في عصر النبيِّ ﷺ متفرِّقين مختلفين نفسيّاً متنطِّعين ؟ إنَّني على يقين أنَّ الناجين من هذه الأمَّة هم أمَّة الأولياء ، الذي شهد الله لهم بذلك في كتابه بقوله : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ {٦٢} الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ {٦٣} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {٦٤} ﴾ يونس ، هؤلاء النَّاجون الذين انقسم حولهم وبشأنهم الناس بين صادٍّ عنهم برسم ، ومتعلِّق بهم بوَهم ، إلا من رحم ربُّك من أهل الحبِّ والأدب من الصالحين ، هيَّا بنا يا ولدي وأنا أخاطب كلَّ مسلم نرجع إلى الإسلام دين الله الخالص بدون أسماء مخترعة وأوصاف مصطنعة وألوان مُفرِّقة وأشكال متناقضة وأزياء حاجبة وتنطُّع زائغ وتشدُّد بغيض ، هيَّا بنا نعبد الله .

معلومة {٣} :

يا ولدي هيَّا بنا نعبد الله الجامع للعظام ، والجامع للقلوب ، والجامع للناس ليوم الجمع الذي لا ريب فيه ، والجامع للأشياء بقاعدة الجمع ، والجامع للصلاة يوم الجمعة ، والجامع لقرآنه الجامع ، والمرسل رسوله الجامع رحمة للعالمين ، ومُنشيء الأجساد من التراب الأصل الجامع ، والجامع للمؤمنين ساجدين في بيوته الجامعة ، والتي مفردها

اسمه الجامع . يا ولدي كلُّ شيء من حولنا مرآة لصفة الجمع التي وصف الله بها نفسه وكتابه ورسوله ويوم حسابه للناس ، وجمع بها وألَّف قلوب المؤمنين ، وجعل أفضل أيامه يوم الجمعة ، وأقام الأشياء بقاعدة الجمع ، أبَعد ذلك يكون التفرُّق والاختلاف والتشتُّت هو القاعدة لهذه الأمَّة الحائرة ؟! هيَّا بنا يا ولدي حتَّى يُطهِّر الله قلوبنا ، ويحرِّر عقولنا ، ويُيَسِّر أعمال أجسادنا ، وحتَّى يوفِّقنا حتَّى يتعارف الناس ، ويتآلف المؤمنون ، ويتعاون الجميع على البرِّ والتقوى ، ولا يتعاونوا بتمزُّقهم على الإثم والعدوان ، هيَّا بنا يا ولدي حتَّى نَنْتسب جميعاً إلى العلم ، والعلم فقط مع حُسْن الخُلق ، وحتَّى يعيش الناس في أمْن ؛ لأنَّ الأمن كالهواء لا يستغني عنه كلُّ حيٍّ ، والمحافظة عليه فرض عين على كلِّ إنسان وبخاصِيَّة المسلم ، هيَّا يا ولدي نفرُّ إلى الله حتَّى لا نَضل بعلم أو برسم أو بِوَهم أو باسم ، تطهير وتحرير وتيسير ، وتعارف وتآلف وتكاتف ، وحفظ أمن وفرار إلى الله : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ {٥٠} ﴾ الذاريات .

المؤلِّف

أحمد البِسفي الأوَّل بن مصطفى

السؤال الحادي والأربعون :

يحتجُّ من يحرِّمون الصلاة في مسجد فيه قبر بقول النبيِّ ﷺ : [لعن الله اليهود والنصارى اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد] فما معنى ذلك ؟ أو بِمَ يُردُّ على ذلك ؟

الإجابة :

معلومة {1} :

الحقيقة أنَّني دائماً لا أتَّهم عالماً ، فإذا أخطأ فاعتقادي دائماً أنَّه اجتهد فأخطأ ، حتَّى أبقي على حسن ظنِّي بالعلماء ، واعتقادي عند اختلافي مع قول عالم أنَّ رأيي صائب يحتمل الخطأ ، ورحم الله امرءاً أهدى إليَّ عيوبي ، ورأي المختلف معي في الرأي خطأ يحتمل الصواب ، بل قد يغلب على ظنِّي أنَّني أنا المخطئ وبخاصَّة إذا كان المختلف معي عالماً ، ولكن أريد دليلاً على ذلك ، واعتقادي أيضاً أنَّ اختلاف العلماء ينبغي أن يكون رحمةً لا نقمة ، فرحمته أن يجمع الأمَّة ولا يفرِّقها ، ويُثري العلم ولا يُضيِّع الحقيقة ، ولا يكون اختلاف العلماء رحمة إلا إذا كان اختلاف عقول لا اختلاف نفوس وقلوب وطقوس ، فكلٌّ واحد منهم لديه جزئيَّة من العلم الصحيح النافع ـــ لا العلم كلّه ـــ عن شيء ما ، وهذا هو المفروض ، ولو جُمعت هذه الجزئيَّات لكان الوصف الكامل لهذا الشيء ، وكلٌّ على قدْره : ﴿ ... وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً {٨٥} ﴾ الإسراء ، فلماذا نَقلب الأمور العلميَّة إلى صراع نفسي يُشْعل القلوب بالغِلِّ ويهوي بها إلى مستنقع الأهواء : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ

عَلَى عِلْمٍ ... {٢٣} ﴾ الجاثية ؟ وكأنَّنا عابثون بقــول الله تعــالى : ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَــا جَــاءهُمُ الْبَيِّنَــاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١٠٥} ﴾ آل عمران ، كلُّ هذه المعــاني والإشارات التي أشرت إليها ينبغي أن ندركها ونلتزم بها ، فنتبارى قاصدين وجه الله بعقول حرَّة عليمة ، وفي محــيط قلــوب منيــرة سليمة ، ساعين بصدق إلى أن ينتفع بعضنا بعلم بعض ، وأن يُكمِّل بعضنا بعضاً ، وأن نحرص كلَّ الحرص علــى التعــارُف والتــآلف والتعاون على البرِّ والتقوى ، ومن أعظم القُربات برُّ العقول بــالعلم النافع من خلال الخُلق الكريم ، ولنا كلُّنا يقول الله تعالى : ﴿ ... وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً {٨٥} ﴾ الإسراء ، بعد هذه المقدِّمة هيَّا بنا يا ولدي إلى المعلومة الثَّانية .

معلومة { ٣ } :

العبد الفقير قرأ عدَّة كتب من تأليف هؤلاء الذين يُحرِّمون الصــلاة في مسجد فيه قبر ، ويعتبرونه مع الأسف مسجد ضــرار فأدركــت أنَّهم خلطوا بين اتِّخاذ القبور مساجد كما فعل اليهود والنصــارى ، وبين ما يفعله المسلمون من بناء قبر رجل صالح بجوار مسجد ، أو بناء مسجد بجوار قبر رجل صالح ، أو أُدْخِل مثل هذا القبر فأصــبح في جانب من جوانب المسجد ، وأدركت أنَّ المؤلِّفين خلطــوا بــين عقيدتين متباينتين : عقيدة المسلمين الحنيفيَّة البيضــاء ، وعقيــدة غيرهم المخلوطة المُحرَّفة ، مع أنَّ ما يفعله المسلمون لا يُعدُّ اتِّخاذ القبر مسجداً ، لذلك أدركت من أوَّل وهلة أنَّ المؤلِّفين قــد اخــتلط

عليهم الأمر ، وشمَّروا عن سواعدهم كي يقذفوا بالاتِّهامات هنا وهناك ، ولم يعُوا ما يقصده النبيُّ ﷺ بأحاديثه الشريفة في هذا الشأن ، وما ينهي عنه وما يُحذِّر منه ، ولو كان النبيُّ ﷺ يُريد أن يُحرِّم صلة القبر بالمسجد أو صلة المسجد بالقبر لحسم القضيَّة من البداية ، ولأشار بدفنه في البقيع لا في حجرة السيِّدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ التي تُوفِّيَ فيها ، وليس بينها وبين المسجد إلا جدار فيه باب مفتوح في المسجد ، ولكنَّه القائل والراوي عنه الصدِّيق أبو بكر ﷺ : [ما قُبِض نبيٌّ إلا حيث يُدفن] رواه الترمذي ، ولو كان النبيُّ ﷺ يريد أن يحرِّم صلة القبر بالمسجد وصلة المسجد بالقبر ، لما وافق جيل التابعين في عصر الوليد بن عبد الملك الذي هدم المسجد لتوسعته بإدخال حجرات أُمَّهات المؤمنين وبخاصَّة حجرة السيِّدة عائشة حيث يوجد قبر النبيِّ ﷺ ومعه صاحباه الصدِّيق والفاروق ـ رضي الله عنهما ـ ، أقول : لَمَا وافق العلماء في عصر التَّابعين على ما فعله الوليد من إدخال القبر في المسجد ، ولعارضوا ذلك وما سكتوا عن ذلك ، وجيل التابعين غير مطعون فيه ، فهو يقع بين جيلي الصحابة وتابعي التابعين ، ثلاثة أجيال هم خير القرون كما ورد عن النبيِّ ﷺ ، بل إنَّ قول النبيِّ ﷺ : [ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنَّة] رواه الإمام مسلم عن عبد الله بن زيد ، وفي رواية أبي هريرة بزيادة : [... ومنبري على حوضي] أقول : إنَّ هذا الحديث الصحيح دليل قاطع بصلة القبر بالمسجد ؛ لأنَّ منبره داخل

المسجد ، وهذا يعني أنَّ قبره الشريف جزء من المسجد ، ومعه قبران لوليَّين من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وفي عصر الصحابة تمَّ دفنهما معه ، وتأكَّد صلة قبورهم بالمسجد حين تمَّ توسيع المسجد ، وأُدخلت القبور الثلاثة فيه بطريقة صريحة في عصر التابعين ، فمن ذا الذي هو أكثر معرفة من هؤلاء حتَّى يعترض على فعلهم إلى يوم القيامة ؟ ولو أدرك المؤلِّفون لمثل هذه الكتب الناهية عن الصلاة في مسجد فيه قبر هذه الحقائق المشرقة بنور الله ، لما أثاروا هذه الأمور التي أوقعت الأمَّة في مستنقع الصراعات وفرَّقتها إلى فرق وشيع ومذاهب مُتصارعه ، وأتباعها يتناطحون كما تتناطح الثيران ، ولقد برَّأ الله نبيَّه من كلٍّ هذه الفتن فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ... {١٥٩} ﴾ الأنعام ، ولكن ما قصَّة اتِّخاذ أهل الكتاب قبور أنبيائهم مساجد ؟ هذا ما ستعرفه في المعلومة الثالثة فهيَّا بنا .

معلومة {٣} :

يا ولدي إنَّ عبارة : [... اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد] تكاد تكون في جميع الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ في هذا الشأن ، والغريب أنَّ معناها اللغويَّ واضح يؤكِّد أنَّ فعل غير المسلمين الذي يمارسونه في أرض الواقع يختلف تماماً عمَّا يفعله المسلمون ، فغير المسلمين اتَّخذوا القبور مساجد : بمعنى أنَّهم يعبدون أصحابها ويسجدون لهم بل لصورهم التي تخيَّلوها ، وبذلك يكون الواحد منهم قد اتَّخذ قبر الصالح مسجداً ، والكفر والشرك في هذا التصرف

واضح يجلب اللعنة ؛ لأنَّ لعنة الله لا تكون مقرونة إلا بكفر وشـــرك أو أيُّ فعل فاحش بلغ القمَّة في الفحش ، ولذلك روت السيِّدة عائشة أم المؤمنين ــ رضي الله عنها ــ أنَّ أم حبيبـــة وأم ســلمة ذكرتـــا كنيسة رأينَهَا بالحبشة فيها تصاوير فذكرتا للنبـــيِّ ﷺ فقـــال : [إنَّ أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا علـــى قبـــره مســـجداً وصوَّروا فيه تلك الصُّوَر فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة] أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد ﷺ ، وتأمَّل يا ولـــدي نيَّـــة هؤلاء في بناء المسجد أو المعبد على القبور ، إنَّ النيَّة فيه هي أن يُصبح القبر مسجداً ويتَّخذوه مســـجداً ؛ لأنَّهـــم يعبـــدون أنبيـــاءهم وصالحيهم ، كما قالت اليهود : ﴿ ... عُزَيْرٌ ابْنُ اللّـــهِ ... {٣٠} ﴾ التوبة ؛ لأنَّه كان رجلاً صالحاً ، وهذا ما ذكره النبيُّ ﷺ في جميـــع أحاديثه في هذا الشأن ، ثمَّ أكَّدوا ذلك بهذه الصور الخياليَّـــة التـــي يسجدون لها من دون الله ، ومن هنا كانـــت اللعنـــة ، فهـــل فعـــل المسلمون مثل ذلك حتَّى يعزلهم هؤلاء الصادُّون عن الصالحين عن أمَّتهم ؟ هل يوجد أيُّ مسجد معتمد فيه صورة صـــاحب الضـــريح ؟ حتَّى لو فُرض مثل هذه الصورة ، فهل سجد لها مسلم في يوم مـــن الأيَّام ؟ بل إنَّ زخرفة المساجد مكروهة في شريعة الإسلام ، فهـــل رأينا مسلماً سجد لقبر رجل صالح واتَّخذه مسجداً ؟ إنَّ غايـــة مـــا يفعله المحبُّون للصالحين ؛ لأنَّهم مؤمنون حقّاً لا يعدو بنـــاء القبـــر بجوار المسجد أو بناء المسجد بجوار القبر ، وقد يوجد قبر الرجـــل الصالح أو السيِّدة الصالحة في جانب من جوانب المســـجد ، وقـــد

سبق أن حدث ذلك بالنِّسبة لقبر سيِّد الأنبياء ومعه وليَّان من خيـرة أولياء الله : أحدهما الصدِّيق ، والصدق حقيقة الديـن . وثانيهمـا الفاروق لعدله ، والعدل شريعة الدين . فإذا كان إمام المرسـلين ﷺ وجناحي الصِّدق والعدل دُفنُوا في مكان واحد هـو حجـرة السـيِّدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ وصلته بالمسجد كانت معروفة لهم قبل موتهم ، وظلَّت معروفة لجيل الصحابة من بعـدهم ، بـل أصـبحت قبورهم في قلب المسجد كما هي في كلِّ قلب يؤمن إيماناً حقّاً ؛ لأنَّها روضات من رياض الجنَّة ؛ لأنَّه إذا كان ما جاورها من الأرض إلى المنبر روضة ، فما بالك يا ولدي بها هي ؟! فصلة قبور السـاجدين بالمسجد سواء أكانت بجواره أم بداخله أمر أقرَّه العلماء العـاملون في كلِّ زمان ومكان ، اقتداءً بما حـدث لقبـور أفضـل خلـق الله وصاحبيه ؛ لأنَّهم فهموا جيِّداً ما يقصده النبيُّ ﷺ وما يحذِّر منـه ، ثمَّ إنَّ هناك أمثلة تدلُّ على ذلك ، فهيَّا بنا يا ولدي إلـى المعلومـة الرابعة .

معلومة { ٤ } :

يا ولدي إنَّ هؤلاء الذين يفسِّـرون أحاديـث النبـيِّ ﷺ دون قبـول للمناقشة البنَّاءة ، رغم أنَّ الحقَّ جليٌّ ومجسَّم فـي تـاريخ الأمَّـة الإسلاميَّة لا يحتاج إلى تلفيق في التفسير ، أقول : أنَّ موقفهم هـذا يصفه النبيُّ ﷺ بالتـنطُّـع حـين قـال : [هلك المتنطِّعون] أنـا لا أعترض على أيِّ رأي مادام صـاحبه قـابلاً للمناقشـة بالـدليل والبرهـان ، ولكن اعتراضي على التنطُّع والتشـدُّد وعـدم قبـول

الحجَّة بالحجَّة ، والدليل بالدليل ، حتَّى تتَّسع دائرة العلم والمعرفة ، وحتَّى تنصهر السدود التي جمَّدها المتشدِّدون بين الناس ، وفجَّـرت الفتن بين أبناء الأمَّة الواحدة . تأمَّل يا ولدي السيِّدة زينب بنت بنت رسول الله ﷺ ، وابنة باب مدينة العلم سيِّدنا علي ﷺ ، وشـقيقيها سيِّدي شباب الجنَّة : سيِّدنا الحسن ، وسيِّدنا الحسين ــ رضـي الله عنهما ــ أين قبرها ؟ قبرها في مكان كانت تتعبَّد فيه ، ثـمَّ دُفنـت فيـه ، ثمَّ بُني مسجدها بجواره ، وكذلك حـدث مـع غيرهـا مـن الصالحين ولم نسمع من يعترض من العلماء على ذلك ، أليس قبـر فضيلة الشيخ / محمَّد زكي إبراهيم ــ رائد العشيرة المحمَّديَّة وعالم عصره وعضو المجلس الأعلـى للشـئون الإسـلاميَّة ــ مُلاصـقاً لمسجده أو بداخله ؟ ألم يبن فضيلة الشيخ محمَّد متولي الشـعراوي ــ الذي لُقِّب في عصره بإمام الدعاة ــ قبره مجاوراً لمسجده الـذي بناه ؟ ولعلَّ مسجده يتَّسع في عصر من العصور فيدخل فيه القبـر ، وما لنا نذهب بعيداً ألم يوص أو يأمر النبيُّ ﷺ مـن خـلال حديثـه الشريف الذي رواه عنه سيِّدنا أبو بكر الصـدِّيق أن يُقْبَـر حيـث يموت ؟ ولذلك دفنه الصحابة وهم خير القرون في حجـرة السـيِّدة عائشة المفتوحة على مسجده ، ثمَّ أدخلـت هـذه الحجـرة بقبـره الشريف في داخل المسجد في عصر التابعين ، وهم خير القرون بعد قرن الصحابة ، وجاء من بعدهم تابعو التابعين وهـم آخـر خيـر القرون الثلاثة ، ثمَّ مرَّت مئات السنين ولم يخل عصر من الأوليـاء الصالحين والعلماء العاملين ، فلم يذكر التاريخ أنَّ هـؤلاء العلمـاء

العاملين في تلك الأجيال الطاهرة قد اعترضوا على بناء المسجد بجوار القبر ، أو وجود القبر بجوار المسجد ، أو في جانب من جوانب المسجد ، بل إنَّني أكاد أقول كما قال بعض العارفين : اتصال المسجد بقبر الساجد ـ والساجد هو الرجل الصالح ـ أو اتصال قبره بالمسجد سُنَّةَ فعلها خير الأجيال على الإطلاق ، وعلى رأسهم جيل الصحابة الراشدين ، والذين يقول النبيُّ ﷺ بشأنهم وشأن من هم على طريقهم وطريقتهم المهديِّين بهدي خاتم النبيِّين ﷺ من بعده على مرِّ العصور ، أقول : يقول : [عليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديِّين من بعدي ...] من حديث العرباض بن سارية في صحيح أبي داود والترمذي ، ألم يُدفن الصدِّيق ﷺ في نفس حجرة السيِّدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ بجوار النبيِّ ﷺ وهو إمام أولياء هذه الأمَّة ؟ ألم يستأذن عمر الفاروق ﷺ في أن يشْرف بدفنه بجوارهما ؟ أليست هذه القبور ملاصقة ومتَّصلة بالمسجد في أوَّل الأمر ثمَّ هي الآن جزء منه إلى يوم القيامة ؟ وبخصوص الإدعاء أنَّ المصلِّي يسجد للقبر لوجوده في المسجد ، فهذا موضوع الكلام فيه في المعلومة الخامسة فهيَّا بنا .

معلومة { ٥ } :

يا ولدي في كتاب (تحذير السَّاجد من اتِّخاذ القبور مساجد) يُفسِّر المؤلِّف أنَّ معنى اتِّخاذ القبور مساجد في ثلاث صور :

١) الصلاة على القبور بمعنى السُّجود عليها .

٢) السُّجود على القبور واستقبالها بالدعاء والصلاة .

٣) بنــاء المســاجد عليــها وقصــد الصــلاة فيها .

وقد رجَّح المؤلِّف أنَّ المعنى يشمل جميع هذه الصُّور وذكر أنَّ الشرع قد نهى عنها ، والردُّ على مثل هذا الكلام : هــو أنَّ المســلمين لــم يفعلوا هذه الصُّور الثلاَّث ، ولن يفعلوها ـــ إن شاء الله ـــ فــلا هــم يسجدون على القبر ويتَّخذونه مسجداً ؛ لأنَّ فوق قبر الرَّجل الصــالح إشارة خشبيَّة أو حجريَّة ، أو إشهار خشبيٌّ أو حجريٌّ يمنع ذلك ، فلا يستطيع أحد ولا يرضى مسلم أن يقف فوق هذه الإشارة ليصلِّــــي ، ثمَّ إنَّ المسلمين يحرم عليهم أن يقفوا فوق القبر أو يجلسوا عليــه ؛ لأنَّ دينهم يأمرهم أن يحافظوا على حرمة الميِّت ، ولا هم يقصــدون استقبال القبر والسُّجود إليه ؛ لأنَّ القبر في باطن الأرض وما فوقــه مُحاط بمقصورة هي حائل مشروع بين المصلي وبين كلِّ مــا يتعلَّــق بالقبر ، والسُّترة في الفقه الإسلامي معروفة ومشروعة ، فإذا وقــف المسلم يصلي في أيِّ مكان فيقول : (الله أكبر) فبتكبيــرة الإحــرام التي يفتتح بها صلاته ، وبتكبيرات الانتقال خلال صلاته ، وبنيَّته التي يدخل بها صلاته إنَّما هو يصلي ويسجد لله وحده لا لصاحب القبــر ، سواء أكان نبيّاً أم وليّاً ، وهذا هو الذي يحدث منذ أن انتقل النبيُّ ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وحدث ما حدث في طريقة دفنه في حجرة السيِّدة عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ التي ذكرتها تطبيقاً لوصيَّته التي ذكرهــا الصدِّيق أبو بكر ﷺ ، ونُفِّذت في عصر الصحابة ولم يعترض أحــد ، بل معروف أنَّ بعض الصحابة كانوا يرون دفنه بجوار المنبــر قبــل معرفتهم بوصيَّته ﷺ التي ذكرها الصدِّيق أبو بكر ﷺ ، فلو كان وجود

قبر الرجل الصالح بداخل المسجد يتنافى مع دين الله ، فهل كان الصحابة قبل علمهم بالوصيَّة يرون دفنه ﷺ بجوار المنبر كرأي مُعلن من بين الآراء ؟ ولم يرِد رأي يقول بدفنه بعيداً عن المسجد ، حدث ذلك في عصر الصحابة خير جيل على الإطلاق ، وظلَّ بناء قبر رجل صالح بجوار مسجد أو بناء مسجد بجوار قبر رجل صالح أو وجود قبر رجل صالح في جانب من جوانب المسجد وبداخله أمراً طبيعياً ، وبقي المسجد مسجداً والقبر قبراً ، والربُّ ربّاً والعبد عبداً ، أقول : ظلَّ هذا الأمر قروناً بعد وفاة النبيِّ ﷺ ، ومن بين هذه القرون القرون الثلاثة الأولى التي هي خير القرون على الإطلاق ، وظلَّ المكان المدفون فيه الرجل الصالح الساجد في قبره روضة ، وهو حيٌّ في برزخه يسجد كما هو ، لم يعترض عليه أحد خلال كلِّ هذه القرون ؛ لأنَّ سجوده لله لم ينته بموته ، وظلَّ يسجد سجود تشريف بعد أن انتهى سجود التكليف بموته ، وظلَّ المكان المخصَّص للصلاة يسجد أحياء الدنيا فيه لله ربِّهم ، وظلَّ المسجد مسجداً ، والقبر قبراً ، أمَّا بناء المسجد على القبر بقصد الصلاة فيه فهذا لم يحدث أبداً ، ولا تعجب إذا قلت لك : أنَّ الصالح لم ينته سجوده لله بموته ، فقد قال رسول الله ﷺ : [مررت ليلة أُسري بي على موسى وهو قائم في قبره يصلِّي] رواه البخاري ومسلم . وما من عبد صدق في سجوده لله في دنياه حيث الغطاء إلا وظلَّ ساجداً لله بعد موته بعد كشف الغطاء ، وشتَّان بين سجودين في المعني : سجود مع وجود الغطاء ، وسجود ما بعد كشف الغطاء ، فكيف نثبت السجود الإشارة

ونتوقف عند السجود الأصل المشار إليه ؟! أمَّا تعْليقي على الصـور الثلاث التي ذكرها مؤلِّف الكتاب (تحذير الساجد من اتِّخـاذ القبـور مساجد) ففي المعلومة السادسة فهيًّا بنا .

معلومة {٦}:

يا ولدي : لماذا لعن الله هؤلاء الذين اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد كما ورد في أحاديث الرسول ﷺ ؟ وما تعْليقي على الصور الـثلاث التـي ذكرها المؤلِّف ؟ يا ولدي هذه صور متعلِّقة بغير المسلمين والتي من أجلها لُعنوا ؛ لأنَّهم يقصدون عبادة غير الله المعبود الحق أو إشـراك غيره معه في العبادة ، ولكن تكبيرة الإحرام عنـد المسـلم طهَّـرت المكان والزَّمان والحال من الشرك الذي يتَّهم به هؤلاء الصادُّون عن الصالحين ــ من خلال أقلامهم وألسـنتهم ــ الموحِّـدين والمحبِّـين للصالحين من أمَّة النبيِّ محمَّد ﷺ ، ألم يعلموا أنَّ النبيَّ ﷺ قد حـذَّر من أن يرمي المسلم أخاه المسلم بالكفر والشـرك بغيـر بيِّنـة أو برهان ، فقال : [إذا قال الرجل لأخيه : يا كافر فقد باء بها أحدهما] من رواية أبي هريرة وابن عمر ﷺ ، وقد حقَّقـه الألبانـي ؟! وقـد قال العلماء : (ترك قتل ألف كافر أولى من إراقة دم مسلم) وأتمنَّـى أن يُريح هؤلاء المعترضون أنفسهم وأقلامهم ، ويعزموا بصدق على مراجعة آرائهـم والاطِّـلاع الصحيح المحـايد على جميـع الآراء ، ولا يهملوا آراء أهل العلم المخلصين أمثال : فضيلة الشيخ / محمـد زكي إبراهيم ، وفضيلة الشيخ / صالح الجعفري ، وفضيلة الدكتور / عبد الحليم محمود ــ رحمهم الله ــ وغيرهم .

السؤال الثاني والأربعون :

ولكن هؤلاء المؤلِّفون يقولون : إنَّ أئمَّة المذاهب الأربعة يتَّفقون معهم في تحريم بناء المساجد على قبور الصالحين ، أو الصلاة في مسجد به قبر رجل صالح ، أو الصلاة في اتِّجاه القبر إلى غير ذلك ممَّا يذكرونه في كتبهم ، فما ردُّك ؟

الإجابة :

معلومة {1} :

يا ولدي ردِّي على ذلك سآخذه من كُتبهم هُم وبخاصَّة كتاب (تحذير السَّاجد من اتِّخاذ القبور مساجد) وهذا الكتاب يحذِّر المسلمين من المسلمين مع أنَّ الجميع يعبدون الله الواحد الأحد ، ويتَّجهون إلى قبلة واحدة ، كتابهم واحد عربيٌّ محفوظ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه : ﴿ ... كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ {1} ﴾ هود ، وأُسوتهم في خاتم النبيِّين ﷺ ونور الموحِّدين المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، عباداتهم مُحكمة ، وأركان دينهم قائمة متينة ، دينهم الحنيفيَّة السَّمحة البيضاء التي ليلها كنهارها ، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يُكفِّر هؤلاء بقيَّة الأمَّة ؛ لأنَّ هذه البقيَّة تحبُّ الصالحين وتسعى لزيارتهم ؟! أليس الذي يحبُّ من يحبُّ الله يحبُّه الله ؟ لماذا يتَّهمونهم بأنَّهم ليسوا موحِّدين ، مع أنَّ أحباب الصالحين لحبِّهم الله هم الذين لهم السَّبق في التوحيد حيث إنَّ فيهم جوهره بحبِّهم أحباب الله ؟ ألا يُقسِّم هذا الموقف المتعنِّت ــ الذي لا يمُتُّ إلى العلم والحكمة بصلة ــ الأمَّة إلى فِرَق

تختلف عقيدة مما يمزّق هذه الأمَّة ؟ بل قد أدَّى فعلاً إلى تمزيقها .
وهيَّا بنا يا ولدي إلى المعلومة الثانية لتعلم ردِّي عليهم عن تساؤلهم من كتبهم ، هيَّا بنا .

معلومة { ٢ } :

يا ولدي هؤلاء يذكرون في كتبهم أنَّ أئمَّة المذاهب الأربعة يتَّفقون معهم في الرأي بتحريم وجود قبور الصالحين في المساجد ، وفي تحريم الصلاة في مساجد بها قبور الصالحين ، وفي اتِّهامهم لزوَّار الصالحين والصلاة في مساجدهم بالقبوريِّين ، وبأنَّهم يُشبهون عَبَدة الأوثان إلى غير ذلك من صور القذف ، فيذكرون أنَّ الإمام الشافعي كره ، ويقولون : كره أن يُبنى على القبر مسجد ، وكره أن يُصلَّى في اتِّجاه القبر ، وهذا يعني أنَّ الإمام الشافعي لم يقل بتحريم ذلك بل بكراهيته فقط كما ذكروا هُم في كتبهم ، بل ذكر أحد مؤلِّفيهم أنَّ الإمام الشافعي ﷺ قال : (من صلى إلى قبر أجزأه) والمؤلِّف يتَّهم الإمام الشَّافعي بأنَّه أساء بهذه الفتوى ، فما باله إذا علم أنَّ الفقهاء وبخاصَّة الإمام الشافعي أباحوا إقامة القباب فوق قبور الصالحين وكتابة أسمائهم لمعرفتهم وزيارتهم ؟! وقد ورد ذلك بأدلَّته مع تعليقي عليه فيما جاء في كتاب (التبصير في البناء على القبور) للدكتور / محمَّد الفاتح أحمد مرزوق ، تلميذ فضيلة الإمام الرائد الشيخ / محمَّد زكي إبراهيم ، رائد العشيرة المحمَّديَّة ـ أكرمهما الله ـ حيث يذكر أنَّ :-

١) تصنيف (المحلى) لابن حزم يقول فيه : (فإن بُني على القبر بيت أو قائم لم يُكره ذلك) وتعليقي على ذلك هو :- تأمَّل أيُّها

القاريء قوله : (... لم يُكره ذلك) فلم يقل : (لم يُحرَّم ذلك) ممَّا يدلُّ على أنَّ البناء ليس حراماً ــ كما يزعم هؤلاء ــ بل ليس مكروهاً أيضاً فإنَّ البناء على القبر مُباح ولا شيء فيه ، وأقرَّ ذلك جماعة من المالكيَّة .

٢) وفي كتاب (الفروع من فقه الحنابلة) لابن مفلح تلميذ ابن تيمية يقول فيه : (لا بأس بقبَّة وبيت ؛ لأن الدفن كذلك مأذون به) وهو قول ابن القصَّار وجماعة من المالكيَّة كما حكاه الحطَّاب في شرح (المختصر) وتعليقي على ذلك :- أنَّ تلميذ ابن تيمية الإمام الذي يحتجُّون به في تأييد دعواهم ينفي ما ادَّعوه من تحريم البناء فوق قبور الصالحين .

٣) وفي بحثه (بذل المجهود) أفتى الحافظ السيوطي الشافعي : (باستحباب البناء على قبور الأولياء والصالحين ووافقه جماعة من فقهاء الشافعيَّة وغيرهم) وتعليقي على هذا :- أنَّ البناء على قبور الصالحين ليس مباحاً فحسب بل هو مستحبٌّ ؛ لأنَّهم مصابيح نور النبيِّ محمَّد ﷺ في حياتهم الدنيويَّة وفي برازخهم ، وقد رفع الله ذكر النبيِّ ﷺ .

٤) ونقلاً عن الشيخ الرحماني وهو عالم فقيه يُعتدُّ برأيه ، قال الفقيه البرماوي وهو ثقة : (نعم قبور الصالحين يجوز بناؤها ولو بقبَّة لإحياء الزيارة والتبرُّك ، لقول الإمام الحلبيِّ : ولو في أرض مُسبلة ، أي أرض موقوفة) وتعليقي على هذا :- أنَّها فتوى اشترك فيها أكثر من فقيه من أئمَّة الفقهاء ، وفيها حثٌّ

على زيارة قبور الصالحين والتبرُّك بهم امتداداً لزيارة قبر النبيِّ ﷺ القائل : [من زارني بعد مماتي فكأنَّما زارني في حياتي] .

٥) وقال الشيخ عبد القادر الفاسي ــ رحمه الله ــ :(ولم يزل الناس يبنون على مقابر الصالحين والأئمَّة شرقاً وغرباً كما هو معلوم ، وفي ذلك تعظيم حُرمات الله ، واجتلاب مصلحة عباد الله لانتفاعهم بزيارة أوليائه ، ودفع مفسدة المشي والحفر ، والمحافظة على تعيين قبورهم وعدم اندراسها ، أي عدم خفاء أثرها) وتعليقي على هذا هو :- أنَّ البناء على قبور الصالحين كان معروفاً وشائعاً في أجيال المسلمين السابقين القريبين من عهد النبوَّة ، ويكفي أن بدأ هذا بقبر النبيِّ ﷺ ، ولهذا يقول الشيخ عبارته : (... كما هو معلوم ...) ثمَّ إنَّ هذه إشارة إلى أنَّ المسلمين يعظِّمون شعائر الله ؛ لأنَّها من تقوى القلوب ، وشعائر الله كلُّ (ما ومن) يُذكِّرك بربِّك ، والصالحون وما يذكِّرنا بهم هم من أعظم شعائر الله بسيرتهم وآثارهم ، والبناء على قبورهم يحفظ هذه الشعائر وفيه تعظيم للحرمات وفيه تذكير بتاريخ الصالحين ، فكأنَّ هذه الأضرحة كُتب مفتوحة تُقرأ علينا كلَّ يوم فتذكِّرنا بالآخرة ووسائل الوصول إليها بطريقة مُنجية .

٦) والشيخ المسناوي في (مسائله) سُئل : عن البناء على قبر الرجل والمرأة ممَّن يُرجى بركتهما في الحياة وبعد الموت ؟ فأجاب : (إنَّ البناء على قبور الصالحين بقصد التبرُّك والتمييز وحفظ الحُرمة جائز ، بل مطلوب لما ذكره بعض المحقِّقين أنَّ

فيه جلب مصلحة الانتفاع بالصالحين ، ودفع مفسدة امتهانهم بالحفر أو المشي ، إذ لولا البناء لاندرست ــ أي اختفت ــ قبورهم فتبطل زيارتهم ، وزيارة القبور مطلوبة شرعاً) وتعليقي على هذا هو :- أنَّ البناء على قبور الصالحين ليس مباحاً أو مستحبًّاً فحسب ، بل هو مطلوب ، وألاحظ أن علماءنا وفقهاءنا الصالحين يذكرون دائماً كلمة التبرُّك وكلمة الانتفاع وكلمة الزيارة وكلمة التمييز وكلمة حفظ هذه القبور بالبناء فوقها ، فما معنى ذلك ؟ أليس معناه أن نرتبط بهذه الأمكنة الطاهرة التي فيها رموز النور المحمَّديِّ ومصابيحه ؟ أليس معنى ذلك النفي القاطع لما يقوله البعض : من أنَّ الصالح لا ينفع وبالتالي لا تبرُّك ولا تمييز ولا زيارة ؟ لقد غاب عن عقول هؤلاء وعن قلوبهم أنَّ هؤلاء الصالحين سواءٌ أكانوا في حياتهم الدنيويَّة أم في برازخهم لا حول لهم ولا قوَّة ؛ لأنَّهم مستغرقون في أحوال الذلِّ لله والافتقار إليه ، وليست ذواتهم سواءٌ أكانت في بيوتهم أم في برازخهم مصدر نفع أو ضُرٍّ ، ولكنها محض سبب نفع بحبِّها وزيارتها وزيارة مواقعها ، ومحض سبب ضرٍّ لِما يُناقض ذلك ، فحيث يوجد حال العبوديَّة وقمَّتها تتحقَّق في حالة موت الصالح ودفنه في قبره ، أقول : إنَّ حال عبوديَّة الرجل الصالح وبخاصَّة بعد موته يُشعر العبد الزائر والمحبُّ بعظمة الربوبيَّة وعزِّ الألوهيَّة ، فحيث يوجد عبد لله حقيقة بحاله يُشعر الزائر والمحبُّ لهذا الصالح في بيته أو في قبره بعظمة الله وقرب الله ،

وهنا تَرِقُّ الأغدلِيّة وتخشع القلوب : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً {١١١} ﴾ طه ، فكلُّ حيٍّ يموت ولا يبقى إلا الحي القيوم الذي لا يموت .

٧) وفي كتاب (نوادر الأصول) للحكيم الترمذي : (أنَّ من بين أعمال السيدة فاطمة الزهراء ـ رضي الله عنها ـ أنَّها أتت قبر سيِّد الشهداء الصحابي حمزة ﷺ في كلِّ عام ، فأصلحت ما تهدَّم منه حتَّى لا يزول أثره فيخفى على زائره) وتعليقي على ذلك أقول : مَن هي السيِّدة فاطمة الزهراء ؟ أليست بنت النبيِّ محمَّد ﷺ ؟ أليست أمّاً لسيِّدي شباب أهل الجنَّة ؟ أليست زوجة باب مدينة العلم ؟ ونحن جميعاً نعرف من هو مدينة العلم ﷺ ، لماذا كانت حريصة على ظهور قبر سيِّدنا حمزة ﷺ ؟ لماذا كانت ترمِّم ضريحه ليبقى في حالة طيِّبة تُسمح بزيارته ؟ أليس هناك صحابيَّان جليلان مدفونان تحت مسجد الإمام حمزة الذي كان مقاماً فوق قبره وهذان الصحابيَّان هما : سيِّدنا مصعب بن عُمير وسيِّدنا عبد الله بن جحش ـ رضي الله عنهما ـ ؟ ما حُجَّة هؤلاء الذين هدموا هذا المسجد وضريح الإمام حمزة ﷺ حتَّى نسي الناس الصحابيَّين المذكورين ؟! بل ما حجَّتهم حين أزالوا ما يدلُّ على مراقد شهداء أُحُد ﷺ وأحاطوا المكان بسور له باب من الحديد لا يرى الناظر من خلاله إلا أرضاً جرداء لا زرع فيها ولا ماء ؟ أليس هذا التصرُّف من ورائه النعرة القبليَّة الجاهليَّة ولا صلة له بدين الله الذي رموزه الصالحون ؟ أليس هذا تحقيق

لرغبة أعداء الإسلام ؟ أليس هذا التصرُّف يجعل المسلم يُصـدِّق ما جاء في كتاب مذكرات (هَامْفَر) الإنجليزي ومـا أدراك مـا (هامفر) ؟! وا أسفاه علـى قـوم يهـدمون باسـم البنـاء ، ويُفسدون باسم الإصلاح ، ويُحقِّقون كلَّ ما يتمنَّاه أعداء الرحمن والقرآن وولد عدنان ﷺ باسم التوحيد ، أليس هذا يعنـي أنهـم يفعلون ذلك وكأنَّهم أعمق توحيداً من بيت النبوَّة ؟

٨) وفي (مصباح الظلام) الذي ألَّفه العلاَّمة / علـي بـن أحمـد الحدَّاد قوله : (من قال بتكفير البلد ـ أهله ـ الذي فيه قِبـاب وأنَّ القِباب كالأصنام ، فهو تكفير للأوَّلين المتقدِّمين والمتأخِّرين من الأكابر والعلماء والصالحين ، وفي ذلـك مخالفـة للإجمـاع السكوتي على مَن سبق مِن الأنبياء والصالحين) وتعليقي علـى هذا : أنَّه منذ عصر النبوَّة حتَّى ظهـور هـذه الأفكـار الشـاذَّة المشتِّتة للأمَّة كان الإجماع السكوتيُّ والقوليُّ علـى أنَّ البنـاء والقباب من الأشياء المباحة بل المستحبَّة ، ولو كان في بنائهـا وإقامتها فوق القبور ـ قبور الصالحين ـ أدنى شبهة تحريم أو كراهة لَمَا سكت مَن سكت ولَمَا أيَّدها مَن تكلَّم .

٩) ذكر ابن مُفلِح تلميذ ابن تيميَّة الفقيه في مـؤلَّفه (الفصـول) : (أنَّ الحظيرة على قبر إن كانـت في ملك ميِّت فعل وليُّـه مـا شاء ، وإن كانت في أرض مُسبلة ـ أي موقوفة ـ كره كراهـة تنزيه لا تحريم للتضييق على ما وُقفت عليـه) وذكـر الإمـام البخاريُّ ـ رحمه الله ـ : (أنَّ الصلاة إذا لم تكن قصـداً إلـى

القبر لا بأس بها ، وإنَّ معنى اتِّخاذ القبور مساجد إنَّما هو الصلاة عليها أو الصلاة إليها تعظيماً للقبر أو لصاحبه) وتعليقي على هذا هو : أنَّ تلميذ الفقيه ابن تيمية أباح لوليٍّ أمر الميِّت إذا كان قبر الرجل الصالح في أرضه أن يفعل ما يشاء فهو غير مقيَّد ، أي من حقِّه أن يبني فوق القبر ويقيم القبَّة ولا شيء عليه ، حتَّى ولو كان البناء في أرض موقوفة فلا يحرم هذا بل يُكره فحسب ؛ لأنَّه في أرض موقوفة لا لأنَّه بناء فوق قبر ، أمَّا بالنسبة لِما ذكره الإمام البخاريُّ فواضح أنَّ الصلاة التي يتَّجه بها المصلي إلى الله لا إلى صاحب القبر لا بأس بها ، وليس من زوار قبور الصالحين مَن يتَّجه بصلاته إلى غير الله ؛ لأنَّ المسلم أوَّل ما يقوله حين يشرع في الصلاة : (الله أكبر) فتكبيرة الإحرام يحرم بعدها الاشتغال بغير الله أو الاتِّجاه إلى سواه .

وهيَّا بنا يا ولدي أواصل معك الحديث حول هذا الموضوع الحسَّاس ، هيَّا بنا .

معلومة { ٣ } :

يا ولدي أواصل سرد الأدلَّة حول جواز إقامة البناء على القبر والصلاة في مسجد به ضريح لوليٍّ صالح :

١) روى الإمام البخاريُّ أيضاً في صحيحه على وجه الجزم والثقة : (أنَّ فاطمة بنت الحُسين بن علي نصبت قبَّة على قبر زوجها الحسن بن الحسن بن علي ، وأقامت فيها سَنَة تقيم فيها فرائض الصلوات ونوافل العبادات وذِكر وتلاوة مع أهلها ، وكان

ذلك في عصر فقه على مرأى من العلماء ولم يُنكر عليها أحد دليلاً على جواز ذلك ، والقبَّة على القبر بمنزلة المسجد عليه) *وتعليقي على هذا* : ألم يكن هناك علماء وفقهاء في عصرها يعترضون على تصرُّفها هذا ، لو كان هذا مكروهاً فحسب ؟! ثمَّ إنَّها هي أليست من بيت النبوَّة بيت العلم والأدب وكذلك زوجها صاحب هذا القبر ؟! إنَّ الحقَّ واضح لا ريب فيه .

٢) وفي شرح النوبشتيُّ على كتاب (المصابيح) قوله : (وقد أباح السلف البناء على قبور العلماء والمشايخ الصالحين يزورها الناس ليستريحوا إليها بالجلوس في البناء لتلاوة القرآن ، فتكون مثل الرباطات والمساجد) كذلك الفقيه ابن عابدين في حاشيته أجاز البناء على القبور مستدلاً بما نقله عن (جامع الفتاوى في الأحكام) بنصِّه القائل : (ولا يُكره البناء إذا كان الميِّت من المشايخ والعلماء) *وتعليقي على هذا هو* : ألم يقرأ هؤلاء هذه الآراء وهذه المراجع ؟! هل كلُّ الفتاوى باطلة مادامت لا تتَّفق مع هواهم ؟! ألم يسمعوا قول الله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ {٣٥} ﴾ القلم ؟ أليس هذا هو قول الله ؟ وهل يسوي الله العدل بين المسلمين والمجرمين في دنياهم أو في برازخهم أو في آخرتهم ؟!

٣) ومن علماء المالكيَّة ابن حمدون قال على شرح (منظومة ابن عاشر ، جـ ٢ ، ص ٧) : (البناء على القبر بقصد تعظيم من يُعظَّم شرعاً جائز) *وتعليقي على هذا هو* : أنَّ معنى أنَّه

يوجد في حياتنا من يأمر الشرع بتعظيمه لمكانتـــه فـــي الـــدين ولصلاحه وحسن الظنِّ به ؛ لأنَّه من شعائر الله التي تذكرنا بالله وتذكرنا بعبوديَّتنا له ، والله يقول : ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ {٣٢} ﴾ الحج ، سواء أكان هذا المُعظَّـم حياً أم ميِّتاً ، إنساناً أم غير إنســان كالكعبــة ، بــل إنَّ حُرمَّــة المؤمن أعظم عند الله من حُرمة الكعبة ، فتعظيمـــه لوجـــه الله العظيم الحيُّ الذي لا يموت ، وتعظيمه بحبِّه والتأدُّب في زيارتـــه وتوقيره بقلوبنا ، واعتقادنا العميق أنَّه لا حول لـــه ولا قـــوَّة إلا بالله ، والعظمة أنَّ هذا هو حاله .

٤) روى الإمام ابن حبان في صحيحه وصحَّحه بسنده عن محمد بن أحمد بن إبراهيم عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رســـول الله ﷺ : [لمَّا أُسري بي إلى بيت المقدس مرَّ بي جبريل إلى قبر إبراهيم عليهما السلام فقال : انزل هنا صلِّ ركعتين ، فإنَّ ها هنـــا قبـــر أبيك إبراهيم عليه السلام ، ثمَّ مرَّ بي إلى بيت لحم فقال : انزل صلِّ هـــا هنا ركعتين ، فإن ها هنا وُلد أخوك عيسى عليه السلام] *__وتعليقي علـــى هذا هو__* : أنَّ الذين يُحرِّمون الصلاة في مســـاجد بهـــا أضـــرحة صالحين عليهم أن يتوبوا إلى الله ؛ لأنَّهم حرَّموا ما أحلَّ الله وما فعل رسول الله ﷺ ، فكم يكون حرجهم بين يدي الله ورسوله يوم القيامة ومن أفتى بغير علم فليتبوَّأ مقعده في النار ؟!

معلومة { ٤ } :

يا ولدي بقراءتي لكتاب الله وقراءتي لكثير من كتب العلماء العاملين تأكَّدت أنَّ من يصدون عن الصلاة في مسجد به ضريح لرجل صالح ويحرِّمون البناء المعيَّن لقبر رجل صالح ، ويعتبرون أنَّ زيارة الأضرحة وهي أوثان وأصنام في عقيدتهم لا تكون إلا من القبوريين ، وهكذا يسمَّون مُحبي الصالحين الموحِّدين لله بحبِّهم لأحبابه بهذا الاسم ويتَّهمونهم بالشرك ، ويؤكِّدون أنَّ صلاة هؤلاء المؤمنين في مساجد بها أضرحة باطلة مثل : مسجد سيِّدنا الحسين ، ومسجد السيِّدة زينب ، ومسجد السيِّدة نفيسة ، وغيرها من آلاف المساجد في أنحاء الأرض وبخاصَّة في مصر التي هي في رباط إلى يوم القيامة ، أقول : إنَّني تأكَّدت أنَّ مَن يصدُّون عن الصالحين منهم المجتهدون بغير بيِّنة ، ومنهم الذين يُعانون من أغيار نفسيَّة ، والجميع لا يُعطون فرصة لمعرفة الحقيقة ، ونحمد الله أنَّ مصر في رباط إلى يوم القيامة كما أشار إلى ذلك النبيُّ ﷺ ، وهي إشارة أنَّ مصر ستبقى مأوى الأولياء والمرفوعة فيها قبابهم إشارة إلى رفع ذكراهم ؛ لأنَّهم مصابيح نور النبيِّ محمَّد ﷺ والظاهر فيها أضرحتهم ؛ لأنَّهم رموز الدين ، وقضى الله أن يُظهره على الدين كلِّه ، وكثير من مساجدها تحظى بالروضة الثالثة روضة قبر رجل صالح مُضافاً إلى روضتي الذكر والعلم ، وبقيت هذه الروضات لا ينطفئ لها نور بنفخات جاهلة مُظلمة ظالمة ؛ لأنَّها ممدودة من

الروضة المعصومة ، من الروضة الأم ، روضة ما بين بيته أو قبره ﷺ ومنبره . إنَّ الصالحين يا ولدي بإشراق قلوبهم وإبصار عقولهم واستقامة ذواتهم هم مصابيح نور النبيِّ محمَّد ﷺ ، وهذه المصابيح لا تنطفئ أبداً ؛ لأنَّها محفوظة بهذا النور المعصوم ، وعصمته نابعة من جوهر قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ {٩} ﴾ الحِجر ، هذه المصابيح لا تنطفئ بموت بل تزداد نوراً ؛ لأنَّها ممدودة من جوهر قوله تعالى : ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى {٤} ﴾ الضحى ، فافهم يا ولدي : ﴿ ... وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً {٢٨} ﴾ الكهف ، يا ولدي إنَّ المساجد على مرِّ العصور وبخاصَّة في عصر النبيِّ ﷺ وما بعد عصره تؤكِّد صِلة قبور الصالحين الساجدين بالمساجد ثابتة لم تنقطع بالموت ، وعلى رأس هذه المساجد التي هي لله ــ لو كانوا يعقلون ــ المسجد النبوي ، حيث إنَّ به قبر أقرب وأحبُّ خلق الله إليه ﷺ وفيه قبرا صاحبيه الوليَّين الصدِّيق والفاروق ــ رضي الله عنهما ــ بل إنَّ هناك قبور الأنبياء تتعلَّق بالكعبة ، تدبَّر يا ولدي ما رواه الإمام المحدِّث أبو داود في سننه التي شرحها كبار علماء السُبكيَّة وغيرهم ، جاء عن رسول الله ﷺ قوله : [ما بين زمزم والحطيم تسعون نبيّاً موتى] موتى في سبيل الله الحيِّ الذي لا يموت ، فهم أحياء عند ربِّهم يرزقون ، وإذا كان الشهداء كذلك ، فما بالك بالأنبياء ؟ بل ذكر أنَّ من بين الأنبياء المدفونين بين بئر زمزم ومقام إبراهيم نوحاً وهوداً وصالحاً وشعيباً ، فكان النبيُّ يفرُّ

إلى ربِّه من خلال ذهابه إلى مكَّة حيث يوجد البيت الحرام وبخاصَّة إذا كذَّبه قومه ، فيموت هناك ويدفن حيث تُقبض روحه ؛ لأنَّ النبيَّ يُدفن حيث تفيض روحه كما أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ ، وكما كان بخصوصه حين دُفن حيث فاضت روحه في حجرة السيِّدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ يا ولدي ألم يُفكِّر هؤلاء أنَّه لو كان وجود قبورهم منكراً في المسجد الحرام وعند الكعبة لأخرج رسول الله ﷺ رفاتهم ودفنهم خارج المسجد الحرام ، ولفعل ذلك مع جده سيِّدنا إسماعيل عليه السلام وجدته السيِّدة هاجر ـ رضي الله عنها ـ ؟ حيث أنَّهما مدفونان بالحطيم وهو المعروف بحِجر إسماعيل وعلى هذين القبرين المكرَّمين بناء على شكل نصف دائرة تقريباً ، وهذا الحجْر من الكعبة تُسنُّ فيه الصلاة نفلاً ويُستحبُّ فيه الدعاء ، فعند الأحناف يُصلِّي الطائف بالبيت بعد الأشواط السبعة ركعتين بالحِجْر تحت الميزاب ، فإن صلاَّهما خارج الحرم أساء : هذا ما ورد في كتاب (الفقه على المذاهب الربعة) كتاب الشُعَب وعند الشافعيَّة : يُصلِّي الطائف بعد طوافه مباشرة ركعتين خلف المقام ثم بالحِجْر ، وهي سنَّة مطلوبة وكذلك عند الحنابلة ، هذا ما ورد في كتاب (الفقه على المذاهب الأربعة) كتاب الشُعَب ثمَّ إنَّ قول الله تعالى : ﴿ ... وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ... {١٢٥} ﴾ البقرة ، أليس هذا يعني بوضوح أنَّ الأماكن المُشرَّفة بآثار الصالحين وذواتهم هي أماكن رحمة وجلب للخير وجذب للبركة ؟ فليحرص المسلم المُشرِق قلبه والمُبصر عقله والطاهرة ذاته باللقمة الحلال على أن يُصلي

فيها لربِّه ساجداً له وحده ، ويدعوه أن يلحق بهم ويُدخله فيهم برحمته ، وإذا كان مجرَّد حَجَر وقف عليه رجل صالح هو سيِّدنا إبراهيم عبد الله ورسوله ﷺ وقد تأثر هذا الحَجَر بقدميه الشريفين ، قد أمرنا الله بصريح العبارة في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أن نتَّخذ من مقام صاحب هذين القدمين مصلًّى ، لمجرَّد أن وقف بهما على هذا الحجر المحظوظ حين كان يرفع القواعد من البيت ، ولو كان هذا الأمر من خلال حديث نبويّ لتسابقوا في اصطناع أدلَّة تكذيبه ، ولتنافسوا في رفضه وتضعيفه ، ولكن الله أمرنا أن نتَّخذ من مقام إبراهيم مُصلًّى من خلال كلامه المحفوظ ، فما بالنا بروضة الرجل الصالح في قبره إذا كان مجرَّد أثر قدمه ترتَّب عليه هذا الكرم وهذا الشرف ؟ فما بالنا بذاته إن وُجدت في قبره وبرزخه وأحاطت به ملائكة الرحمة ؟ وإذا كنَّا مَنهيِّين عن أن نقف على قبور المنافقين والمشركين ؛ لأنَّ من حولها ملائكة العذاب وموطن الشياطين ، والله يقول : ﴿ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ... {١١٣} ﴾ هود ، فإنَّ الحقَّ كلَّ الحقِّ في زيارة قبور المؤمنين وبخاصَّة الأولياء الصالحون ، فتعس من صَدَّ أو صُدَّ عن زيارتهم ، وخاب وخسر من أعرض عنهم وشقي بحَجْبه عن مجالسهم ؛ لأنَّهم قوم لا يشقى بهم جليسهم . وهيَّا بنا يا ولدي لأواصل معك الحديث حول الصلاة في مسجد به ضريح رجل صالح .

معلومة { ٥ } :

يا ولدي حين نسجد لله وحده ونصلِّي له بجوار قبور الصالحين إنَّما نؤكِّد مخالفتنا لمن لعنهم الله ؛ لأنَّهم اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، والصلاة عند المقام مشروعة ومطلوبة عند الإمام الشافعيِّ تصل إلى درجة الوجوب عند الطواف الفرض ، والصلاة سنَّة عند طواف التطوُّع ، وإذا توجَّهنا إلى فلسطين حيث يوجد المسجد الأقصى نجد هناك قبور الأنبياء : داود وسليمان ويوسف ، وقبور إبراهيم وإسحق ويعقوب ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بل إنَّ سيِّدنا موسى أُمر بنقل رفات سيِّدنا يوسف من قبره بمصر إلى بلد الخليل إبراهيم ـ عليهم السلام ـ وعلى قبر سيِّدنا داود عليه السلام بناء في المسجد الأقصى وهناك قباب ، ولم يأمر سيِّدنا عمر رضي الله عنه عند فتحه لبيت المقدس بهدم الأبنية والمشاهد ، ولم يأمر الصحابة من بعده بهدمها ومضت مئات السنين حتَّى ظهرت هذه الأفكار الشاذَّة برعاية أجنبيَّة أو بمعنى أدقُّ إنجليزيَّة لتمزيق هذه الأمَّة وتدميرها من داخلها ، وفي صحيح أبي داود وغيره أنَّ بمسجد الخيف عشرات من قبور الصالحين ، وقد صلى به النبيُّ صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعون والسلف دون نكير إلى اليوم وحتَّى ما شاء الله ، ألم يكن للسيِّدة فاطمة بنت أسد أمُّ الإمام علي ـ رضي الله عنهما ـ مسجد مبنيٌّ على قبرها وقد هدمه هؤلاء باسم التوحيد ؟! وكأنَّهم أكثر علماً من القرون السابقة القريبة من عهد النبوَّة ، كذلك قبر الصحابيُّ الجليل أبي بصير ، وكيف أنَّه لمَّا مات في مكانه الذي ذهب إليه دفنه مَن كان

موجوداً من الصحابة ـ وأقول الصحابة ـ وعلى رأسهم سيِّدنا أبو جندل وصلى عليه وبنى على قبره مسجداً ولم يعترض عليه أحـد ، وما لنا نذهب بعيداً ، ألا يحكي القرآن أنَّ قوماً في عصر أصـحاب الكهف اقترحوا اتِّخاذ مسجداً عليهم ، وكان رأي قـوم آخـرين أن يَبْنُوا عليهم بُنياناً ، وكلا الرأيين صائبان ، فالبنيان علـيهم أشـبه برفع القِبَاب فوق أضرحة الصالحين ، والرأي النافذ إلحاق الضريح أو أضرحتهم بالمسجد الذي اتَّخذوه عليهم ولم يُعقِّب الله بكلام فيـه تحريم أو كراهية لهذا الرأي أو ذاك ، أليس هذا دليلاً علـى صـحَّة البناء ذي القبَّة فوق قبر الرجل الصالح مُستقلاً عن المسجد وأصح منه إلحاق القبر بالمسجد ؟! أليس هذا التصرُّف سنَّة فعلها الصحابة مع قبر النبيِّ ﷺ بتوجيه منه لصاحبه الصدِّيق ﷺ ؟ وما أكَّـد هـذه السنَّة إلحاق قبري صاحبيه ـ ﷺ ورضي الله عنهما ـ بقبـره فـي مكان واحد مُلْحَق بالمسجد ، ثمَّ في عصر التابعين القرن الذي يلـي قرن الصحابة في الأفضليَّة ، أصبح مكان القبور الثلاثة وهو حجرة السيِّدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ بداخـل المسجد ولم يعتـرض أحد ، ومضت مئات السنين حتَّى فاحت رائحة الإنجليـز فـي بـلاد العرب ، وطفحت هذه الأفكار المتنطِّعة التـي أغرقـت الأمَّـة فـي مستنقع التفرُّق ، فوقعت الأمَّة بين مطرقة التنطُّع وسندان التشيُّع ، وحقَّق أعداء الإسلام حلمهم : ﴿ ... فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّـهُ الْمُسْـتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ {١٨} ﴾ يوسف ، أغابت كلُّ هذه الأدلَّة عن عقـول هؤلاء ؟ لماذا لم يُجر الله على ألسنة القوم في عصر أهل الكهف ما

يعني اتِّفاقهم على ردم التراب على هؤلاء الأولياء وتسوية قبورهم بالأرض ؟ لماذا اتَّفق الطرفان أو الفريقان على تعيين قبور لهؤلاء الصالحين من أهل الكهف وتمييزهم ببنيان سواءٌ أكان مسجداً أم بُنياناً مُجرداً ؟ ولو اتَّفق الجميع بإلهام الله لهم أن يردموا عليهم التراب ويُسووا قبورهم بالأرض لكان هذا تعليماً لنا ، كيف ندفن الصالحين ؟ وكيف نتصرَّف عند إعداد قبورهم ؟ وما ساق الله لنا قصَّة أصحاب الكهف في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً {٢١} ﴾ الكهف ، إلا إشارة واضحة أنَّ الله يرفع ذِكرَ الصَّالحين في حياتهم الدنيويَّة وفي حياتهم البرزخية ، فما بالك بحياتهم الأخرويَّة ؟! لأنَّهم قائمون بنور خاتم النبيِّين الواحد الذي يُوحِّد الواحد ، كنوَّاب قَبله ، وكخلفاء بعده ، وصاحب هذا النور أو سراج هذا النور ﷺ شرَّفه الله بالخطاب بقوله : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ {٤} ﴾ الشَرْح ، فهو مرفوع الذِكر إلى يوم القيامَّة ، ويتأكَّد ذلك يوم القيَّامة إلى ما لا نهاية ، كذلك مَن قاموا بهذا النور كُلٌّ وارثاً على قدره من قبله ومن بعده ، فمن ذا الذي يستطيع أن يُسوِّي قبورهم إلا مؤقَّتاً ؟ ومن سُوِّيَ قبره على يد هؤلاء مثل سيِّدنا حمزة ﷺ فستظلُّ ذِكراه في القلوب حتَّى تُرفع في عالم الشَّهادة في الوقت المُناسِّب وإذا كان للدنيا بقيَّة ، وهيَّا بنا يا ولدي إلى المعلومَّة السَّادسة حتَّى يتأكَّد لك أنَّ مَن ساءت نيَّاتهم

من هؤلاء ضلَّ سعيهم ، ومَن حَسُنَت نيَّاتهم اجتهدوا فأخطأوا ، فكلا الطرفين أساء ولا ينبغي اتِّباعهم ، هيَّا بنا .

معلومة {٦} :

يا ولدي لو كان البنيان على قبور الصالحين المدفونين في جوف الأرض الدفنة الشرعيَّة أو جعل هذه القبور متَّصلة بالمسجد ، أو الصلاة في مسجد فيه قبر رجل صالح أو امرأة صالحة ، أقول : لو كان محظوراً أو مُحرَّماً أو مكروهاً لَمَا رغَّبنا النبيُّ ﷺ في الصلاة فيما بين قبره المُتصل بالمسجِد بدايةً وبين منبِره الموجود بمسجده ، ألم يسمع هؤلاء بالروضة الشريفة التي لولا وجود قبره مُتَّصلاً بالمسجد بداية ودخوله فيه في النهاية ؟ أقول : لولا وجوده ما وُجدت وما بقيت هذه الروضة التي ينعم بها أهل الله في الدنيا والتي هي نضح لروضة قبره الشريف وبرزخه المُشْرِق بنور الله ، ولا أدري أكانوا يرغبون في رفع الروضة الأصليَّة ــ الروضة الأم ــ برفعهم قبره من المسجد ولكنَّهم ما استطاعوا ! فتختفي أشعتها فلا تبقى روضته التي من الجنَّة ما بين قبره ومنبره ، ولمَّا عجزوا عن فعل ذلك كأنَّهم قالوا : (ما لا يُدْرَك كلُّه لا يُتْرَك كلُّه) فأعلنوا حربهم على مشاهد الصالحين ، وحرَّموا صلة قبورهم بالمساجد ، لا أدري يا ولدي ما دار في صدورهم وما زاغ في قلوبهم ؛ لأنَّ الذي يعتَدي على الفروع ليس في قلبه توقير للأصول ، أليس كُلُّ صالح فيه ميراثهُ من نور خاتم النبيِّين الذي قام به في حياته وظلَّ به مرحوماً حيّاً بعد مماته ؛ لأنَّه نور واحد يوحد

الواحد ، سِراجه السِراج المُنير ﷺ ؟ وما الصالحون في حياتهم وبعد مماتهم إلا مرايا هذا النور ومصابيح هذا الشروق في كلِّ مكان وزمان ، فمن ذا الذي يستطيع أن يُطفئ هذا النور بكلمات زائغة ونفخات حاقدة ونفثات طائشة ؟ فروضته الشريفة الأصليَّة في قبره وما نتج عنها من روضة شريفة ما بين قبره ومنبره ليست عقيمة بل مراياها ومصابيحها قبور الصالحين في المساجد وفي غير المساجد ، وكلٌّ صالح له روضته الأصليَّة في قبره وروضته الناتجة من حوله ، فما من قبر رجل صالح أو امرأة صالحة إلا وهو روضة أصليَّة من حيث ذاته ، وروضة فرعيَّة من حيث روضة النبيِّ محمَّد ﷺ ، ألم يُدرِك هؤلاء معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ {٩٢} ﴾ الأنبياء ؟ فأمَّة النبيِّ محمَّد ﷺ أمَّة الاتِّباع والإجابة ، أمَّة الأولياء هي أمَّة واحدة في دائرة الرحمة التي مُحيطها العدل ، ومركزها السراج المُنير ﷺ والتي هي أمَّة واحدة في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة ، لا يهزُّ وَحدتها شيء حتَّى الموت ، متواصلة في الدنيا ومتواصلة في البرزخ ومتواصلة في الآخرة لا تنفكُّ صلة بعضها البعض ؛ لأنَّها الأمَّة الواحدة التي تُوحِّد الواحد ، فالحياة مُطلقة بالنسبة للصالحين بإمامهم ﷺ كلَّما تطوروا في حياتهم الدنيا ومنها إلى حياتهم البرزخيَّة ، وفيها ومنها إلى حياتهم الأخرويَّة وفيها بسرِّ قوله تعالى : ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى {٤} ﴾ الضحى ، وبِتَقلُّبِ نوره ﷺ في هؤلاء الصالحين الساجدين تتطور حياتهم مندرجة في حياته ﷺ ، ولَمَّا كان النور

سِعَة كانت قبورهم روضات من رياض الجنَّة ، أمَّا قبور المُعرضين الصادِّين عن الصالحين فهي حُفَر من حُفَر النَّار ؛ لأنَّهم في ظلمة وقد أُشير إلى ذلك ما ورد في الأثر : أنَّ القبر إمَّا روضة من رياض الجنَّة أو حُفرة من حُفر النار ، كما أننا نلاحظ أنَّ الله في كتابه أشار كثيراً إلى سِعَة الجنَّة والجنَّات ولم يذكر للنَّار سِعَة ، هيَّا يا ولدي إلى المعلومة السابعة .

معلومة { ٧ } :

يا ولدي العبد الفقير مع الدليل العقليِّ والبرهان النقليِّ ، فلست مُتشبثاً برأي مُعيَّن أو مُنتمياً إلى تيَّار مُعيَّن ، فهؤلاء الذين يهاجمون تمييز قبور الصالحين ببنيان فوقها يستدلُّون بحديث أبي الهيَّاج الذي رواه عن الإمام علي ﷺ حيث قال : قال لي الإمام : [ألاَ أبعثك على ما ابتعثني عليه رسول الله ﷺ أن لا تدع ـ أي تترك ـ تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً ـ أي مرتَفعاً ـ إلا سوَّيته] وتعليقي ممَّا فهمته من تعليق العلماء العاملين حول هذا الحديث عدَّة نقاط :-

١- في كتاب (تهذيب التهذيب) من تأليف المحقِّق المعروف والمحدِّث الموثوق به ابن حجر العسقلانيُّ في الجزء الحادي عشر ص ١٢٥ : (أنَّ رواة هذا الحديث عن أبي الهيَّاج غير موثوق بهم) .

٢- أبو الهيَّاج نفسه ليس من الرواة المعتمدين فلم يرو إلا هذا الحديث اليتيم ، ذكر ذلك الإمام السيوطيُّ في (شرح سنن

النسائي) ص ٢٨٦ فقال : (ليس لأبي الهيَّاج في الكتب إلا هذا الحديث الواحد) .

٣- إذا تأمّلنا ألفاظ الحديث نجد كلمة (سوَّيته) ومعناها في القواميس التعديل والتقويم ، ونلاحظ أنَّه لم يقل له : (سوِّيته بالأرض) ممَّا يثبت أن الإمام علي ﷺ كان يدرك بفقهه أنَّ رفع القبر ولو بقدر شبر من السُنَّة ، هذا لو فرضنا أنَّه حديث صحيح وأن القبور قبور مؤمنين وهذا لم يكن بدليل ما أذكره في النقطة الرابعة .

٤- على فرض أنَّ هذا الحديث صحيح رغم ضعف سنده ومتنه ، ألا تلاحظ يا ولدي قوله : (لا تدع تمثالاً إلا طمسته) ألا يدلُّ ذلك بشكل قاطع أنَّها كانت قبوراً للمشركين لا للمؤمنين فكانوا إذا مات العظيم منهم جعلوا له تمثالاً متصلاً بقبره ، وجعلوا قبره مُسنَّما وفي صلواتهم يجعلونه قبلة لهم ، فشيء طبيعي أن يبعث أمير المؤمنين من يهدم هذه القبور ويطمس هذه التماثيل في البلاد التي فتحها المسلمون ، وتطهر بذلك هذه البلاد من آثار الشرك .

٥- ونلاحظ يا ولدي أنَّه لم يأمره بهدم قبَّة أو إزالة بناء محيط بالقبر ، ولكن كان الأمر منصباً على القبر نفسه وعلى التمثال الذي يمثل صاحب هذا القبر والذي جعلوه قبلة لهم ، فما علاقة ذلك بقبور المؤمنين الصالحين ؟!

ولعلَّك يا ولدي بعد هذا التعليق أدركت أنَّ الاحتجاج بهذا الحديث سواء أكان صحيحاً أم غير صحيح احتجاج باطل لا أصل له ، ولا ينبغي أن يحتجَّ به هؤلاء حتَّى يُعطوا لأنفسهم الحجَّة لإزالة أضرحة وقباب من رفع الله ذكرهم من المؤمنين الصالحين وبذلك لفظت حجَّة هؤلاء الصادِّين عن الصالحين آخر أنفاسها .

معلومة { ٨ } :

يا ولدي مازلت أنقل لك الأدلَّة التي ذكرها العلماء العاملون والتي تُسقط حجج هؤلاء الذين يحرِّمون وجود أضرحة الأولياء والقباب من فوقها ، ويتمنَّون لو استطاعوا أن يُسوُّوها بالأرض كما أمر رسول الله ﷺ بشأن قبور الكافرين ذات الأسنمة والتماثيل ، وبذلك يسوِّي هؤلاء بين المسلمين والمجرمين وكأنَّهم لم يقرءوا قول الله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ {٣٥} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ {٣٦} ﴾ القلم ، يقول الإمام النووي شارح صحيح الإمام مسلم : (البناء على القبور إذا كان في أرض مسبلة ــ أي موقوفة ــ فحرام نص على ذلك الشافعيُّ والأصحاب ، وإذا كان البناء على القبر سبباً لحفظ أصالة الدين وإظهار المودَّة لصاحب القبر الذي فرض الله محبَّته ، ويؤدي إلى تجمُّع الزوَّار تحت البناء لتلاوة القرآن وللدعاء والاعتبار فالبناء مرغوب فيه) تأمَّل يا ولدي هذا الكلام الطيِّب الحق يجري على ألسنة أهل السبق في العلم والأدب والتقوى ، ومنهم الإمام النووي ويُسطِّرونه في كتبهم ، والذي يؤكِّدون به أنَّ إظهار مقابر الأولياء هو إظهار لأصالة

الدين ، ويكون بالتالي هدمها كما فعل هؤلاء القَبليون في بعض البقاع هدماً للدين ، أو إزالة ــ بقصد أو بدون قصد ــ لإشارات الدين ، كذلك أقرَّ أسلافنا من العلماء العاملين وأفْتوا بحقٍّ وعلم أنَّ التجمُّع لزيارة الصالحين بدافع الحبِّ وإظهار المودَّة للصالحين في برازخهم وبخاصَّة أنَّ زيارة قبور المسلمين سنَّة ، فما بالك بالصالحين منهم خاصَّة ، والجلوس بجوار المقصورة المحيطة بقبر الرجل الصالح حيث توجد روضته التي تُذكِّر بالروضة الأصل أو الروضة الأمِّ ، الروضة الشريفة التي هي نضح لروضة قبره ﷺ ، أقول : أنَّهم أفتوا بالتجمُّع لزيارة قبر الرجل الصالح والجلوس لقراءة القرآن والدعاء والذكر ، وأنَّ هذا أمر مشروع بل مطلوب ، هذا ما أفتى به علماؤنا العاملون القريبون من عهد النبوَّة ، أفتوا بذلك عن علم ومعرفة وصِدق رغم أنف المُعرضين ، وكلُّ مُعرض عن زيارة قبور الصالحين صادٌّ عن زيارتهم يقول الصالحون له وهم في بيوتهم أو في برازخهم بلسان أحوالهم وحسب حال الإعراض والصدِّ المتلبس به يقولون :

أيُّها المُعرض عنَّا ... إنَّ إعراضك منَّا

ولو شئنا جعلنا ... كلَّ ما فيك يُردنا

إنَّ الإعراض عن الصالحين إنَّما هو مددٌ ظلمانيٌّ متدفِّق ممَّن أبَى واستكبر وكان من الكافرين ، والذي كان قلبه متعفِّناً بالحسد ، وصدره طافحاً بالغلِّ ، فقصَّة سيِّدنا آدم عليه وعلى خاتم النبيِّين أفضل الصلاة والسلام ، والتي أشار إليها القرآن الكريم في أكثر

من موضع ، وقصَّة السجود لآدم عليه وعلى خاتم النبيِّين أفضل الصلاة والسلام هي جوهر ما يحدث وما سيحدث من إعراض أو إقبال ، وإذا كان بعض العلماء حرَّموا البناء على القبر لم يحرِّموه لذاته ، ولكن كان تحريمه بسبب بنائه في أرض موقوفة لم يأذن مَنْ وقفها بالبناء ، أمَّا إذا أذن صاحب الوقف أو كان في أرض غير موقوفة فهذا مشروع بل مطلوب كما ورد عن الإمام الشافعيِّ وغيره ، فلماذا نخلط الأمور ؟ بل إنَّ البناء في الأرض الموقوفة قال كثير من العلماء : أنَّه مكروه فقط وليس محرَّماً ، ولو كان بناء المسجد أو البنيان على القبر يجلب اللعنة كما ذكر المؤلِّف في كتاب (تحذير الساجد من اتِّخاذ القبور مساجد) لَمَا اجتهد حول هذا الموضوع العلماء ، ولكان البنيان محرَّماً تحريماً قاطعاً ، ولكن المسألة مسألة اختلاف علمي واجتهاد لا مسألة اختلاف في العقيدة وإذا حرَّمه أحد العلماء لم يحرِّمه لذاته ولكن حرَّمه ؛ لأنَّه بناء في أرض موقوفة لا يُسمح بالبناء فيها ، أمَّا الجمهور – أي جمهور العلماء – فلم يُحرِّموه بل أفتوا بمشروعيته بل هو مطلوب مرغوب فيه ، فالمسألة مسألة اختلاف واجتهاد ، لا مسألة اختلاف في العقيدة : هؤلاء موحِّدون ، وهؤلاء مُشرِكون ، ولماذا لم يُخطِّئ الشافعي علماء عصره حين قال : (من صلى إلى قبر أجزأه) وتمضي مئات السنين ويأتي في عصرنا من يتَّهم الإمام الشافعيَّ ﷺ بأنَّه أساء حين أجاز ذلك ، هذا ما ورد في كتاب (تحذير الساجد من اتِّخاذ القبور مساجد) ولماذا الإمام الشافعيُّ نفسه له

قبر بداخل مسجده ومن فوق ضريحه قُبَّة ؟ وما حكـم صـلاة آلاف العلماء وملايين المؤمنين الذين أدوا الصلاة فـي هـذا المسـجد ولا زالوا يؤدون الصلاة فيـه ؟ وهـل يقومـون بتأديـة الصـلاة ويخرجون بدون زيارته ؟ وهل هؤلاء العلماء الذين يتردَّدون علـى مسجد الإمام الشافعيِّ وغيره من المساجد التي خصَّها الله بروضـة ثالثة مع روضتي الذِكْر والعِلْم وهي روضة الرجل الصالح ، أقول : هل ليس لديهم نسبة من العلم حتَّى يأتي هؤلاء في عصـر اللقمـة الحرام حتَّـى يتَّهمـوهم بالشِـرك أو بالخطـأ ؟ إنَّ آلاف العلمـاء والمحبِّين على مرِّ العصور تردَّدوا على هذه المسـاجد منـذ مئـات السنين وعلى رأسها المسجد الحرام الزاخر بقبور عشرات الأنبياء ، والمسجد النبويِّ والمسجد الأقصى حيث توجد أضرحة وقبور كثيـر مـن الأنبياء ، وكانوا ولا يزالون يتشرَّفون بزيارة هذه الأضـرحة وعلى رأسها قبر خاتم النبيِّين ﷺ ، أكانوا بتصرُّفهم هذا مشركين ؟! إن قال هؤلاء : نعم ، كانوا مشركين فقد كفروا بقولهم هـذا ، وإن قالوا : ليسوا مشركين ، إذاً هم موحِّدون ، فَعلامَ هـذا الضـجيج ؟ وعَلامَ إثارة هذه الفتن ؟ يا ولدي إنَّ هؤلاء ما زالوا مصرِّين علـى إثارة الفتن وتفريق الأمَّة ويسوقون أدلَّة مشلولة لا حِراك فيها ، مع ملاحظة أنَّني لا أُناقش أبداً النظام القائم في السعودية الذي أتمنَّى أن يظلَّ قويّاً للمحافظة على الأمن في هذه المنطقـة ، وإنَّمـا أنـاقش أفكـاراً ، وهيَّا بنا إلى المعلومة التاسعة .

معلومة { ٩ } :

يا ولدي يذكر هؤلاء في كتبهم أنَّ الإمام مالكاً ﷺ ذكر حديثاً لرسول الله ﷺ وهو : [قاتل الله اليهود والنصارى اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد] من حديث أبي هريرة ﷺ في صحيح البخاري وصحيح مسلم ، وفي حديث عائشة وابن عباس ﷺ وعنها : [لعنة الله على اليهود والنصارى اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد] في صحيح البخاريّ ومسلم أيضاً ، وقد ذكرت في البداية أنَّ هذا المؤلِّف وأمثاله اختلط عليهم الأمر ، فلم يميِّزوا بين اتِّخاذ القبر مسجداً وذلك بالسجود لصاحب القبر وهذا ما فعله اليهود والنصارى ، ممَّا جلب عليهم اللعنة ، وبين ما يفعله المسلمون من سجود لله وحده بعد أن بدأوا صلاتهم بتكبيرة الإحرام : (الله أكبر) التي يحرم بعدها الاشتغال بغير الله ، ويؤكِّدون بقولهم لها مع رفع اليدين ءالكفَّين وهما اللذان يعملون بهما في دنياهم أنَّهم فرغوا تماماً من دنياهم وانقطعوا لعبادة الله وحده ، ويؤكِّدون بذلك عبوديتهم لله وحده في المساجد وفي أي بُقعة من بقاع الأرض ، وبخاصَّة في المساجد ذات الأضرحة ، فكون المسلم يكبِّر تكبيرة الإحرام وتوابعها من تكبيرات خلال صلاته ، ويُصلِّي لله وحده ويسجد له وبجواره ضريح رجل صالح ، فإنَّما هذا يؤكِّد توحيده لله ويؤكِّد عبوديَّته لله لا لصاحب الضريح ، بل يؤكِّد عبوديَّة صاحب الضريح المقهور بالموت لله وحده فيخالف بذلك علناً عقيدةً وفعلاً ما فعله اليهود والنصارى ، ولن يكون بهذا التصرُّف الطاهر مثلهم أبداً ، بل إنَّ المسلمين

يؤكِّدون بذلك مخالفتهم ، فغير المسلمين يسجدون لصاحب القبر في معابدهم ، بينما المسلم يسجد لله وحده والضريح بجواره سواء أكان أمامه أم من خلفه أم في أي مكان من حوله ؛ لأنَّ القبر في بــاطن الأرض وما على سطح الأرض إلا مكــان مرتــفــع حتَّى لا تطــؤه الأقدام ، بل إنَّ من حوله مقصورة وهي ساتر شرعي وهذا ما فهمه العلماء من الحديث المذكور ، والإمام مالك نفســه وهــو إمــام دار الهجرة كان يجلس بمسجد النبيِّ ﷺ وبجوار قبره ﷺ الذي هو فــي المسجد النبويُّ وليس خارج المسجد ، ويشير إلى القبر من وقــت لآخر ويقول : عن صاحب هذا القبر أنَّه قال وينطق بالحديث ، ولــو كان فهمه للحديث كفهم السيِّد المؤلِّف وأمثاله لَمَا أقر بجلوسه هــذا وجود قبر النبيِّ ﷺ وقبري صاحبيه ــ رضي الله عنهمــا ــ وهما : الصدِّيق والفاروق في المسجد ، إنَّ وجود قبر رجــل صــالح فــي المسجد يضيف روضة إلى روضاته وهذا ما ستعرفه في المعلومــة العاشرة .

معلومة {١٠} :

يا ولدي كلُّ مواقع الخير روضات من رياض الجنَّة : مجالس العلم ، مجالس الذكر ، قبور الصالحين ، مجالس الطعام لوجه الله ، مجالس الصُلح الحق العادل ، كلُّها مجالس خيــر . والمســجد تتعــدَّد فيــه الروضات : فمجلس الذكر روضة لقول الله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُــهُ ... {٣٦} ﴾ النور ، ولقول النبــيِّ ﷺ : [إذا مررتم برياض الجنَّة فارتعوا ، قــالــوا : ومــا ريــاض

الجنَّة يا رسول الله ؟ قال : حلق الذكر] رواه سيِّدنا أنس ﷺ ، ومجلس العلم : روضة من رياض الجنَّة ، والقرآن مليء بالآيات التي تُشير إلى العلم وتبشِّر أهله ، بل إنَّ الحديث السابق ورد في رواية أخرى : [إنَّ رياض الجنَّة هي مجالس العلم ، وإنَّ الذكر والعلم يزحزحان العبد عن النار ويزجَّان به في الجنَّة] ، وقبر الرجل الصالح : روضة من رياض الجنَّة ، كما ورد في الأثر : أنَّ القبر إمَّا روضة من رياض الجنَّة أو حُفرة من حُفر النار ، وقوله أيضاً : [ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنَّة] رواه ابن بطَّال في شرح البخاري ، وذكر ذلك في كتاب (حقيقة التوسُّل والوسيلة) ورواه مسلم عن عبد الله بن زيد ، ورواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ وعنهم أجمعين ، أليس هذا الحديث وغيره يعني أنَّ القبر أو البيت الذي سيكون قبره ﷺ ومعه مَن معه من الأولياء هو جزء من المسجد حيث يوجد منبره ﷺ ؟ أليست هذه نبوءة أوصى الله بها لنبيِّه ﷺ فنطق بهذا الحديث ؟ إذاً السراج المنير في قبره ، ونوره ممتد ما بين قبره ومنبره ، والأولياء من بعده وتبعاً له نجوم ومصابيح هذا النور بذواتهم في الدنيا ؛ لأنَّ مواقعهم مجالس الذكر ومجالس العلم ومجالس الطعام ومجالس الخير عموماً ، وبذواتهم في برازخهم بعد رفع الغطاء بعد مماتهم ، فلكلِّ رجل صالح روضة هي قبره وما حوله ، وراثة عن رسول الله ﷺ ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ مصباح أو سراج نورُه القرآن ، أو أنَّ القرآن نور سراجُه الذات الشريفة ﷺ الذي وصفه بقوله : ﴿ ... وَسِرَاجاً مُنِيراً {٤٦} ﴾

الأحزاب ؛ أمَّا ورثته في كلِّ عصر إلى يوم القيامة فقد أشار الله إليهم بقوله : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ... {٤٩} ﴾ العنكبوت ، أليسوا سُرجاً مُنيرة وراثة عن السراج المُنير بما في صدورهم من القرآن ؟ ألم يقل الله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ... {٣٢} ﴾ فاطر ؟ إذاً القرآن نور في قلب النبيِّ ﷺ وهو أتقى القلوب على الإطلاق ، وذاته الشريفة مرآة هذا النور ، وقبره الشريف موقع هذا النور وعنوانه ، فالنبيُّ ﷺ سراج منير في حياته الدنيويَّة وفي برزخه وفي آخرته ، وما هو لاحق خير له ممَّا هو سابق ، يستضيء بنوره أصحابه في عصره ، كذلك الأولياء على مختلف درجاتهم في كلِّ العصور إلى يوم القيامة ؛ ألم تقرأ يا ولدي في أوَّل سورة الجمعة : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {٢} ﴾ الجمعة ، هؤلاء هم صحابته في عصره ﷺ ، ثمَّ يقول الله مُشيراً إلى صحابته ﷺ فيما بعد من العصور إلى يوم القيامة : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {٣} ﴾ الجمعة ، وتأمَّل يا ولدي كلمة : ﴿ ... مِنْهُمْ ... ﴾ أي من الصحابة ، كما أنَّ أصحابه كالنجوم ـ كما قال ﷺ ـ بأيِّهم اقتديتم اهتديتم ؛ لأنَّ في صدورهم في حياتهم وبعد مماتهم نور القرآن وهم على نفس الطريق ، وبذلك تكون ذواتهم وصدورهم وأضرحتهم هي مواقع نجوم وأكوان مضيئة بنور الله المُشرق من قلب النبيِّ ﷺ وفي كلِّ نَفَس ، فشمس القرآن في قلبه

مشرقة ، وصدور الرجال أكوان هذا النور المنتشر فيها كانتشار نور الشمس في هذا الكون ، ولذلك فإنَّ أهل السماء يرون قبر النبيِّ ﷺ كما نرى نحن الشمس في رائعة النهار ، ويرون قبــور الصَّــالحين المنتشرة من حوله وكذلك مجالسهم قبل موتهم كمــا نــرى نحــن النجوم في السماء ، وهل في الأرض الكثيفة مجال لهبوط نور غير هذا النور الذي مركزه قبر النبيِّ ﷺ ؟! وهل ينتفــع باتِّبــاع وحــبٍّ وزيارة هذا النور إلا المبصرون ؟ أفلا تعقلون ؟ وأختم إجابتي على السؤال الثاني والأربعين بالمعلومة الإحدى عشرة ردّاً على هــؤلاء الذيــن ما زالوا يحتجُّون بأقوال الأئمَّة الأربعة دون فهم لــها مــن أجل تأييــد آرائهم الخرقــاء ، فهيَّا بنا يا ولدي إلى هذه المعلومــة الهامَّة .

معلومة { ١١ } :

يذكرون أيضاً أنَّ الإمام محمَّداً تلميذ الإمام أبي حنيفة ــ رضــي الله عنهما ــ ذكر في كتابه (الآثار) ما يأتي : (لا نري أن يُزاد علــى ما خرج من القبر ونكره أن يُجصص أو يُجعل عنــد مســجد) وإذا كان مؤلِّف كتاب (تحذير الساجد من اتِّخاذ القبور مساجد) يعتــرف بذلك فردِّي على ذلك هو :-

أوَّلاً :

لماذا لم يأت برأي يُنسب للإمام أبي حنيفة نفسه مباشــرة ونســب الرأي لتلميذه وبخاصَّة في مسألة حسَّاسة لا ينبغي لإمــــام مثــــل

أبي حنيفة أن يغفل عنها ؟ ثمَّ لماذا لم يُشر التلميذ إلى رأي أستاذه أبي حنيفة إذا كان هذا هو رأيه أيضاً ؟

ثانياً :

لاحظت أنَّ ما نقله المؤلِّف عن الإمام محمَّد تلميذ الإمام أبي حنيفة - رضي الله عنهما - كان دقيقاً ، فيقول مثلاً : (لا نرى) أو (نكره) وهذا يدلُّ على أنَّ الإمام كان دقيقاً في حكمه فلم يصدر أحكاماً عشوائيَّة ، فالتعبير بمثل لا نرى أو نكره يدلُّ على أنَّ المسألة ليست مسألة تتعلَّق بعقيدة أو بلعنة من حيث المسلمين ، وإنَّما تتعلَّق بعقيدة وبلعنة من حيث غير المؤمنين الذين يسجدون لغير الله واتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وما ذكره تلميذ أبي حنيفة - رضي الله عنهما - ما هو إلا رأي أبداه ، ولم يلعن المسلمين الموحِّدين المحبِّين لله ورسوله والصَّالحين أحياءً ومنقولين ولو خالفوه في الرأي ، ممَّا يدل على أنَّ هذه المسألة فيها نظر وفيها خلاف علميٌّ خفيف أو بسيط لا يؤدي أبداً إلى اتِّهام المؤمنين بالشِّرك والضلال وإعلان الحرب عليهم ، وحمل المعاول لهدم مواقع النجوم في الأرض ، متجاهلين أنَّ موقع النجم الأعظم الذي جعله الله في الأرض هو قبر خاتم النبيِّين ﷺ وجهلوا أنَّ قبور الصَّالحين ما أظهرها الله إلا بظهور قبر إمامهم ﷺ ، ولكن هؤلاء مع الأسف والأسى فرَّقوا دينهم الذي توهَّموه دين الإسلام ، وتمزَّقت الأمَّة إلى شِيَع وفِرَق ليس النبيُّ ﷺ منهم في شيء ، وتعاونوا مع فِرَق أخرى سبقتهم بتنطُّعها في عقيدتها وآرائها على الإثم والعدوان وكفَّر

بعضهم بعضاً ، ووقع الجميع فيما حذَّر منه النبيُّ ﷺ من تقتيل وتكفير ، تأمَّل يا ولدي قول الإمام الذي يحتجُّون به فهو يقول : (لا نري) يعني أنَّ غيره قد يرى غير ذلك ، يعني أنَّها مسألة مطروحة للنقاش بالتي هي أحسن ، ويرى كلُّ مسلمٍ عالمٍ خبير رأيه فيها بدليل وببرهان وبسلام ، وهذه عظمة الإسلام أن يجعل من ابنائه قوماً في اختلافهم رحمة لا نقمة ؛ لأنَّهم بحُسْن نيَّاتهم يختلفون عقلاً أو بمعنى أدقٍّ يتفاوتون في الرأي والنظر ، كلٌّ على قدره ، وما العلم الكامل إلا جزئيات مُنتشرة بين العلماء العاملين يجمعها تعاونهم على البرِّ والتقوى ، وهُم متفاوتون علماً لا جهلاً ، فكلُّهم يُكمل بعضهم بعضاً ، وكُلٌّ فريق يقول في نفسه : (رأيي صائب يحتمل الخطأ ، ورأي مَنْ يخالفني خطأ يحتمل الصواب) بل كلٌّ عالم منهم يقول في ضميره : (لا أكمل إلا بمن خالفني ، فليس عندي العلم كلّه) وهذه هي الرحمة التي تجمعهم والعلم النافع الذي يزداد بلقائهم ، بقصد المعرفة والتبليغ لا بقصد الغلبة بأسلوب متنطِّع ، أمَّا غير ذلك فهو الضلال المُبين ؛ لأنَّ الذين سبَّبوا للأمَّة تفرُّقها وتمزُّقها لم يكن اختلافهم عقلاً ولا علماً وإنَّما كان نفساً ، والاختلاف النفسي نتيجة للتفاوت في الجهل ، ولذلك يقذفون بكلمة الكفر أو الشرك كُلَّ مَنْ خالفهم ، أمَّا أهل العلم النَّافع الذي يزداد بتعدُّد الآراء والأدلَّة والبراهين ، فقلوبهم سليمة طاهرة من اتِّهام الغير وصدورهم نقيَّة من الغِلِّ ، ولكنَّهم فقط يُفنِّدون آراءهم وآراء غيرهم بالدليل الحقِّ لا المُصطنع لإيضاح الحقيقة مُجرَّدة من

الهوى ، حتّى ولو اتّهموا أحداً لا يتّهمونه جُذافاً ولكن بميزان الحقّ والخير ويتمنّون له الهُدى والمعرفة ، بل يبحثون لعلّهم يجدون ما هو حقٌّ عنده ليتعلّموا منه ؛ لأنّ علم الله منشور في ذواتهم التي تعمل ، وفي عقولهم التي تفقه ، وفي قلوبهم التي تعقل ، وهم بجزئيات العلم في ذواتهم مجموعون به كما يجمع الخيط حبّات المسبحة ، إنّني أرجو ثمّ أرجو من كلّ عالم أو باحث أو داعٍ إلى الله ، ومن كلّ مؤلِّف أن يتدبَّر ألفاظ العلماء والأئمّة حتّى لا يحتجّ بآرائهم بالباطل ويتّخذ من آرائهم كلمة حقٍّ يُرَاد بها باطل ؛ لأنّه يستحيل على إمام مُعتمد أن يُعبِّر بكلمة (أرى) أو كلمة (أكره) بشأن أمور حرّمها الله بنصٍّ وحرّمتها السُنّة بنصٍ ، والمؤلِّفون أيضاً ومنهم مؤلِّف كتاب (تحذير الساجد من اتّخاذ القبور مساجد) يذكرون لنا في كتبهم : أنّ الإمام أحمد بن حنبل ﷺ حرّم بناء المسجد على القبر واتّخاذ القبر مسجداً ، أو شبّه هذا المسجد بمسجد الضرار الذي هدمه وحرقه النبيُّ ﷺ ، وسوّى بعض هؤلاء بين المسجد الضرار المُشار إليه والمسجد الذي به ضريح رجلٌ صالح ، بل إنّ المؤلِّف نسب مثل هذا القول إلى الإمام أحمد بن حنبل ﷺ ، *وردّي على ذلك هو* : إذا كانت هذه المساجد ذات الأضرحة يجب هدمها وحرقها ويحرم الصلاة فيها كما يزعمون ، فهل يسري هذا الحُكم الزائغ أيضاً على مسجد النبيِّ ﷺ باعتباره مأوى لا لقبر النبيِّ ﷺ فقط ، بل لقبري وليّين وليسا نبيّين هما : الصدّيق والفاروق – رضي الله عنهما – ؟ وهل صلاة أجيال بعد

أجيال بالآلاف بل بالملايين من المسلمين ومن العلماء في هذه المساجد ذات الأضرحة المُنتشرة بكثرة في أنحاء بقاع الأرض باطلة ؟ وما معنى هدم جميع أضرحة وقباب الصَّالحين والأشراف في الأرض التي تمكنوا من الهيمنة عليها مثل قبَّة قبر سيِّدنا حمزة ﷺ ، وهو الذي سمَّاه الله على لسان نبيِّه ﷺ أسد الله ، والإبقاء على القبَّة الخضراء وما تحتها من قبور هي القبور القمَّة ، التي تُشير إلى النبوَّة الخاتمة ، والولاية بجناحيها الصدق والعدل ؟ إذا كان ما فعلوا من هدم حقّ ، فلماذا لم يَسرِ حُكمهم على الجميع ؟ أيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ؟ الله أعلم ! وأواصل تساؤلي وأقول : وهل صلاة الإمام المُفسِّر فضيلة الشيخ / محمَّد متولي الشعراوي في مسجد السيِّدة زينب ــ رضي الله عنها ــ وفي مسجد الإمام الحُسين ﷺ ، وفي مسجد السيِّدة نفيسة ــ رضي الله عنها ــ وغيرها باطلة ؟ وهكذا صلاة غيره ممَّن عاصرناهم من العلماء العاملين أمثال : فضيلة الشيخ الدكتور / عبد الحليم محمود – شيخ الأزهر السابق ، وفضيلة الشيخ / محمَّد زكي إبراهيم – عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلاميَّة السابق ورائد العشيرة المحمَّديَّة ، وفضيلة الشيخ / صالح الجعفري – الإمام السابق للأزهر الشريف ، وغيرهم من ملايين المسلمين والعلماء العاملين على مرِّ العصور ، فهل صلاة هؤلاء جميعاً باطلة ؛ لأنَّهم كانوا يصلُّون في مساجد ضرار ؛ لأنَّ بها أضرحة للصالحين ؟ وهل هذه الملايين من المؤمنين المحبِّين للصَّالحين مُشركون ؛ لأنَّهم سعوا لزيارة

الصَّالحين في قبورهم ؟ أليست صلاتهم ــ وفيهم العلماء والأولياء ومَن يقتدون بهم ــ في مثل هذه المساجد المُباركة والتي تميَّزت بروضة زائدة هي ضريح الرجل الصَّالح ، فشرفت بالتشبُّه بمسجد النبيِّ ﷺ المسجد الإمام ، كما أنَّ المسجد الحرام هو المسجد القبلة ، أقول : أليست صلاتهم فيها دليلاً قاطعاً أنَّ ما يقوله هؤلاء ليس صحيحاً ؟ وهل من المعقول أو من المعلوم أنَّ الإمام أحمد بن حنبل والإمام ابن القيِّم وغيرهما من العلماء ﷺ يقصدون ما يقصد المؤلِّف أو المؤلِّفون لمثل هذه الكُتب التي تُهاجم الصَّالحين وتعتبر أضرحتهم كاللات والعُزَّى وزوَّارها كالمشركين ؟ هل من المنطق أن يتَّهموا الملايين ــ ملايين هذه الأمَّة ــ ومن بين هذه الملايين كبار العلماء والأولياء وهذه الأمَّة التي أشار النبيُّ ﷺ أنَّها لا تجتمع على ضلالة ؟ إنَّ الإمام أحمد والإمام ابن القيِّم وغيرهما إنَّما يُحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله ، ويحرِّمون اتِّخاذ القبور مساجداً لمن يسجدونَ لغير الله ، وهذا هو الذي حدث في الأمم السابقة المنسوخة بقضاء الله وقدره ، أمَّا أمَّة الإسلام أمَّة القرآن المحفوظ بحفظ الله له ، أمَّة خاتم النبيِّين الناجية المعصوم بعصمة الله له ، فلن يضلَّ فيها أحدٌ أبداً ، كذلك مصابيح ونجوم هذا النور إلى يوم القيامة من الأولياء الصَّالحين ، وصدق الله : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ {٦٢} الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ {٦٣} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {٦٤} ﴾ يونس ، ولمَّا كان في علم الله ما سيُروِّجه مثل هؤلاء

المُعارضين بشأن زيارة الصَّالحين والتأدُّب معهم قال بعـد ذلـــك :
﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِـيمُ {٦٥} ﴾
يونس ، فلا خوف على الأولياء ولا خوف على أحبابهم وزوارهم ،
إنَّ الجميع قوم لا يشقى بهم جليسـهم وزائـرهم ، وكيـف يكـون
جليسهم ولا يكون زائرهم ؟! وزيارة أهل البرزخ الصالحين نابعـة
من زيارة النبيِّ محمَّد ﷺ في برزخه أو قبره ، والقبر مجرَّد عنوان
أو إشارة يُعبِّر الزائر بزيارته له عن حبِّه لصاحب هذا القبر ، ومـا
قبور الصَّالحين في أنحاء الأرض إلا روضات فرعيَّة تابعة للروضة
الأم قبر النبيِّ محمَّد ﷺ ، وما الروضة الشريفة التـي بيـن بيتـه
ـ حيث قبره ـ ومنبره إلا نضح وإشارة لروضـة قبـره ، فكـأنَّ
الشمس في قبره وأشعَّتها إلى منبره ، وكذلك الأمر بشأن روضـاته
الفرعيَّة وهي قبور الصالحين ، فهم أقمار في برازخهم وأنوارها من
حولهم يستمدُّون نورهم من السراج المنير ﷺ كمـا يسـتمدُّ قمـر
السماء نوره من الشمس في الدنيا ليضيء في ليالي الناس ، فهـل
ينتفع بالنور إلا المُبصرون ؟! ومن لم يعتقـد هـذا فليسـأل بربِّـه
خبيراً ، وهل من المعقول أو من العلم الصحيح أن يقصـد الأئمَّـة
الأربعة وغيرهم من العلماء العاملين ما فهمـه هـؤلاء المؤلِّفـون
وبخاصَّة مؤلِّف كتاب (تحذير الساجد من اتِّخاذ القبور مسـاجد) ؟
إنِّي أُنزه الأئمَّة الأربعة وغيرهم من العلماء العاملين أن يُقـرُّوا مـا
يقصده هؤلاء ؛ لأنَّ الأئمَّة الصادقين يلعنون ما يلعنه الله ورسوله ،
فيلعنون مَنْ يسجدون لغيـر الله لا مَـنْ يـزورون ويتبرَّكـون

بأحبـاب الله ، لقد مضت مئات السـنين منـذ زمـن النبـيِّ ﷺ وصاحبيه ، حيث دُفنوا حيث يوجد المسجد في عصر مـن أفضـل عصور الإسلام وهو عصر الصحابة ، وأصـبحت قبـورهم داخـل المسجد في عصر التَّابعين وهو يلي عصر الصحابة في الأفضـليَّة ، ومضت بعد ذلك مئات السنين ، فأين كان هؤلاء المُعارضون ؟ ومع ذلك في ظنِّي في هؤلاء المُعترضين ـ إن حَسُـنت النيَّـة ـ أنَّهـم مُجتهدون مخطئون ، بصرف النظر عمَّن شذَّ منهم فاتَّهموا روضات الصَّالحين وأضرحتهم بأنَّها أوثان تُعبـد مـن دون الله ، واتَّهمـوا الموحِّدين المحبِّين للصالحين بأنَّهم مُشركون ، واستعملوا آيات من القرآن نزلت بشأن المُشركين وخاصَّة بهم ، فوَصَـفوا بهـا أهـل التوحيد والحُبِّ من المؤمنين ، وصالوا في هـذا الميـدان المُظلـم وجالوا ، وهذا ما تنبأ به النبيُّ محمَّد ﷺ وحذَّر منه ، والله المُستعان على ما يصفون .

السؤال الثالث والأربعون :

في كتاب (تحذير الساجد من اتِّخاذ القبور مساجد) يقول المؤلِّف : (إنَّ الصلاة فِي المسجد المبني على قبر ولو دون استقباله مكروه ، والكراهية تشتدُّ إذا كانت الصلاة إلى القبر) ويقول المؤلف : (المصلي في ذلك ارتكب مُخالفتين : الأولى / الصلاة في هذه المساجد ، والأخرى / الصلاة إلى القبر ، وهذا منهيٌّ عنه مُطلقاً) فما ردُّك على ذلك ؟

الإجابة :

معلومة {1} :

وردِّي على ذلك هو : إذا كان هذا منهيّاً عنه مُطلقاً ، فكيف يكون مجرَّد مكروه ؟! إنَّه بذلك يكون محرَّماً ؛ لأنَّ كلمة مكروه تُفيد أنَّ الصلاة صحيحة ، أليس كذلك يا مؤلِّف كتاب (تحذير الساجد من اتِّخاذ القبور مساجد) ؟! هذا لو أخذنا بقول السيِّد المؤلِّف ـ غفر الله له ـ ؛ لأنَّه اجتهد فأخطأ وهذا ظنِّي فيه ، أمَّا أكثر العلماء فلا يأخذون بهذا القول ، فلا هي مكروهة ولا هي محرَّمة ، بدليل أنَّهم يُصلُّون في المساجد التي بها أضرحة مثل : مسجد الإمام الحُسين ﷺ ، ومسجد السيِّدة زينب ـ رضي الله عنها ـ ومسجد الإمام الشافعي ﷺ ، ومسجد السيِّدة نفيسة ـ رضي الله عنها ـ ومسجد سيِّدي أبي الحسن الشاذلي ﷺ ، ومسجد سيِّدي أحمد البدوي ﷺ ، ومسجد سيِّدي إبراهيم الدسوقي ﷺ ، وإنِّي أتعمَّد ذكر هؤلاء الأولياء الثلاثة الذين يهاجمونهم وغيرهم من أولياء الله ، رغم أنَّهم

كانوا علماء حافظين لكتاب الله عاملين به ، عملوا بما علموا ، فورَّثهم الله علم ما لم يعلموا ، يُهاجمونهم بدون علم وبدون حكمة ، مخالفين ما نصحنا به النبيُّ محمَّد ﷺ في أن نذكر محاسن موتانا ، وليس لهؤلاء الأولياء العلماء الأئمَّة في التربية من جريمة إلا أنَّ الله حبَّب القلوب فيهم ، قلوب الموحِّدين المحبِّين للصالحين ، فتفد إليهم الوفود من شعب مصر المتسامح المُسالم القوي الإيمان وغيره من شعوب الأرض المسلمة لزيارتهم ، فهذه هي علَّة هجوم هؤلاء الصَّادين عن الصَّالحين عليهم ، ولكن الله يقول بعد أن ذكر وبَشَّر الأولياء في كتابه وعلى لسان نبيِّه ﷺ ومن خلال تبشيره له ؛ لأنَّهم ذريَّته المُبشَّرون من خلاله ، يقول في الآية الخامسة والستين من سورة يونس : ﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وتدبَّر يا ولدي ختام الآية : ﴿ ... هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ممَّا يؤكِّد أنَّ الله ليس بغافل عمَّا يقول الظالمون ، فهو السميع لما يقولون من أراجيف والعليم بالمظلومين أهل العلم والمعرفة والتربية والفضل ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ولا أزال أقول لك يا ولدي ولكلِّ مسلم : لو كان كلام هؤلاء الصادِّين عن زيارة الصالحين والمُحذِّرين من الصلاة في المساجد العظيمة ذوات الأضرحة الممتدَّة من المسجد الإمام مسجد النبيِّ ﷺ ، أقول : لو كان كلامهم صحيحاً لَما تردَّدت شعوب الأمَّة الإسلاميَّة التي لا تجتمع على ضلالة ، مقتدية بآلاف بل بملايين العلماء العاملين على هذه المساجد مصلِّية لله ساجدة لله وحده ، زائرة لأحبابه

وأصفيائه في عصر النبيِّ ﷺ عصر الصحابة ، وعصر التابعين وعصر تابع التابعين ، وما بعد ذلك من مئات السنين وعشرات الأجيال حتَّى لحظة كتابة هذه السطور ، أيُنكر هؤلاء أنَّ الشيخ الدكتور : عبد الحليم محمود – شيخ الأزهر السابق ، وفضيلة الشيخ : محمَّد متولي الشعراوي ، وفضيلة الشيخ : صالح الجعفري ، وفضيلة الشيخ : محمَّد زكي إبراهيم – وغيرهم ممَّن سبقهم من العلماء العاملين ومن كان معهم في عصرهم ومن جاء بعدهم ومَن سوف يجيء إلى يوم القيامة ، أقول : أهؤلاء جميعاً ليسوا علماء وهؤلاء الذين يصدُّون الأحباب عن الأحباب هم العلماء وكلمتهم هي النافذة ولو بسفك الدماء كما حدث وفعلوا في الماضي ؟! ولو كانت الصلاة في مسجد فيه قبر مكروهة أو ممنوعة ، فكيف يفعل علماؤنا العاملون المكروه أو يسكتون عنه ؟ فما بالك والسيِّد المؤلِّف يقول : (إنَّ هذا منهي عنه ، أي مُحرَّم) ؟! ولا أدري كيف يجمع بين حُكمين ؟ لا ندري أيهما يقصد في مسألة واحدة مع أنَّ مَن ذكرهم من علماء عاملين يقرُّ الجميع بعلمهم ، لا يُقرُّون هذا الحُكم ولا ذاك الحكم ، ألم يعلم هؤلاء المؤلِّفون أنَّ النبيَّ محمَّداً ﷺ كان يُصلِّي في بيته والسيِّدة عائشة بين يديه أمامه وكانت أحياناً تمدُّ رجلها أمامه فيزحزحها بيده ليخلو مكان لسجوده وكان يلمس رجلها بيده ؟ وقد أخذ أغلب الأئمَّة حُكماً من هذه الملامسة أنَّ الوضوء لا تنقضه ملامسة المرأة ، فهل كانت صلاته ﷺ في هذه الحالة وإنسان نائم بين يديه منهيَّاً عنها ؟! ومن

الذي نهى عنها إذا كان النبيُّ ﷺ هو نفسه الذي يصـلِّيها ؟! ألـيس ذلك إشارة إلى أنَّ الصلاة إلى القبر لا شيء فيها ؟ وإذا كان هناك نهي عن الصلاة في المقبرة فللتحرز من النجاسة فقط ، وإذا كـان النبيُّ ﷺ يُصلي وإنسان نائم بين يديه يلمسه ، فما بالك والقبر في باطن الأرض وفوقه من البروز ما يمنع الصلاة فوقه ؟! كما أنَّـه مُحاط بمقصورة هي ساتر شرعي للمصـلي ، وكـلُّ ذلـك يحجب المصلي عن القبر تماماً ، فلم تبق إلا نيَّة المصلي ، والحمد لله نيَّته لله ، وتكبيرة الإحرام تدلُّ على ذلك ، فهو يكبِّر ويسبِّح ويسجد لله وحده مؤكِّداً مخالفته لمن لعنهم الله الذين يسجدون لغير الله وقد اتَّخذوا على قبور أنبيائهم مساجد ، فلماذا نشكِّك في عقيدة الموحِّدين المُحبِّين لله ورسوله وعباده الصالحين ؟ المتَّجهين بأجسادهم إلى الكعبة التي الاتِّجاه إليها شرط لصحة الصلاة لا إلى قبر الميِّت ، والمتوجِّهين بقلوبهم إلى الله لا إلى الصالح الميِّت ، كما أنَّ الميِّت في صلاة الجنازة يكون بين يدي المصلِّين وهم يناجون ربَّهم ، ويدعون الله للميِّت وللمؤمنين معه حتَّى لو كانت بدون ركوع أو سجود ، فهي صلاة ــ أي عبادة لله ــ من أجل الميِّت ، وهيَّا بنا يا ولدي إلى المعلومة الثانية لأواصل الحديث معك .

معلومة {٣} :

يا ولدي من العجيب أنَّ السيِّد المؤلِّف في آخر الصفحات في كتابه وبعد أن حرَّم الصلاة في المساجد التي فيها قبور للصالحين يقول : (إنَّ الحُكم السابق يشمل كلَّ المساجد كبيرها وصغيرها ، قديمها

وحديثها ، ولا يستثني من ذلك مسجداً فيه قبر إلا مسجد النبيِّ ﷺ ؛ لأنَّ له فضيلة خاصَّة لا توجد في غيره من المساجد المبنيــة علــى القبور ، وذلك لقوله ﷺ : [صلاة في مسجدي هذا خير مـن ألـف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام فإنَّه أفضل] ولقوله ﷺ : [مـا بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنَّة]) هذا ما قالــه السـيِّد المؤلِّف وغيره ، وكأنَّه يخاطب قوماً لا يعقلون ولا يفقهون ! *وردِّي عليه هو* : أنَّ النبيَّ ﷺ أسوة لنا ، ومسجده أُسـوة لكـلِّ المســاجد وليس هناك حديث يستثني مسجده ﷺ بالصلاة فيه ويُحرِّم الصــلاة في غيره من المساجد التي بها أضرحة ، وذكرت أكثر من مــرَّة أنَّ اللعنة متعلِّقة بالسجود لغير الله ، والسجود لغير الله مُحرَّم في كــلِّ مكان وزمان وفي مسجد فيه ضريح أو في مسجد ليس فيه ضريح ، فهذه قضيَّة واضح الحُكم فيها ولا ينبغي أن نخلط الخبيث بالطيِّــب ، وما ذكره السيِّد المؤلِّف من أحاديث خــصَّ بها النبــيُّ ﷺ مســجده لا تدلُّ على هذا الاستثناء المصطنع في قضيَّة بطلانها مفروغ منه ، بل إنَّ هذه الأحاديث النبويَّة التي ذكرها تؤيِّد الصلاة في مسجد فيــه قبر ، فما أخذ المسجد قيمته عند الله وعنــد عباده إلا بوجود قبــره ﷺ ، وإذا كان السيِّد المؤلِّف يستثنيه لوجود قبر النبيِّ ﷺ ، فكيــف يستطيع استثناءه مع وجود قبري وليَّين من أولياء الله هما الصدِّيق والفاروق ــ رضي الله عنهما ــ ؟ أليس الــرجلان وليَّــين وليســا نبيَّين ؟ وهل يُعقل وجود روضة شريفة في حالة غياب قبــره ﷺ ؟ وهل لقبره هو روضة شريفة هي نضح أشعة روضته فــي قبــره ،

بينما أحبابه الذين اتبعوه وأحبُّوه وعلى رأسهم الصدِّيق والفاروق ليست لقبورهم روضات ولها نضح ؟ أليست روضات قبورهم ونضحها امتداداً للروضة الأصليَّة ونضحها ؟ وهل لدى السيِّد المؤلِّف من الأحاديث الصحيحة الصريحة التي تستثني المسجد النبوي أم هو هوى وهروب من الحقيقة ؟ وهل السيِّد المؤلِّف وأمثاله موافق على وجود القبور الثلاثة في داخل مسجد النبيِّ ﷺ ؟ وإذا كان موافقاً فلماذا يُفرِّق بين صلاة المسلم في مسجد النبيِّ ﷺ وبين صلاته في أي مسجد آخر به ضريح ؟ وإذا كان يخشى فتنة السجود لغير الله ـ وهذا مستحيل من مسلم ـ أيخشاها أن تصدر من مسلم يصلِّي في مسجد به قبر رجل صالح أقل في الدرجة ولا يخشاها في مسجد النبيِّ ﷺ الذي فيه خاتم النبيِّين وفيه إمام الأولياء صدقاً وإمام الأولياء عدلاً ؟ إذاً الاستثناء الذي ساقه السيِّد المؤلِّف لا معنى له ولا أصل له ومحكوم عليه بالعدم لا بالموت فقط ، وإنِّي لأتساءل : ما الذي أوجد الروضة الشريفة في مسجده ﷺ ؟ أليس لوجود قبره ﷺ ؟ وقد أكَّد ذلك حديثه المشهور حول كون روضته ما بين بيته ومنبره ، وبذلك أكَّد الصلة الوثيقة بين المسجد حيث يوجد المنبر وبيته حيث يوجد قبره بوصيَّة منه لسيِّدنا أبي بكر الصدِّيق ﷺ ، وهل حجب وجود قبري الصدِّيق والفاروق بجوار قبره ﷺ وجود الروضة الشريفة ؟ وإذا كانت له روضة شريفة ألا تكون لمصابيح نوره روضات كلٌّ على قدره ؟ أليست الروضة تابعة لحال صاحب القبر ونابعةً منه فضلاً من الله ونعمة ؟ من أين نشأت هذه الروضة أو تلك؟

ألم تنشأ من الخُلُق والعلم وهما جناحا التقوى وأصـلهما فـي الـذات الشـريفة وورثها عنه الأولياء وعلى رأسهم الصـدِّيق والفـاروق ؟ وجوهر التقوى القرآن ، والله يقول : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ {١٩٣} عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ {١٩٤} ﴾ الشعراء ، وهذه إشارة أيضاً إلى ميراث الأولياء من النبوَّة ، فالله يقول : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِـي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ... {٤٩} ﴾ العنكبوت ، أليس هـذا الميـراث القرآني في الأولياء هو سبب الروضة وسبب امتدادها خارج القبـر ؟ فكيف يستثني السيِّد المؤلِّف قبر النبـيِّ ﷺ المتصـل بجميـع قبـور الصالحين ؟ وكيف يستثني المساجد ذات الأضرحة من جميع بيوت الله فيحرِّم الصلاة فيها مع أنَّها بأضرحتها هي أقرب إلى مسجد النبـيِّ ﷺ اقتداءً به ؟ وإن كانت جميع المساجد من حيث كونهـا دور عبـادة لله وحده ولا سجود فيها إلا لله وحده ، ومن أجل هذا يقـول الله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُـوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً {١٨} ﴾ الجنّ ، أي فلا سُـجود فيها ولا عبادة إلا لله وحده وهذا الذي يُميِّز معابـد الإسلام عـن دور العبادة عند الأمـم السابقة واللاحقة ؛ لأنَّ في هذه الدور يُعبد غير الله ويُسجد لغير الله ، والمسلمون وحدهم هم الأمَّة الموحِّدة لله فلا تعبد إلا الله ولا تسـجد إلا لله وحده ، وتحقِّق ذلك وتُؤكِّده بـدون اشـتباه ولا وَسْوَسة بسجودها لله في مساجد زادت روضـاتها بوجـود أضـرحة للساجدين فيها فهم يسجدون لله بطريقـة عمليَّـة مـع وجـود هـذه الأضرحة ليُوقن الجميع أنَّ المسلمين يوحِّدون الله ولا يعبـدون إلا الله ولا يتشبَّهون بغيرهم الذين يسجدون لغير الله ، فكيـف نُسـوِّي بينهم

وبين غيرهم : ﴿ ... بِغَيْـرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَـابٍ مُنِيـرٍ {٢٠} ﴾ لُقمان ، ولا زال الحديث معك يا ولدي موصولاً فهيَّا بنا إلى المعلومة الثالثة .

معلومة {٣} :

يا ولدي ما قبر أي وليّ إلا غصن من شجرة نور نبوَّته ﷺ ، وإذا كان قبر الولي ممنوعاً وجوده في المسجد ، فلماذا فعل ذلك جيل الصحابة ؟ ألم يدفن الصحابة الوليَّين الصدِّيق والفاروق ــ رضي الله عنهما ــ بجوار النبي ﷺ ؟ ألم تُصبح القبور الثلاثة بداخل المسجد النبوي في عصر جيل التَّابعين ومنهم خامس الخلفاء الرَّاشدين سيِّدنا عمر بن عبد العزيز ﷺ ، ولم يعترض على هذا التصرُّف أحد يُذكر ؟ وجاءت أجيال وبعدها أجيال حتَّى ظهر هؤلاء المُعترضون الذين يُفسِّرون الآيات والأحاديث حسب ما يَرَونه هُم لا كما ترى الأمَّة التي قال عنها نبيُّها وأُسوتها في حديث عبد الله بن عبَّاس ــ رضي الله عنهما ــ : [لا يجمع الله أُمَّتي ــ أو قال : هذه الأُمَّة على الضلالة ويد الله على الجماعة] أخرجه الترمذي والحاكم وهو صحيح ، وإنِّي لأعجب لماذا يُصر هؤلاء على حرمان بقيَّة المساجد من هذا الفضل والخير ؟ أو يُصِرُّون على حرمان المسلمين من الصلاة في مثل هذه المساجد التي هي أشبه بفروع وأغصان وأوراق لشجرة طيِّبة أصلُها ثابت في المدينة المنورة ، أليست أنوار الأولياء آدمُها نور النبي ﷺ ونشأت عنه ؟ أينقطع نور الولي بموته حتَّى يُحَرِّم هؤلاء وجود قبره ظاهراً في أحد المساجد أو في غير

مسجد ؟ أليس نوره امتداداً للنـــور الأصـــلي كامتــداد أي إنســـان بصورته الآدميَّة من آدم ؟ ألم يُدرك هــؤلاء أنَّ الأجســـاد وســـائل إيضاح للأرواح والأنوار ؟ بمعنى أنَّ الأجساد لها نسب ولها أصــل نشأت وانتشرت منه ، وهي وسيلة إيضاح محسوسة تؤكِّد أنَّ ما هو أعلى وأسمى وأبقى وأطهر ، وهو نور النبيِّ محمَّد ﷺ ، وخُلُقُه هو أصل لا ينقطع مدده ولا تتوقف فروعه من الامتداد والانتشـــار هنـــا وهناك : ﴿ ... لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْــرِكُونَ {٩} ﴾ الصفٍّ ، ولا تتعطَّل مراياه من ظهورها هنا وهناك لــتعكس هُــداه وتنشر علمه وخُلُقه ، فهو الميراث الروحي ـــ ميــراث المعنـــى ـــ الذي ما ميراث المبنى وما يتعلَّق به إلا إشارة إليه كوسيلة إيضـــاح محسوسة ، وهل قبر رسول الله ﷺ وما نشأ عنه ـــ ما بــين بيتـــه ومنبره ـــ روضة ، أمَّا قبور الصَّالحين من بعده علـــى النقــيض ؟! أهي روضات ناشيء عنها رِوضات مِنْ حولها أم هي حُفَر من حُفَر النار في رأي هؤلاء ؟! ولقد ورد عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيـــرة عن عذاب القبر أذكر منها حديثاً واحداً مشهوراً هو : عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال : [إذا تشهَّد أحدكم فليتعوذ من أربع : مـــن عذاب جهنَّم ، وعذاب القبر ، وفتنة المحيا وفتنة الممات ، ومن شــرِّ المسيح الدجَّال] بصحيح البخاري ، ومادام في القبر عــذاب ذكــره النبيُّ ﷺ في أحاديث كثيرة ، فلا شكَّ أن يكون في المقابــل أنَّ فـــي القبر نعيماً ، فإمَّـــا أن يكون القبر حفرة ، وأمَّا أن يكـــون روضـــة ، فإن لوَّحوا بسؤالهم المشهور وهو : (وما أدرانا أنَّ صـــاحب هـــذا

القبر كان صالحاً ؟) *فأردّ عليه وأقول* : أتشكّون في صلاح السيّدة زينب ــ رضي الله عنها ــ ؟ لماذا لم تنالوا شرف زيارتها ؟ وهكذا كلّ ولي لماذا تُشكّكون في صلاحه ؟ وإذا ثبت صلاحه تُشكّكون في أنّ كون قبره في مسجد يحول بينكم وبين زيارته ، وإذا كان قبره في غير مسجد كانت حُجتهم في عدم زيارته كون قبره ظاهراً ، وتمنّيتم لو سويتموه بالأرض كما فعلتم بقبور الصالحين وعلى رأسها قبر سيّد الشهداء سيّدنا حمزة ﷺ وعنهم ، ألا تميّزون بين قبور الصالحين التي تزدحم ملائكة الرحمة من حولها ؛ لأنّها روضات وبين قبور غيرهم التي تتردّد عليها ملائكة العذاب وتحُفها الشياطين ، ألم تتدبّروا قول الله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ {٣٥} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ {٣٦} ﴾ القلم ، وقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ {٢١} ﴾ الجاثية ، تدبَّر يا ولدي كم هم مفتونون ؛ لأنّه كيف يسوّون بين الصالحين وغيرهم ؟ بينما القول الكريم الصادق المذكور سابقاً يؤكّد أنّ الله لا يسوي بين الصالحين والمُجرمين لا في حياتهم ولا في مماتهم ففي الدنيا : ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ... {٤١} ﴾ الرحمٰن ، وتزداد سيما الظلمة في الآخرة فيُعرفون أكثر ؛ لأنّه ليس معقولاً أن لا تكون في وجوههم علامة الإجرام ؛ لأنّ العبد إذا أجرم أو أساء ظهرت ظُلمة في قلبه وهو ما يُعرف بالران ، وتعكسها مرآة وجهه عن قلبه ، فتكسوا وجهه ظُلمة ، وينفر منه

الصالحون في الدنيا إذا كان من أهل النـــار ، أقــول : لــيس مــن المعقول أن لا تظهر هذه الظلمة في وجه المُجرم في الدنيا ثم تظهر فجأة في الآخرة ، فكلٌ شيء يبدأ من هنا ، أقـــول : نَعَـــم الله لا يسوي بين الصالحين والمُجرمين في الدنيا ، فتكـون فـــي وجـوه الظالمين سيما الظلمة والظلم ، بينما في الصالحين : ﴿ ... سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ...{٢٩} ﴾ الفتح ، ولا يسوِّي بيــنهم في الموت ، فقبور الصالحين روضات ، وقبور المجرمين حُفر مــن النار ، كذلك في الآخرة : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَـالْمُجْرِمِينَ {٣٥} ﴾ القلم ، قبور الصالحين روضات أظهرها الله وعلــى رأســها قبــر إمامهم ﷺ في المدينة المنوَّرة ، وقبور المجرمين الكافرين أمر النبيُّ ﷺ ومن بعده من الخلفاء بهدمها وتسويتها بالأرض ، يا ولدي هيَّــا بنا إلى المعلومة الرابعة لعلَّها تكون آخر معلومة في الإجابة علـــى السؤال الثالث والأربعين .

معلومة { ٤ } :

يا ولدي يجب أن يعلم الجميع أنَّ مسجد النبيِّ ﷺ ليس كمـــا يقــول هؤلاء ، وأنَّه يختصُّ وحده بإباحة الصلاة فيه ؛ لأنَّ الركعـــة فيـــه بألف ركعة فيما سواه إلا المسجد الحرام فإنَّه أفضـــل ؛ ولأنَّ فيـــه الروضة الشريفة ما بين بيته ومنبره ؛ لأنَّ الأرض كلَّها جُعلت لـــه ﷺ مسجداً ما لم توجد في المكان نجاسة ظاهرة ، ولذلك كَره العلماء الصلاة في المقبرة ــ إن وُجدت فيها نجاسة ــ وإلا فالصلاة مُباحة وصحيحة ، فليس هناك من عِلَّة أخرى تمنع أو تحرِّم الصلاة بجوار

قبر مادام السجود لله وحده ، وما لُعن السابقون المحرِّفون لـدينهم إلا لأنَّهم جعلوا سجودهم لغير الله هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ألم يسأل هؤلاء أنفسهم : لماذا خصَّ الله مسـجد النبـيِّ ﷺ فجعـل الركعة فيه بألف ركعة وجعل فيه الروضة الشـريفة ؟ ألـيس ذلـك بسبب وجود قبره الشريف في المسجد ؟ وهل قبره مُشرق بنور الله كالشمس وروضته الشريفة ممتدَّة منه ، بينما قبرا صاحبيه لا نـور فيهما ؟! أم أنَّ ما فيهما من نور حقيقي ورثاه عن النـور الأصـلي جعل قبريهما روضتين من رياض الجنَّة ، وامتدَّ نورهما مندرجاً في نور النبيِّ ﷺ ، وعلى هذا التحقيق الذي لا يعترض عليـه إلا متَّبـع لهواه ، يُصبح المسجد الذي فيه قبر لرجل صالح هو الـذي يتميَّـز عن مسجد لم ينل هذا الحظِّ العظيم كمساجدهم الجافَّة ، ومـع ذلـك الصلاة فيها مُباحة ؛ لأنَّها جزء من الأرض التي جُعلـت للنبـيِّ ﷺ وأمَّته مسجداً ، إنَّ نسبة قبور الصالحين أو روضاتهم في قبـورهم إلى روضة النبيِّ ﷺ كنسبة حبَّات المِسـبحة ومئـذنتها قبـره ﷺ ، ويجمع الجميع نور الله ــ نور القرآن ، حبل الله المتـين ـــ كمـا يجمع خيط المسبحة حبَّاتها ، وعلى رأسها مئذنتها التي من عنـدها يبدأ التسبيح والأذكار وإليها تنتهي ، كذلك النور منه وإليه يخـرج النور ويرجع ﷺ ، فجميع الصالحين يبدأون من عند رسـول الله ﷺ وينتهون إليه ، وهو الساجد الواحد لله الواحد الـذي : ﴿ ... لَـيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ {١١} ﴾ الشورى ، وهم ساجدون بسجوده ؛ لأنَّه نور متقلب في ذواتهم في حياتهم وبعد مماتهم ، فهم

القائمون بسُنَّته المتخلِّقون بأخلاقه وهم مصـابيح نـوره ومرايـا سجاياه مرفوع ذكرهم برفع ذكره من فضـل الله وكرمـه ، وتأييـد دعوته دعوة التوحيد الخالص لله الحي في ذوات المؤمنين بحـبِّهم للصالحين ، وكيف يُنكر هؤلاء هذا النسب الروحي وهـذه الصـلة النورانيَّة ، والله يقول بشأن نبيَّه وصلته بالصالحين : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ {٢١٩} ﴾ الشعراء ؟ وكيف يُحرِّم الأخ المؤلِّـف وغيـره من المؤلِّفين الصلاة في جميع المساجد التي بها روضات الصالحين في قبورهم بينما يبيحونها في مسجد النبي ﷺ ؟ وكان الأجدر بهـم أن ترِّق أغطيتهم حتَّى يبصروا نوره ﷺ مُشرقاً من روضته بالمدينة المنورة منتشراً في أنحاء الأرض من حول قبره ﷺ ، وما مجـالس الصالحين في حياتهم وقبورهم بعد مماتهم في جميع بقاع الأرض إلا نجوم هذا النور ؛ لأنَّـهم أمَّة واحدة : ﴿ ... فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَـا بَـدَّلُوا تَبْـدِيلاً {٢٣} ﴾ الأحـزاب ، وهـم المستثنون برحمة الله فـي قولـه : ﴿ ... وَلاَ يَزَالُـونَ مُخْتَلِفِـينَ {١١٨} إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ... {١١٩} ﴾ هود ، نعـم : ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ... ﴾ ونـعـم : ﴿ ... وَلِـذَلِكَ خَلَقَهُـمْ ... ﴾ فالله يرحم من يشاء بهم ، فطوبى لمن أحبَّهم واتَّبعهم وزارهم فـي حياتهم وخصوصاً بعد مماتهم ، ألم يُسمِّ النبـيُّ ﷺ الـذين عاشـوا واتَّبعوه وأحبُّوه في عصره بالأصحاب ، بينما الذين لم يعيشوا فـي عصره ولم يروه في عالم الشهادة بإخوانه ، وحين قال : [واشوقاه إلى إخواني ...] وهذا حديث مشهور ؟ بعد كلِّ هذه الحقائق ، لماذا

هدم هؤلاء قبر سيدنا حمزة بالمدينة المنورة وهو سيد الشـــهداء . والقبّة التي كانت عليه . والمسجد الـذي جاوره " ولمـاذا هـدمت غيره من المشاهد في كل بقعة وصلت إليها أيديهم ؟ ولقـد أجـاب على ذلك الشيخ ابن القيم في زاد الميعاد صـفحة – ٦٦١ – بمـا فحواه : (يجب هدم المشاهد التي بُنيت على القبور التــي اتّخـذت أوثانا وطواغيت تُعبد من دون الله ؛ ولا يجوز إبقاؤها بعـد القـدرة على هدمها ، فإنَّها بمنزلة اللات والعُزة ... أو أعظم شركا . ويجب على الإمام ـــ أي الحاكم ـــ هدم هذه المشاهد ، وكذا حُكـم الوقـف عليها باطل) هذا ما قرأته في كتاب (التبصير فــي البنــاء علــى القبور) للدكتور محمّد الفاتح – الباحث الإسلامي بالصفحة الثانية . إنّي أتساءل أمام هذا الموقف المتشدِّد ، وإن كنت أظنّه اجتهاداً مــن الشيخ ابن القيّم أو أنها فتوى قُصد بها الحدُّ من تعلُّق النـاس فــي عصره بالصالحين بطريقة لم تعجبه أو شكَّ في حلّها . وعلــى كــل فإنّ الحُكم بالهدم وتحريم الزيارة ووصف أضرحة الصالحين بأنّهــا أوثان ، أعتقد أنّ هذا كلّه فيه نظر ، بل هو تجاوز حدّ العقل والنقل ونسأل الله السلامة . ومن المغالطة قول المؤلِّف (إننــا لــو قلنــا بكراهية الصلاة فيه ـــ ويقصد المسجد النبوي ـــ لكان معنــى ذلــك مساواته مع غيره من المساجد ؛ لأنّ المساجد متساوية تماما مــن حيث كونها أماكن لعبادة الله وحده والسجود له . وفي الوقت نفسه هناك تفاضل بينها بدليل أنّ المسجد الحــرام لــه قـدرُه الأعلــى . والمسجد النبوي له قدرُه الذي يليه ، والمسجد الأقصى قـدرُه مــن

بعده) والعلم الصحيح النافع هو أنَّ جميع المساجد تتساوى في نسبتها لله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً {١٨} ﴾ الجنِّ ، أي فلا تجعل عبادتك لغير الله ولا تُشرك مع الله أحداً ولا شيئاً ، أمَّا دون نسبتها لله فتتفاضل في نسبتها للساجدين ، كنسبة مسجد المدينة للنبيِّ محمَّد ﷺ وعلو قدره لوجود قبره ﷺ فيه ، وتشرَّف الصدِّيق والفاروق بدفنهما بجواره ﷺ ، ولا تنسَ أنَّهما وليَّان وليسا نبيَّين ، ودُفنا بجواره ﷺ في حجرة السيِّدة عائشة المُلحقة بالمسجد في عصر الصحابة ، ودخلت القبور الثلاثة في المسجد في عصر أطهر جيل من أجيال الأمَّة بعد جيل الصحابة ﷺ أجمعين ، وكنسبة المسجد الأقصى للأنبياء وهكذا ، وما سُمِّي المسجد مسجداً إلا من فعل الصالحين الساجدين فيه في حياتهم والسَّاجدين في روضاتهم بعد مماتهم ، وأعتقد أنَّ روضة الرجل الصالح في قبره بالمسجد يزيده فضلاً عن غيره ، وعلى رأس المساجد التي فضَّلها الله بروضات الصالحين : كمسجد السيِّدة زينب ــ رضي الله عنها ــ وكمسجد السيِّد البدوي ﷺ ، وكمسجد سيِّدي أبي الحسن الشاذلي ﷺ وغيرها ، وهي مساجد تابعة في أفضليَّتها للثلاثة : المسجد الحرام المدفون فيه عشرات الأنبياء ، والمسجد النبوي المدفون فيه خاتم النبيِّين ﷺ والوليَّان ــ الصدِّيق والفاروق ــ رضي الله عنهما ــ والمسجد الأقصى والذي فيه ومن حوله وفي أرض فلسطين روضات الأنبياء ، وفي أنحاء العالم هنا وهناك روضات وروضات تؤكِّد أنَّ دين الإسلام الحق الظاهر على الدين كلِّه

ولو كَرِه المشركون ، وأن نور الله تام ولـــو كـــره الكافـــرون ، والمـــلاحظ يا ولدي أنَّ النبيَّ ﷺ نسب مسجده لنفسه فـــي حـــديث مشهور حين قال : [ومسجدي هذا] إشارة إلى أنَ أفضـــليّة هـــذا المسجد علّتها نسبته له ﷺ وهكذا كلّ مسجد نسبته إلى الله تجعلـــه يتساوى مع بقيّة المساجد ، أمّا نسبته لرجل صالح فتفضـــله علـــى غيره ، ونسبته إلى الله تجعل الغاية مـــن بنائـــه هـــي عبـــادة الله والسجود له وحده ، وأمّا نسبته للرجل الصالح فتُضيف خيراً زائـــدا للمسلم حين يزور هذا الرجل الصالح ، وإنَّ أهل السماء يرون قبـــر النبيِّ ﷺ كما نرى نحن الشمس في السماء ، وإنّهم ليـــرون قبـــور الأولياء المنتشرة في أنحاء بقاع الأرض كمـــا نـــرى نحـــن نجـــوم السماء فهي مذكرات ومؤشرات ومطهرات من الكبْر والعُجْب . لذلك لا يزورهـــا إلا القوم الذين وصفهـــم ربُّهـــم فـــي كتابه بقولـــــه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ {٥٤} ﴾ المائدة ، والله أعلم .

السؤال الرابع والأربعون :

يحتج المعترضون بقول النبيِّ ﷺ : [اللهُّم لا تجعل قبري وثناً] وقوله ﷺ : [اللهَّم لا تجعل قبري عيداً] في النهي عن إقامة الأضرحة للصالحين ورفع القباب فوقها ، وعن زيارتهم والاحتفال بذكراهم ، وعن إيقاد السُرج عليها ، واتخاذها أوثاناً يُطاف بها ويُقبِّلونها والصلاة عندها ، وهم يطعنون في توحيد مَن يفعل ذلك ، فما ردُّك على ذلك ؟

الإجابة :

معلومة { ١ } :

يا ولدي الملاحظ أنَّ للإجابة على هذا السؤال يجب تقسيمها إلى سبع نقاط هي : -

النقطة الأولى : حول قول النبيِّ ﷺ : [اللهَّم لا تجعل قبري وثناً] .

النقطة الثانية : حول قوله ﷺ : [اللهَّم لا تجعل قبري عيداً] .

النقطة الثالثة : حول إقامة الأضرحة ورفع القِباب .

النقطة الرابعة : حول زيارة أضرحة الأولياء والتوسُّل بهم إلى الله .

النقطة الخامسة : حول إقامة الموالد .

النقطة السادسة : حول إيقاد السُرج على أضرحة الصالحين .

النقطة السابعة : حول اتِّهام المُعارضين زوار الصالحين بالشِرك أو ارتكاب كبائر .

هذه هي المسائل السبع التي بردِّي على كلِّ مسألة منها أكون قد أجبت بإذن الله على السؤال الرابع والأربعين .

أمَّا عن المسألة الأولى : المسألةُ الخاصَّة بدعوة النبيِّ ﷺ : [اللهمَّ لا تجعل قبري وثناً يُعبد] واحتجاج المعارضين بهذا الحديث في النهي عن قصد زيارة قبر الرسول ﷺ أو التوسُّل به إلى الله ، بل يكون مسجده هو المقصود بالزيارة حيث إنَّه من بين المساجد الثلاثة التي تُشدُّ لها الرِّحال كما ورد في حديث النبيِّ ﷺ ، *فردِّي على ذلك هو* : أنَّ هذه الدعوة أو هذا الدعاء الذي أُلْهم الله به نبيَّه ﷺ وهو : [اللهمَّ لا تجعل قبري وثناً يُعبد] يجعلنا نطمئن تماماً على توحيدنا ، ويؤكِّد أنَّنا بقدر حُبِّنا للنبيِّ ﷺ نكون موحِّدين حقّاً ، ويترتَّب على حُبِّنا له حرصنا على زيارته والإكثار منها ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لا نشُكُّ لحظة في أنَّه مُستجاب الدعوة ، ثمَّ إنَّ دعوته هذه بوحي الله وإلهامه له ، إذاً لا خوف على توحيدنا ولا شكَّ فيه ، وبهذا الدعاء المُستجاب يقيناً أصبح من المستحيل أن يتحوَّل قبره ﷺ إلى وثَن يُعبد ؛ لأنَّ الله يقول : ﴿... وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ...{٦٧}﴾ المائدة ؛ ولأنَّه ﷺ مُستجاب الدعوة مُلْهَم بها ، وكما أنَّ الله ضَمِن حفظ القرآن فقد ضَمِن عصمة نبيِّه ﷺ ، فهو ﷺ لن يضلَّ فيه أحدٌ كما ضلَّت بعضِ الأمم السابقة في أنبيائهم ؛ لأنَّ كُتبهم منسوخة وتبقى لهم العصمة فيما بلَّغوا عن ربِّهم ، أمَّا خاتم النبيِّين فالكتاب المُنزَّل عليه ضَمِن الله حفظه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ {٩} ﴾ الحِجْر ، وترتَّب على ذلك حفظ الله لنبيِّه من النَّاس فلا يضلُّ فيه أحد : ﴿ ... وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ...{٦٧} ﴾ المائدة ؛ لأنَّ رسالته لن تُنسخ أبداً ، قد يُعاديه أعداء الله ورسوله

وهم المغضوب عليهم والضالون ؛ ولكن من المستحيل أن يضلَّ فيه مُحبٌّ مُقبل عليه كما حدث في أُمم سابقة حين اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد فعبدوهم من دون الله وسجدوا لهم أو لقبورهم ، ولذلك نقرأ في فاتحة الكتاب قول الله تعالى : ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ {٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ {٧} ﴾ الفاتحة ، ودعوة النبيِّ ﷺ المستجابة تسري بإذن الله على بقيَّة أضرحة الصالحين ؛ لأنَّهم من ذريَّته ﷺ فما وجدنا ولا سمعنا بمسلم مُهتدٍ بهدي رسول الله ﷺ زار ضريح ولي ليسجد له ، ولا دخل مسجداً إلا ليسجد للواحد القهار ، ويزور عبده الصالح في قبره حيث روضته ، فهي زيارة لوجه الله كما أنَّها سُنَّة ، وهكذا يكون توحيد العبد لربِّه ، وما حُب المسلم للصالحين إلا أوَّل إنتاج لتوحيده لله ؛ لأنَّ توحيده بِذْرَتُه (لا إله إلا الله) وحُبَّه بِذْرَتُه (محمَّد رسول الله ﷺ) وبجناحي التوحيد والحُبِّ يعرج العبد إلى جنَّة ربِّه ورضاه ، وهكذا تكون المودَّة بين المؤمنين التي لا يحجبها شيء من الأغيار أو الأوهام ولا تنقطع بالموت ، ولذلك كانت زيارة القبور عموماً سُنَّة ، فما بالك بزيارة قبور الصالحين ؟ والمُكافِئ على هذه وعلى تلك هو الله الودود ، فهل قبر أو ضريح الصالح بهذه الزيارة يكون وثناً ؟! لا وألف لا ؛ لأنَّ الله قد استجاب دعوة نبيِّه ﷺ : [اللهمَّ لا تجعل قبري وثناً] وإذا كان ﷺ هو السراج المُنير في دنياه وفي برزخه وفي آخرته فإنَّ صالحي أمَّته هم نجومه ومصابيح نوره في جميع أحوالهم وأطوارهم ، ولا تحجب

قواعد الحياة ولا الموت بين أفراد هذه الأمَّة الصالحين وعلى رأسهم سراجهم المنير ﷺ ؛ لأنَّ صلة النَّسب بينهم أحياءً وأمواتاً قول الله : ﴿ ... ولَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ... {٦٣} ﴾ الأنفال ؛ ولأنَّ حالهم عند الله في قوله : ﴿ ... بَلْ أَحْيَاء عِنـدَ رَبِّهِـمْ يُرْزَقُـونَ {١٦٩} ﴾ آل عمران ، وتأمَّل يا ولدي حين تقف تصلي لله في الروضة الشريفة في أيِّ اتِّجاه تتَّجه وقبر الرسول ﷺ بجوارك ، أتتَّجه إلى القبر أم تتَّجه إلى القبلة ؟ وهكذا في كلِّ مسجد فيه ضريح ، إنَّ المسلم المصلي يبدأ صلاته بالاتجاه إلى القبلة ؛ لأنَّ الاتجاه إلى القبلة عبادة لله وحده في صلاته شرط لصحة الصلاة لا تصحُّ بدونه ، ثمَّ إنَّه يقول : (الله أكبر) تكبيرة الإحرام التي يحرم بعدها الاتِّجاه لغير الله وحده في القيام والركوع والسجود والقعود ، وقبل ذلك كلِّه القصد والنيَّة والإخلاص : ﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ... {٣} ﴾ الزمر ، بعد ذلك كلِّه فليطمئن المؤمنون جميعاً أنَّ وجود قبر نبيِّهم بينهم في الدنيا رحمة ، ومستحيل أن يضلُّوا فيه ، وحرام على المُعارضين الذين يُشكِّكون في ذلك ، أيُّها المعارضون دعوا المؤمنين الموحِّدين يزورون بيوت الله بدافع العبوديَّة لله وحده ، ويزورون قبور الصالحين وعلى رأسها قبره ﷺ بدافع الحُبِّ ، ولا تقذفوهم بأوهامكم ، هداكم الله وإيَّانا إلى الصراط المستقيم ، وقد يقول أحدهم : إنَّ النبيَّ ﷺ قال : [لا تتَّخذوا قبري بعدي وثناً يُعبد] ويقول : إنَّ هذا نهي صريح عن شيء يحتمل وقوعه ، وإذا كان ذلك يحتمل وقوعه بالنسبة للنبيِّ ﷺ ، فهذا يعني أنَّ وقوعه بالنسبة

لغيره من الصالحين وارد حدوثه ، بل يغلب على الظنّ وقوعه ، هذا ما قد يردّده المعارضون ، *وردّي على هذا بسيط وهو* : أنَّ هذا النهي نهي وقاية لا نهي علاج ، والفرق بينهما أنَّ النهي عن شيء بالوقاية منه يمنع وقوعه أصلاً ، فهو نهي عن مُمتنع حدوثه ، أمَّا نهي العلاج فهو تحذير من شيء محتمل وقوعه من البعض ، وقد وقع بالنسبة للأمم السابقة المنسوخة كُتبها بالقرآن الكريم ، ولمَّا كان القرآن الكريم ممتنع نسْخه ومستحيل ضياعه ؛ لأنَّه محفوظ بحفظ الله وعلمه وإرادته وقدرته : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ {٩} ﴾ الحِجْر ، كذلك النبيُّ ﷺ المُنزَّل عليه هذا الكتاب المحفوظ المستحيل نسخه بحفظ الله له ، وتدبَّر يا ولدي قول الله الذي يشير إلى أنَّ من بين أسماء النبيِّ ﷺ أنَّه (ذِكْر) أي أنَّ اسمه هو اسم القرآن ، فالقرآن من بين أسمائه أنَّه الذِكْر ، والنبيُّ ﷺ ورد في القرآن أنَّه ذِكْر ، تدبَّر قوله تعالى : ﴿ ... قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً {١٠} رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ ... {١١} ﴾ الطلاق ، فالنبيُّ ﷺ مرآة القرآن ولا انفكاك بينهما أبداً ، وكما أنَّ الله ضمن حفظ القرآن فقد ضمن عصمة النبيِّ ﷺ فلا يضلُّ فيه أحدٌ أبداً ؛ لأنَّه النبيُّ الخاتم ، فيستحيل أن يُنسخ الكتاب المنزَّل عليه ويستحيل أن يضلَّ فيه أحد ، فالقرآن محفوظ وخاتم النبيِّين ﷺ معصوم ، إذاً النهيُّ عن اتِّخاذ قبره ﷺ وثناً نهيٌّ للوقاية وللتذكير ؛ لأنَّه ليس في علم الله نسخ كتابه المحفوظ وهذه إشارة إلى حفظ نبيِّه فلا يضلُّ فيه أحد أبداً ، بل جعل قبره الشرف في الأرض

ليظهره على الدين كلِّه ، وليوفـي بعهده مع حبيبه حين قـال له : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ {٤} ﴾ الشرح ، فهو مرفوع ذكره في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة ، بل كان مرفوعاً ذكره وهو في عالم الغيب ، فقد أخذ الله ميثاق النبيِّين بشأن الإيمان به ، وأدنى مظاهر رفع ذكره ظهور قبره في الدنيا بطريقة محسوسة يُزار من خلالها ، فكيف يُخشَى من أن يُصبح قبره وثناً يُعبد ؟! أيعده الله بشيء ثمَّ يعدل عنه ؟! : ﴿ ... وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ ... {١١١} ﴾ التوبة ، : ﴿ ... وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً {٨٧} ﴾ النساء ، أيُّها المعترضون إنَّ الله أغير على نبيِّه منكم ومنَّا فلا خوف عليه بل الخوف عليكم ومنكم أنتم ، وإذا تأكَّد أنَّ النبيَّ ﷺ معصوم محفوظ فلا يضلُّ فيه أحد ؛ لأنَّ القرآن في ذاته ، كذلك ينسحب هذا الحكم على ورثته الذين جعل الله القرآن آيات بيِّنات في صدورهم .

معلومة { ٣ } :

يا ولدي يحتجُّ المعترضون بدعاء النبيِّ ﷺ : [اللهمَّ لا تجعل قبري عيداً] في النهي عن الإكثار من زيارة قبره ﷺ ، وكأنَّهم يخشون على حُبِّ الناس لربِّهم وتوحيده من حُبِّهم لرسول الله ﷺ وزيارته ، وبذلك يفصلون بين جناحي كلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمَّد رسول الله) ، وكأنَّهم يخشون على جناح (لا إله إلا الله) من جناح (محمَّد رسول الله) وهذا منتهى عدم الإدراك وعدم المعرفة ، كيف يخشون من حبِّنا وتعلُّقنا برسول الله ﷺ الذي ضمن الله عصمته من الناس حيّاً وميِّتاً على حبِّنا لله وتوحيده ؟! وهل يوجِد حُبٌّ لله حقيقة

وتوحيد له حقيقة من غير (محمَّد رسول الله) ؟! ألم يجعـل بيعـة الناس له بوضع أيديهم في يده ﷺ شريعة ومجازاً هي بيعة لـه ﷻ حقيقة وعقيدة لعَجْزنا عن إدراك الله ؟ فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَـكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْـدِيهِمْ ... {١٠} ﴾ الفتـح ، ألـم يجعل طاعته ﷺ طاعة له ﷻ فقال : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَـاعَ اللّهَ ... {٨٠} ﴾ النساء ؟ إذاً معنى هذا الدعاء سواء جاء بأسلوب الدعاء أم بأسلوب النهي مثل قوله : [لا تجعلوا قبري عيداً] لـيس كما ظنَّ هؤلاء المعترضون ومن بينهم مؤلِّف كتاب (تحذير السَّاجد من اتِّخاذ القبور مساجد) أو مَنْ لخَّصه في كُتيِّب صـغير ، إنَّنـي عجبت كلَّ العجب حين فُسِّر هذا القول الشريف عند هؤلاء بأنَّه نهيٌ عن الإكثار مـن زيارة قبره ﷺ ، ونهيٌ عن معاودة زيارتـه مـن وقت لآخر ، وهذا ما قرأته بنفسي في كتـاب المؤلِّف الذي لخَّـص كتاب (تحذير السَّاجد من اتِّخاذ القبور مساجد) فانتـابتني دهشـة حتَّى أنَّني رجعت إلى ظاهر الغلاف لأنظر في اسم المؤلِّف حتَّى أتأكَّد أنَّه مسلم من حروف اسمه ، وتساءلت : كيف يُحذِّر مسلم من كثـرة زيارة النبيِّ ﷺ محتجاً بكلامه ﷺ ، ومُفسراً له بهواه ، بل قـد يحـتجُّ بكلام الرسول ﷺ الذي لم يُدرِك جوهره ولم يُحط بمعنـاه المقصـود ، فيُحرِّم الاحتفال بذكـرى مولده ﷺ ، فمـا بـالك بـذكرى موالـد الأوليـاء ﷺ ؟ *وردِّي على هؤلاء* : أنَّ العيد إنَّما هو يوم واحد يعود كلُّ عام مرة واحدة أو مرتين ولا ينبغي أن تكون علاقتنا بقبر النبيِّ ﷺ بهذه الصورة ، بل يجب أن نصله كلَّ يوم لو استطعنا ولا نكـف

عن زياراته أو نقلّل منها ؛ لأنَّ في زيارتنا لقبره رحمة ونجاة وتجديداً لإيماننا وشوقنا إليه ، وإليك يا ولدي بعض الأدلَّة التي تحثُّ على زيارته ﷺ :

أ) عن نافع عن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ قال : قال رسول الله ﷺ : [من زار قبري وجبت له شفاعتي] وفي رواية : [من زار قبري حلَّت له شفاعتي] رواه الدار قطني ، البيهقي ، وابن عساكر في تاريخه ، ورواه كثير من أئمَّة الحديث .

ب) [من حجَّ فزار قبري ــ وفي رواية ــ فزارني بعد وفاتي عند قبري كان كمن زارني في حياتي] رواه أبو يعلى ، والدارقطني ، البيهقي ، وابن عساكر ، وهذا عن مجاهد عن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ .

ت) [من زارني بعد مماتي فكأنَّما زارني وأنا حيٌّ ، ومن زارني كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة] أخرجه عبد الله بن عمر العمري بسنده عن أبي هريرة ﷺ ، وأخرجه أيضاً ابن الدكن وابن حميد وابن عوانة .

ث) [من حجَّ البيت ولم يزرني فقد جفاني] رواه الإمام مالك ﷺ عن نافع عن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ .

ج) [من زارني ميِّتاً فكأنَّما زارني حيّاً ، ومن زار قبري وجبت له شفاعتي يوم القيامة ، وما من أحد من أمَّتي له سعة ولم يزرني فليس له عذر] أخرجه سيِّدنا أنس بن مالك ﷺ من

رواه سمعان بن المهدي ، وهذا ذكره ابن حبَّان في الثقات ، وقال النسائيُّ : ليس به بأس .

ح) [من زار قبري كنت له شفيعاً ــ أو شهيداً ــ ومن مات في أحد الحرمين بعثه الله ﷻ من الآمنين يوم القيامة] عن عمر ﷺ ، ذكره البيهقيُّ في السنن الكبرى ، وذكره الحافظ ابن عساكر .

خ) [من زارني متعمِّداً كان في جواري يوم القيامة] رواه أبو جعفر العقيلي وغيره من رواية سوران بن ميمون .

د) [من زارني متعمِّداً كان في جواري يوم القيامة ، ومن سكن المدينة وصبر على بلائها كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة ، ومن مات في أحد الحرمين بعثه الله في الآمنين يوم القيامة] رواه هارون بن فرعة وذكره ابن حبَّان في الثقات .

ذ) [ما من أحد يُسلِّم عليَّ إلا ردَّ الله عليَّ روحي حتَّى أردَّ عليه السلام] في سنن أبي داود السجستاني ، عن أبي هريرة ﷺ ، وقد اعتمد جماعة من الأئمَّة على هذا الحديث في مسألة الزيارة ، وهو اعتماد صحيح ذكره أبو بكر البيهقيُّ ، وفي مسند الإمام أحمد لفظه : [ما من أحد يُسلِّم عليَّ عند قبري ...] إلى آخر الحديث .

ر) وفي القرآن الكريم ما يحثُّ على زيارة النبيِّ ﷺ ، انظر في سورة النساء الآية {٦٤} حيث يقول الله : ﴿ ... وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ

لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً ﴾ وانظر فِي سورة النساء آية {١٠٠} حيث يقول الله تعالى : ﴿ ... وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ ... ﴾ وعدم تقييد ذلك بحياته الدنيويَّة ﷺ .

ز) وروى أبو داود في سننه ، عن طلحة بن عبيد الله ﷺ قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ نريد قبور الشهداء ... إلى آخر الحديث ، وإذا كان ثابتاً أنَّه ﷺ انتقل لزيارة قبر غيره فقبره من باب أوْلى يُزار .

س) واقعة سفر سيِّدنا بلال مؤذن الرسول ﷺ من الشام إلى المدينة ، بعد أن غادر المدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ واستقر في الشام ، ولكنَّه سافر سفراً مخصوصاً لزيارته ﷺ بعد أن رآه في نومه يعاتبه على عدم زيارته ، ذكر ذلك الحافظ أبو القاسم بن عساكر ﷺ بإسناد جيِّد ، وذكره أيضاً الحافظ أبو محمَّد عبد الغني المقدسي ﷺ في (الكمال في ترجمة بلال) وملخَّص ما ذُكر : أنَّ بلال قدم إلى المدينة بقصد زيارة قبره ﷺ ، ولم يكن له قصد غير ذلك نتيجة لمعاتبة النبيِّ ﷺ ، وفي المدينة طلب منه الصحابة أن يؤذِّن ولم يُتم الأذان من كثرة البكاء .

ش) قال ابن بطال في شرح البخاري : قوله ﷺ : [ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنَّة] معناه التحريض على

زيارة قبره ﷺ والصلاة في مسجده ، ذكر ذلك في كتاب (حقيقة التوسُّل والوسيلة) .

ص) روى ابن عون قال : سأل رجل نافعاً : هل كان ابن عمر يسلِّم على القبر ؟ قال : نعم رأيته مائة مرَّة أو أكثر من مائة مرة ، يأتي القبر فيقوم عنده فيقول : (السلام على النبيِّ ﷺ ، السلام على أبي بكر ، السلام على أبي) أخرجه الإمام عبد الله بن دينار عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ .

ض) والمُستخلص من مذهب الإمام مالك ـ رحمه الله ـ أنَّ الزيارة قُربة ، والمذاهب الثلاثة يقولون : باستحبابها ، واستحباب الإكثار منها ؛ لأنَّ الإكثار من الخير خير ، وكلُّهم مجمعون على استحباب الزيارة ، من كتاب (حقيقة التوسُّل والوسيلة) .

ط) قوله ﷺ : [من جاءني زائراً لا ينزعه إلا زيارتي ، كان حقّاً على الله ﷻ أن أكون له شفيعاً يوم القيامة] ذكره الإمام الحافظ أبو سعيد بن عثمان بن سعيد بن سكن البغدادي المصري ، وذكره البزَّار في كتابه المسمَّى (السنن الصحاح المأثورة عن رسول الله ﷺ) وابن السكن إمام حافظ وثقة الكثير واسع الرحلة .

إذا زيارة النبيِّ ﷺ بكثرة تجعل العبد الزائر المشتاق الصادق يحظى ويفوز بالشفاعة ، وقد سوَّى النبيُّ ﷺ زيارته بعد موته بزيارته في حياته ، فبالله عليك بعد هذا كيف يحذِّر مؤلِّف مختصر كتاب (تحذير

المساجد من اتِّخاذ القبور مساجد) من كثرة زيارة النبـيِّ ﷺ ؟ وقـد صحَّ أنَّ أحد الصحابة ﷺ قد بكى في حضرة النبيِّ ﷺ ، فسأله النبيُّ ﷺ : [ما يبكيك ـ أو ما شـأنك ـ فقال له الصحابيُّ الجليـل : أنا لا أستطيع مفارقتك ، وأعلم أنَّ لك في الجنَّة مقامك العالي ، فأخشى يا رسول الله وأنا في مقام أدنى أن لا أحظى برؤيتك أو بصـحبتك] أو هذا معنى ما قاله هذا الصحابيُّ الجليل ، فماذا حدث ؟ أنـزل الله قرآناً فلنستمع له وننصت : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّـالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً {٦٩} ﴾ النساء ، هكذا تكون انفعالات الحـبِّ والشوق في نفس الموحِّد انفعالات طاهرة ومشاعر راقية وأحاسيس تتعلَّق بأحباب الله ، وعلى رأسهم الحبيب المحبـوب شـفاء العلـل وفرج الكروب ﷺ ، ومن ثمار زيارة المسـلم للنبـيِّ ﷺ أن يكـون الرسول ﷺ شهيداً لمن زاره بقدر إقباله عليه يوم القيامة ، فتصـوَّر ماذا يكون مصير العبد الذي يشهد لـه رسـول الله ﷺ أنَّ مصـيره الجنَّة ورضـا الله ؟ وكم تكون جريمة من لم يَزُرْه ؟! فعدم زيارتـه تؤدِّي إلى الجفاء كما ذكر في الحديث ولم يُسمح له بعذر إلا العجـز عن زيارته لسبب خارج عن طاقته ، أمَّا من حيث قلبه فهـو فـي زيارة دائمة ، وهذا معنى : [لا تجعلوا قبري عيداً] أي تعلَّقوا بـي بقلوبكم ، وهذا التعلُّق يستـغرق عمر الإنسان كلُّـه علـى قـدر صدقه ، ولا يتقيَّـد بوقت محدَّد في العام كما هـو الحـال بشـأن الأعياد ، حيث إنَّ كلَّ عيد له وقت معيَّن لا يزيد عن يوم معيَّن فـي

العام ؛ وتصوّر يا ولدي مسلماً تعلّق قلبه لتوحيده لله بحب رسـول الله ﷺ تعلقاً يستغرق الزمن كلّه ، لم يبـق لـه إلا تكـرار زيارتـه بالجسد أيضاً ، ولما كانت قدرات الجسد محدودة معدودة فالزيـارات تكثر تبعاً لرغبات قلب الموحّد بقدر ما يستطيع صاحب هـذا القلـب الموحّد من حيث قدرته الجسديّة ، وكم يكون أمن هذا المؤمن الذي يسعى لزيارة الحرمين الشريفين المكي والمدني يوم القيامـة يـوم يشيب الولدان ؟ هذا من فضل الله وكرمه أن جعل الله حرمه وحـرم نبيّه مصدري أمن للعبد الزائر المُشتاق ، أليست إضـافة الله لحـرم النبيّ ﷺ إلى حرمه وهو المسجد الحرام تحريضاً على الزيارة للنبيّ ﷺ وبكثرة ؟! أليس الأمن هو أوّل ما يحتاجه المؤمن يوم القيامـة ؟ فكيف يحذّر المؤلّف من كثرة زيارة قبر النبيّ ﷺ ؟ أيريـد أن يفقـد المسلمون أمنهم يوم القيامة ؟ ألم يُبشر النبيّ ﷺ زائره بأنـه فـي جواره ﷺ يوم القيامة ؟! وكم يكون محظوظاً شـريفاً مـن يجـاور رسول الله ﷺ يوم القيامة ؟ كم يكون مطمئناً ؟ أليست هذه المجاورة وهذا الاطمئنـان ثمرة من ثمار زيارة قبره ﷺ ؟ وكـم تكـون سعادة الزائر لقبر النبـيّ ﷺ حين يعلـم أنّ روح النبـيّ ﷺ قـد رُدّت إليـه ليردّ عليه السـلام ؟ ومعنى (رُدّت إليه) : أي التفـت إلى الزائر لحظة سلامه عليه ؛ لأنّ النبيّ ﷺ مستغرق شوقا إلى الله فحياته كلّها لله . فإذا ألقى عليه الزائر السلام فتأديب الله لنبيّـه ﷺ يجعله بقدرة الله يلتفت إليه ليردّ عليه السلام ، فتردُ للزائر من روح النبيّ ﷺ من الأنوار والأسرار والروحانيّة ما يحيا به الزائر ويـزداد

حياة ، فردُّ النبيِّ ﷺ على الزائر مَدَدٌ لإحيائه حياة طيِّبة ، ثمَّ إنَّ الزائر الظالم لنفسه حين يزور النبيَّ ﷺ ويستغفر ، أَلَمْ يذكُر القرآن أنَّ النبيَّ ﷺ يستغفر له ؟ حتَّى إنَّ الزائر يشعُر بالمغفرة حين يجد الله تواباً رحيماً ، يحدث ذلك ؛ لأنَّ العبد مستغرقٌ بالجو الروحي للزيارة ، ويقع في روعه ببركة زيارة النبيِّ ﷺ أنَّ الله قد غفر له ، أليست هذه بشارة من الله من خلال روحه ﷺ الذي أرسله رحمةً للعالمين وأمره من خلال كتابه أن يُبشِّر المؤمنين ؟ إنَّ العبد الزائر المستغفر الله عند قبره ﷺ وزيارته يشعر بالمغفرة والرحمة بطريقة محسوسة موجودة ــ ومن ذاق عَرَف ــ أمَّا من أصابه الهوى الزائغ بسهم من إبليس فأنَّى له أن يَحُسَّ وقد هوَّن من زيارة النبيِّ ﷺ ، بل يأبى أن يجعل زيارة قبر النبيِّ ﷺ غايةً وهدفاً للمؤمن ، بل يجعل الزيارة الأصليَّة هي الزيارة للمسجد لا للقبر وغفل عن هذه الآية التي لم تُنْسَخ ، وأقول : لم تُنْسَخ بموت النبيِّ ﷺ ، يقول الله : ﴿ ... وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً {٦٤} ﴾ النساء ، وتحدث هذه البشرى في وجدان الزائر ببركة زيارة النبيِّ ﷺ ، ألم يُبشر الله المهاجر إلى الله ورسوله بالأجر العظيم ؟ وتكفي هذه البلاغة في التعبير عن ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً {١٠٠} ﴾ النساء ، وأسأل هؤلاء : كيف تُطَبِّقون هذه

الآية ؟ وكيف تخرجون من بيوتكم مهاجرين إلى الله ورسوله ؟ أتفعلون ذلك بالإكثار من زيارته ﷺ أم بالتقليل من زيارته كما يتمنَّى مُؤلِّف كتاب (تحذير الساجد من اتِّخاذ القبور مساجد) ؟! ألم يدركوا أنَّ الله ربط بين الهجرة إليه والهجرة إلى رسوله ﷺ كما ربط بين طاعته وطاعة رسوله ﷺ ؟ بل جعل طاعة العبد للرسول ﷺ هي طاعة له ﷻ ، بل أمر بذلك واقرأ يا ولدي ما قاله الله في كتابه وتدبَّر : ﴿ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ {١٣٢} ﴾ آل عمران ، وقوله : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ ... {٨٠} ﴾ النساء ، وغير ذلك من الآيات ، بل جعل بيعة المؤمنين للرسول ﷺ بيعة له ﷻ فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ... {١٠} ﴾ الفتح ، هل بعد ذلك كلِّه يريدوننا أن نفصل بين توحيدنا لله وحده وبين تعاملنا مع رسول الله ﷺ بالحبِّ النابع من حُبِّنا لله ؟ فكلَّما أحبَّ المسلم رسول الله ﷺ ترجم عن حُبِّه لله فما أحببناه إلا بُحبِّنا لله ، وعلى قدر حُبِّنا نُكرِّر زيارتنا له في مدينته المنورة ، ثمَّ إنَّ تردد النبيِّ ﷺ كثيراً على زيارة قبور الشهداء والصالحين في البقيع وغيره أليس هذا يعني التحريض على زيارة القبور وبخاصَّة قبور الصالحين ؟ فإذا كان الأعلى يزور الأدنى فما بالك بالأدنى كيف لا يزور الأعلى ؟ وإنَّ زيارة الأعلى للأدنى وزيارة الأدنى للأعلى يترتَّب عليه أن يفيض الله من الأعلى للأدنى من الخيرات والبركات ما يُشجع الأعلى الذي مازال في الدنيا على زيارة قبور الصالحين والمؤمنين كما كان يفعل النبيُّ ﷺ في زيارته

للبقيع ، كما يُشجع الأدنى الذي مازال في الدنيا على زيارة أضرحة الصالحين المشهود لهم بالولاية ، وما سنَّ الله ورسوله زيارة القبور إلا لتكون وسيلة فيض ووسيلة عطاء مع التذكير والموعظة ولا يعيق الموت أو الحياة هذا الفيض ولا هذا العطاء ، وفي سفر سيِّدنا بلال وهو صحابي جليل من الشام سفراً مخصوصاً متعمَّداً بقصد قبر النبيِّ ﷺ دليل على الترغيب في زيارة قبور الصالحين ، أكانت هذه الزيارة مخالفة لتعاليم الإسلام ؟ ألم تذكر كتب السيرة أنَّه جاء إلى قبره ﷺ وأخذ يُقبِّل ترابه والصحابة من حوله يبكون ولم يتَّهمه أحد بالشرك ؟ وفي حالة عجزنا عن زيارة النور الأصلي الذي بشُعَاعه توجد الروضة الشريفة ممتدَّة حتَّى منبره الشريف ، ونظلُّ نكرِّر زياراتنا لذريَّته من الصالحين الذين فيهم نوره وأخلاقه وأسراره ؛ لأنَّهم مصابيح نوره ونجوم دينه ومرايا سرِّه ، حتَّى إذا زرناه رجعنا ونحن أشدُّ شوقاً إليه فنكرِّر زياراتنا لأحبابه في روضاتهم ، وهكذا نشمُّ رائحة الجنَّة ، إنَّ هذا النور الواحد المُمتد والمُنتشر في أنحاء الأرض من الروضة الشريفة والذي جعله الله مدداً وزيتاً لمصابيحه من الصالحين في بيوتهم ومجالسهم ولنجومه في برازخهم وروضاتهم ، أقول : إنَّ هذا النور المنتشر من السراج المُنير لا يُدركه إلا أهل البصائر ؛ لأنَّ الواحد منهم أقامه الله بالبصر والسمع حين قال : ﴿ ... أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ... {٢٦} ﴾ الكهف ؛ لأنَّه كيف تكون مجالس الصالحين مجالس ذِكر وعلم وخير وإطعام للطعام وكذلك قبورهم روضات من رياض الجنَّة ، كما ورد في

أحاديث مُتعددة ولا تكون مواقع نجوم تُزار ؟ ومـن أهـل التوحيـد والحُبِّ في الله مَن يُدرِكـون ذلك كَشْفاً ، ومنهم مَن يؤمنـون بـه غيباً ، والجميع مِقبلون بكثرة وبصدق على زيارة قبره ﷺ وزيـارة مواقع نجومه ومصابيح نوره المنثورة في أنحاء الأرض ، كما زيَّن الله السماء الدنيا بزينة الكواكب ، فكلَّما زاروا قبره الشريف أقبلـوا على زيارة أضرحة نجومه ﷺ ، وكلَّما زاروها ازدادوا شوقاً لزيارة قبر السراج المنير الذي لا يغرُب نوره أبداً ، وما حُـرِم مـن نـور زيارته ﷺ وزيارة نجومه ﷺ إلا مَنْ انحرفت نفسه بهواهـا فكـان ظلامها مثل الأرض كلَّما انحرفت بدورانها عن الشـمس عسـعس ليلها ، وهكذا يحيا أحباب الله يشمُّون رائحة الجنَّة ويتنفسون نسـيم التوحيد فيزدادون توحيداً لله ؛ لأنَّ حبَّهم لله هو جوهر توحيـدهم ، وإنَّ حُبَّهم لرسول الله ﷺ هو ترجمة حُبَّهم لله ، وإنَّ حُبَّهم للصالحين هو ترجمة حُبِّهم لرسول الله ﷺ ، وكيف يوحِّـدون ولا يُحبُّـون ؟! وكيف يُحبُّون ولا يزورون ؟! وباطلاعي على كتب كثيرة قرأت مـا يفيد أنَّ العلماء العاملين كانوا حريصين على زيارة النبيِّ ﷺ والسلام عليه بذواتهم أو بذوات غيرهم لعدم تمكنهم لعذر مانع من زيارته ، فقد ذكر سيِّدنا زيد بن أبي سعيد ﷺ أنَّه قَدِمَ على سيِّدنا عمـر بـن عبد العزيز ﷺ وهو خليفة للمسلمين فلمَّا ودَّعه قال له : يا زيد إذا أتيت المدينة سترى قبر النبيِّ ﷺ فأقرئه منِّي السلام ، *__وتعليقي على هذا__* : أنَّ السلف الصالح كانوا يُدركون بيقين حيـاة النبيـِّ ﷺ فـي برزخه والصالحون تابعون له ، فكان منهم مَن يسعى إليـه ويُسـلِّم

عليه عند زيارته ، ومنهم مَن لم يتمكن من زيارته فيرسل إليه مَـن يُسلِّم عليه نيابة عنه ، والجميع في صلواتهم يسلِّمون عليـه فـي التشهُّد ، وهكذا لم تنقطع صلتهم به بعد موتـه ، فزيارتـه صـلة مباشرة ، وإرسال السلام إليه صلة غير مباشرة ، والسلام عليه في التشهُّد صلة دائمة ، وهكذا علاقـة المـؤمن بـالنبيِّ ﷺ وعلاقتـه بالصالحين ذريَّة النبيِّ ﷺ ومصابيح نوره ﷺ . (كذلك جـاء أيـوب السختياني ﷺ فَدَنَا من قبر الرسول ﷺ فاستدبر القبلة وأقبل بوجهه إلى القبر فبكى بُكاء غير مُتباك) أخرجه أبو طلحة بن محمَّد ـ في مُسند الإمام أبي حنيفة ، *وتعليقي هو* : أنَّ السلف الصالح لم تنقطع صلتهم ولم تغفل مشاعرهم بالنسبة للنبـيِّ ﷺ . وروى ابن عـون قال : (سأل رجل نافعاً : هل كان ابن عمر يُسلِّم على القبر ؟ ـ أي قبر النبيِّ ﷺ ـ قال : نعم رأيته مائة مـرَّة أو أكثر من مـائة مرة – وهذه إشارة للكثرة من الزيارة لقبره ﷺ بينما هـؤلاء يريـدون التقليل منها – كان يأتي القبر فيقوم عنده فيقول : السلام على النبيِّ ﷺ ، السلام على أبي بكر ، السلام على أبي) أخرجه الإمام عبد الله ابن دينار عن ابن عمر ﷺ ، *وتعليقي على هذا* : أنَّ سيِّدنا عبـد الله ابن عمر ﷺ ، كان صحابيّاً و ابن صـحابيٍّ ؛ لأنَّـه رأى النبـيَّ ﷺ ورأى مَن رأى النبيَّ ﷺ ، فانظر يا ولدي كيف كان السلف الصـالح يُكثرون من زيارتهم للنبيِّ ﷺ ؛ لأنه حيٌّ في برزخه ؟ وكان يُسـلِّم عليه وعلى صاحبيه الوليَّين ، ولم يعترض عليه أحد لا من الصحابة ولا من التَّابعين . بل إنَّ المستخلص من مذهب الإمام مالـك ﷺ أنَّ

الزيارة قُربة ، والمذاهب الثلاثة يقولــون باســتحبابها واســتحباب الإكثار منها ؛ لأنَّ الإكثار من الخير خير ، وكلُّهــم يجمعــون علــى استحباب الزيارة ، هذا من كتــاب (حقيقــة التوسُّــل والوســيلة) *وتعليقي على هذا* : أنَّ الأئمَّة لم يجعلوها فرْضاً ؛ لأنَّ الحبَّ الــذي وراء الزيارة لا يكون بمجرَّد الأمر وإنَّما هو شــعور يتولَّــد عــن الإيمان وسلامة القلب ، فيُحدث الشوق وتتحقَّق الزيارة تلقائيّاً للنبيِّ ﷺ وعنوانه قبره ﷺ ولصاحبيه ؛ لأنَّ حبيب حبيبي حبيبــي وهمــا حبيباه ، بل تتحقَّق الزيارة لمصابيح نوره من الأولياء في قبــورهم وفي كلِّ مكان ، هذه هي أمَّة المصطفى الحبيب ﷺ التي أشار إليهــا الله في كتابه بقوله : ﴿ ... فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً {٢٣} ﴾ الأحزاب ، ولقد وقفت في يوم جمعة علــى منبر المسجد الكبير بقرية شنواي مركز أشمون بمحافظة المنوفية ، فقلت بصريح العبارة : (إنَّ زيارة النبيِّ ﷺ فوق الحجِّ وجــوهره) وهذه القرية غنيَّة بكثرة العلماء من أبناء الأزهر الشريف ــ أدامــه الله عنواناً مُشرِّفاً لمصر ــ وبعد الصلاة وقفت لألقي درساً وأجيــب على بعض الأسئلة ، ولأُوضِّح ما غمض في خطبتي ، فسألني أحــد العلماء ، وأنا أحبُّ علماء الأزهر الشريف وأُحبُّ أن أتتلمــذ علــى أيديهم فهم أهل الاعتدال ، قال هذا الرجل العالم : يا أخي كيف تكون السنَّة قبل الفرض باعتبار الحجَّ فرض والزيارة سنَّة ؟ وكان سؤالاً منطقيّاً وبخاصَّة أنَّه صادر من عــالم جليــل ، وحبِّــي للعلمــاء وتقديري لهم من جوهر عقيدتي ، والحقيقة أنَّني كنت أتوقَّــع هــذا

السؤال ، فالحجُّ فرض لا خيار للعبد في أدائه متى استطاع ، ولكن الزيارة سُنَّة ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ في أحاديثه رغَّب فيها ، وطرأ عليَّ سؤال من داخلي حين وصلت إلى هذه النقطة وهو : هل مارس النبيُّ ﷺ هذه السنَّة وهو ما زال حياً وبخاصَّة أنَّها سنَّة فعليَّة ؟ والسنَّة الفعليَّة أقوى ، وكيف ذلك ؟ وكان الجواب المنطقي هو أنَّ زيارته لأهل البقيع وغيرهم من أموات وهي زيارة من الأعلى ﷺ للأدنى ﷺ إشارة إلى أنَّ زيارة الأعلى للأدنى أولى منها أن يزور الأدنى الأعلى ، فإذا كان صاحب الدرجة العليا يزور من هو أدنى في الدرجة فمن باب أولى أن يزور الأدنى الأعلى ، وبذلك تأكَّد أنَّ زيارتنا للصالحين سنَّة فعلها النبيُّ ﷺ ونصح بها في أحاديث كثيرة ، وكلُّ زيارة يترتب عليها أن يفيض الله على الأدنى من خلال زيارته للأعلى ، ويفيض الله على الأدنى من خلال زيارة الأعلى له سواء أكان هذا أو ذاك حيّاً أَمْ ميِّتاً وهذه سُنَّة الله في خلقه ، فكما أنه يفيض بالرزق من الغني إلى الفقير ، ويفيض بالعلم من المُعلِّم إلى المُتعلِّم ، ومادام هو المُفِيض فلا يقف موت أو حياة فانية عقبة في طريق إفاضته ، وبخاصَّة أنَّ إفاضته بالخير على العبد تابعة لحاله وضميره ، فالله يُغَيِّر بالعطاء والمنع حسب ما في الأنفس وهو الحي الذي لا يموت ، فعطاؤه دائم للإنسان سواء أكان حيّاً أم ميِّتاً ، فافهم يا ولدي هذه المعاني حتى لا تضلَّ مع مَنْ ضلَّ فتحجبك بشريَّة الولي كما حجبت بشريَّة الأنبياء المشركين ، أو يحجبك موته أو حياته ، فعالِم الغيب والشهادة هو الفعَّال ، ولذلك تكرَّرت زيارة

النبيِّ ﷺ وهو حيٌّ في عالَم الشهادة لأهل البقيع وهم أحياء في عالَم الغيب ، وما الموت إلا لحظة ذاقوها وانتهت حيث بدأت حياتهم البرزخيَّة ، وكم كانت مدَّة تذوقهم ؟ لذلك يقول الله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ {٥٧} ﴾ العنكبوت ، أقول : كانت زيارته رحمة لأهل البقيع ؛ لأنَّها زيارة أعلى وهو النبيُّ ﷺ لأدنى وهم أهل البقيع ﷺ ، كذلك زيارة المسلم وهو حيٌّ في عالَم الشهادة لضريح النبيِّ ﷺ أو أي ضريح لولي في عالم الغيب هي رحمة للزائر الأدنى في المرتبة وهكذا ، والمُجري للخير يد الله وهي مبسوطة غير مُقيَّدة بمكان أو بزمان مُطلقة ، وأعود بك يا ولدي إلى ردِّي على تساؤل هذا العالِم من قرية شنواي مركز أشمون محافظة المنوفيَّة وهو كيف أقول : أنَّ زيارة النبي ﷺ فوق الحجِّ مع أنَّ المقطوع به أنَّ الحجَّ فرض والزيارة سُنَّة ؟ وكيف تجعل السُنَّة فوق الفرض ؟ سؤال عالِم يُكلمني بالمنطق فقلت له وكان يُنصت إنصات العلماء ، وكأنَّه تلميذ يريد أن يفهم ، قلت له : أوَّلاً الحج فرض كما قلت فضيلتكم وهو أفعال وأقوال بنيَّة ، وقد يؤدِّيه المسلم حجّاً صحيحاً ، وأقول : صحيحاً ؛ لأنَّه أدَّى الأفعال والأقوال وهي صورة للحجِّ كما ورد عن النبيِّ محمَّد ﷺ وهو قادر على زيارته ﷺ ، فمن الذي منعه من السفر إلى المدينة لزيارة النبيِّ ﷺ في مسجده وفي قبره وهو قادر على ذلك ؟ ألا يدلُّ ذلك على فشله في حجِّه ؛ لأنَّ الزيارة تحكم بها على حالة الحاج نفسه لا على الحجِّ ، فقد يصح الحجُّ في حدِّ ذاته من حيث كونه أفعالاً وأقوالاً معروفة

مرتَّبة أتى بها الحاج كما وردت ولا يُقبل ؛ لأنَّ الحاجَّ أتى بالصورة فقط ولكنَّه لم يكن ذا قلب نقي تقي ؛ لأنَّه خلا من مشاعر الشوق إلى زيارة رسول الله ﷺ ، وقبول الفعل في الإسلام أساسه حالة الفاعل أوَّلاً ، وصحَّة الفعل ثانياً ، فالفعل تابع للفاعل مهما كان صحيحاً ، فإن كان حال الفاعل مَرضيّاً عنه ففعله مقبول حتَّى ولو لم يَصِلَ إلى درجة الكمال ، أمَّا إن كان حال الفاعل غير مرضي عنه فلا قبول للفعل ولو بلغ درجة الكمال من حيث صورته ، ويكفي قول النبيِّ ﷺ : [إنَّما الأعمال بالنيَّات ... الخ] مروي عن سيِّدنا عمر رضي الله عنه ، وقبل الحديث قول الله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ... {٥} ﴾ البيِّنة ، وهل يصحُّ قلب حاج لا يزور النبيَّ ﷺ في قبره وهو قادر على ذلك أو حتَّى يتردَّد وهو مدعوٌّ لها حتَّى يصحَّ عمله ، أو بمعنى أدقٍّ حتَّى يُقبل عمله ؟! لأنَّ صحة العمل فرع ، والأصل صحَّة القلب : [ألا وإنَّ في الجسد مُضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كلُّه ، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه] رواه الشيخان من حديث النعمان بن بشير ﷺ ، أليس هذا القول النبوي الشريف يُشير إلى ذلك ، وقوله ﷺ : [رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ، ورُبَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر] عن سيِّدنا أبي هريرة ﷺ ، إذاً الصورة وحدها أو كمالها لا يكفي إن لم يكن لها روح ، وروحها الإخلاص لله ورسوله ﷺ ، وكيف يدَّعي حاجٌّ أنَّه مُخلِص لله ورسوله ﷺ ويأبى زيارته ؟ ألا يدلُّ ذلك على أنَّ أقواله وأفعاله في الحجِّ قشرة والبيضة فاسدة ؟! وورد في الأثر :

[من حجَّ ولم يزرني فقد جفاني] فهذا الحديث مقبول بمعناه ؛ لأنَّ مَنْ استطاع الزيارة ولم يزره فمعناه الجفاء ، والحقيقة أنَّه اقتنع تماماً وأدرك ما أقصده ، وملخصه أنَّ العلم وما يترتَّب عليه من عمل فرض وميزانه الأدب ، وعلامة العلم الأدب ، وهل هناك أسوأ أدباً من حاجٍّ يأبى زيارة قبر النبيِّ ﷺ رغم قدرته ؟ ولم يكن قصدي أن تكون عناية المسلم بالزيارة أكثر من أدائه الحج ، ولكن المقصود أنَّ أدبك مع رسول الله ﷺ وحبَّك له وشوقك إلى زيارته وكونك كذلك مع أحبابه الصالحين مع الاتِّباع إشارة إلى قبولك وبالتالي قبول حجِّك ؛ لأنَّك سليم القلب والله يقول : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ {٨٨} إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ {٨٩} ﴾ الشعراء .

معلومة {٣} :

يا ولدي وصلت معك إلى المسألة الثالثة وهي حول إقامة الأضرحة ورفع القباب وهل هذا الفعل حلال أم حرام ؟ *وردِّي على هذا* : أنَّ إقامة الأضرحة ورفع القباب حلال وليست حراماً ، ما دليلي على ذلك ؟ هذا ما سأذكره لك في هذه المعلومة الثالثة المتعلِّقة بالسؤال الرابع والأربعين ــ إن شاء الله ــ يا ولدي تحديد قبر الميِّت ووضع علامة من فوقه فعل مشروع لا اختلاف عليه حتَّى لا تُنتهك حُرمته بالمشي عليه أو فوقه أو الجلوس عليه ، وحتَّى يُعرف صاحب القبر وبخاصَّة إذا كان صالحاً لزيارته من أهله ومن أحبابه والأدلَّة على جواز ذلك هي :

أولاً :

قد ورد ما ينصُّ على ذلك في رواية ابن ماجة بسنده وهو حسن ، كما قاله في الزوائد عن أنس بن مالك ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ أعلم ـ أي وضع علامة ـ على قبر عثمان بن مظعون بصخرة ، ورواه أبو داود عن بعض أصحاب الرسول ﷺ ولفظه : [لمَّا مات عثمان ابن مظعون ودُفن أمر النبيُّ ﷺ رجلاً يأت بحجر فلم يستطع حمله فقام رسول الله ﷺ وحسر عن ذراعيه ثمَّ حمله ووضعه عند رأسه ، وقال : أتعلَّم به قبر أخي] وهذه العلامة وإن كان الرسول ﷺ قد بدأها بحجر للتعرُّف على صاحب القبر ، وحتى لا تطؤه الأقدام ، ويعرف الناس أنَّ هنا قبر ميِّت يجب أن نحافظ على حرمته ونزوره وبخاصَّة إذا كان صالحاً أو كان معروفاً بصلاحه ، كان لابدَّ من التطور محافظة على حُرمة القبر وتحقيقاً للهدف من وضع العلامة ومنع وقوع المحذور من مشي على القبر أو الجلوس عليه ، وخصوصاً أنَّ الناس كلَّما مضى الزمن ابتعدوا عنِ الصواب ، وصحبوا معهم أطفالهم ونساءهم للزيارة وبذلك تُنتهك حُرمة القبر فلم يكن هناك مانع شرعي ولا عقلي يمنع أن يقوم البناء على القبر ، وخصوصاً إذا كان قبر رجل معروف بصلاحه ، وبذلك يتحقَّق الهدف من الحَجَر الذي وضعه النبيُّ ﷺ عند قبر سيِّدنا عثمان بن مظعون ﷺ ، ألم يكن النبيُّ ﷺ يخطب متكئاً على جذع ثمَّ تطوَّر الأمر إلى منبر من ثلاث درجات ، وأخذ يعلوا باتساع المساجد وهكذا حتَّى يخدم الغاية بإظهار المتكلِّم للمستمعين ووصول صوته

وذلك قبل ظهور مُكبِّرات الصوت ، ولم يقل أحد من المسلمين العقلاء بهدم أو بإزاحة هذا المنبر العالي عن المسجد ، فليس الأمر المُتعلِّق بدين الإسلام مُعقَّداً بهذه الصورة التي تصورها المعترضون ، ويكفي ما سبَّبوه للأمَّة من انقسامات وصراعات فكانوا عوناً لأعدائها من حيث لا يشعرون أو يقصدون .

ثانياً :

يقول المحقِّق المعروف ابن عابدين ﷺ : أنَّه لم يَرَ رأي من اختار عدم جواز البناء على القبر مُطلقاً ، وهذا يعني أنَّ هذا الرجل الذي اشتغل بالعلم وإحقاق الحقِّ وكان حريصاً على التحقُّق والتبيُّن حتَّى لا يُفتي بغير علم أو يُفتي جذافاً بغير تحقُّق ، هذا الرجل يعني بما قال أنَّه لم يوجد من الأئمَّة المعتمدين الموثوق بهم مَن يمنع جواز البناء على القبر ، ثمَّ قال : وفي الأحكام عن جامع الفتاوى : (ولا يُكره البناء إن كان الميِّت من المشايخ والعلماء والسادات) يعني أنَّ البناء جائز على قبور الصالحين .

ثالثاً :

إذا كان المُعترضون يحتجُّون بحديث يتيم رواه أبو الهيَّاج عن الإمام علي ﷺ ونصُّه من صحيح مسلم قال أبو الهيَّاج : قال لي الإمام علي : (ألا أبعثك على ما ابتعثني عليه رسول الله ﷺ أن لا تدع ـ أي تترك ـ تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً إلا سوَّيته) وردِّي على ذلك مما تعلَّمته من علمائنا العاملين : أنَّه بصرف النظر عن رأي رجال الحديث في أبي هيَّاج راوي هذا الحديث ، ورأيهم

فيمن رووا عنه وأن خبره ليس موثوقاً به ، كذلك الذين رووا عنه الحديث غير موثوق بهم هذا ما قرأته في كتب العلماء العاملين مثل فضيلة الشيخ : محمَّد زكي إبراهيم ، وتلميذه الدكتور : محمَّد الفاتح وغيرهما من العلماء المحقِّقين ، أقول : بصرف النظر عن الثقة المفقودة في هؤلاء الرواة فلنفترض أنَّ الحديث صحيح ، فلا بدَّ أن يكون المقصود بالهدم قبور المشركين في البلاد المفتوحة وفي أي مكان ، بدليل أنَّ الأمر يتعلَّق بطمس تماثيل ، حيث أنَّ الأمم السابقة كانوا حريصين على أن يضعوا بجوار قبور صالحيهم ــ على عقيدتهم الفاسدة ــ صوراً وتماثيل يسجدون لها ، وسار على منوالهم أهل الكتاب ، وقد ربط الحديث بين طمس التماثيل وتسوية القبور ، وبذلك ثبت أنَّها لم تكن قبور مسلمين كما زعم هؤلاء المُعترضون ، ثمَّ إنَّنا نلاحظ أنَّ تسوية القبر الإسلامي بالأرض ممنوع شرعاً ، لماذا ؟ لأنَّ من السُنَّة وضع علامة لمعرفة صاحب القبر ، ولتعريف من لا يعرفه أنَّ هذا قبر والمطلوب المحافظة على حُرمته ، ولكي يتحقَّق بذلك لابدَّ أن تكون لكلِّ قبر علامة ، وبخاصَّة إذا كان قبر رجل عالِم صالح ينبغي توقيره حيّاً وميّتاً يُعرف بها ويُحافظ بالبناء عليه من أن ينتهك أحد حُرمته ، وبخاصَّة وقد ابتعد كثير من الناس عن السلوك الصائب ، وتطور الأمر حتَّى أصبح القبر في جوف الأرض وفوقه ما يمنع تماماً انتهاك حُرمته ، بل فُصل بمقصورة عن بقيَّة الأرض سواء أكانت مسجداً أم غير ذلك ، وأصبح النظام مُحكماً لتحقيق ما كان يهدف إليه النبيُّ ﷺ حين بدأ

بتحديد مكان القبر بعلامة وذلك بوضع حجر ، فلماذا يخلطون بين قبور المسلمين وقبور المُشركين ، ويسوون بين روضات الجنَّة وحُفر النَّار : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ {٣٥} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ {٣٦} ﴾ القلم ؟ ثمَّ إنَّ هذه القبور والقِباب المرفوعة في أرض فلسطين وعند المسجد الأقصى ، لماذا لم يأمر الإمام علي أمير المؤمنين بهدمها ؟ ولماذا لم يسبقه غيره من الخلفاء الراشدين وبخاصَّة الفاروق ـ الذي قطع شجرة البيعة ـ لهدمها ؟ أمَّا هدم قبور المشركين وتسويتها بالأرض وطمس تماثيلها فهذا فعل مقبول ومعقول ، بل لماذا لم يأمر الفاروق وعامله في مصر سيِّدنا عمرو ابن العاص – بطمس تماثيل الفراعنة وهدم مقابرهم الشاهقة وعلى رأسهم تمثال أبو الهول والأهرامات حيث يُدفن بعض ملوك الفراعنة ؟ ألم يكن من العلم أن يلفت نظر المعترضين هذا الموقف ؟ فيُدرِكون بثاقب الإيمان أنَّ تلاميذ النبيِّ محمَّد ﷺ كانوا يُدرِكون أنَّ هذه القبور الفرعونيَّة وتماثيل الفراعنة لا يُسجد لها وإنَّما هي حضارة شعوب يجب المُحافظة على شعورها ، أمَّا الذي كان يجب هدمه هو المسجود له من دون الله .

رابعاً :

يا ولدي باطلاعي على كُتب العلماء العاملين والأولياء الصالحين الذين يُحلِّقون في سماوات المعرفة الحقَّة بجناحي النقل والعقل ، وبتوقيري لحريَّة العقل التي هي الفطرة التي وهبها الله للإنسان خرجت بهذه الأدلَّة التي تُجهض كُلَّ حَمْل كاذب بمعلومات هؤلاء

المُعترضين الذين يريدونَ أن يخفضوا مَنْ أو ما رفعه الله ويُخفوا مَنْ أظهره الله أو رفع ذكره ، ومن هذه الأدلَّة :

١) دُفن النبيِّ ﷺ وصاحبيه الصدِّيق والفاروق ــ رضي الله عنهما ــ في مكان واحد مُلحَق بالمسجد هو حجرة السيِّدة عائشة ــ رضي الله عنها ــ في عصر الصحابة ، وتمَّ وجوده بداخل المسجد في عصر التَّابعين وفوق القبور الثلاثة القبَّة الخضراء ، فيا تُرى لماذا هيَّ باقية حتَّى الآن ؟! إذا كان رفع القبَّة على ضريح الرجل الصالح غير مشروع ، فلماذا يخالفون صاحب الشريعة في قبره كما يزعمون ؟ ولماذا لم تسقط شرعيَّة الصلاة فيه ؟

٢) مسجد أسد الله سيِّدنا حمزة تمَّ بناؤه في المائة الثانية من الهجرة ، أي في القرن الثاني الذي هو خير القرون بعد قرن الصحَّابة ، وقد تمَّ بناؤه على قبر عم النبيِّ ﷺ ، ثمَّ هدموه في القرن الثالث عشر الهجري ، يعني بقي شامخاً بقبَّته قروناً ، ثمَّ امتدَّت إليه يد الاجتهاد الخطأ ، ولا أقول يد العدوان محافظاً على سلامة قلبي .

٣) الخليفة هارون الرشيد الذي كان معروفاً بعلمه وفقهه ، وكان عصره حافلاً بكبار العلماء مثل : الشافعي وابن حنبل وسفيان ابن عيينة ، لمَّا مات بُني على قبره قُبَّة ، ولم يعترض أحد من العلماء حين بُني على قبره .

٤) قبور أهل البيت وعلى رأسهم سيِّدنا العباس ، كانت في دار عقيل بن أبي طالب ، فهدموها وسووها بالأرض ووطأتها الأقدام ، فياتُرى مَنْ قام ببنائها من آل البيت ؟ ألم يكن يُعرف حُكم الدين في البناء على المقابر ؟ أهؤلاء الهدَّامون أكثر علماً من آل البيت أم هو الغلُّ القَبَلي ؟

٥) قبر سيِّدنا سعد بن مُعاذ الأنصاري في دار ابن مُفلح هدموه وهدموا قُبَّته التي أقيمت على قبره في المائة الثانية من الهجرة ، أي في عصر التابعين ، وقد ذكر ذلك الإمام السمهودي في كتابه (وفاء الوفاء) .

٦) وفي المائة الثانية من الهجرة بنى الخليفة الرشيد على قبر الإمام علي قبَّة ولم يعترض أحد ولم يهمس أحد بفتوى طائشة ، كذلك كان لأولاده وأحفاده قبور مرفوعة بالبقيع تمَّ هدمها وتسويتها بالأرض ، وبذلك سووا بينها وبين قبور المُشركين .

٧) لو كان البناء على القبر غير مشروع فما الذي يدفع الإمام النووي شارح صحيح الإمام مسلِّم أن يقول : (البناء إن كان في أرض مُسبلة ـ أي موقوفة لغرض مُعيَّن ـ فحرام ، نصَّ عليه الشافعي والأصحاب ، وإذا كان البناء على القبر سبباً لحفظ أصالة الدين وإظهار المودَّة لصاحب القبر الذي فرض الله محبَّته ويؤدي إلى تجمُّع الزوَّار تحت البناء لتلاوة القرآن وللدعاء والاعتبار ، فالبناء أمر مرغوب فيه) *وتعليقي على هذا* : أنَّ الإمام الشافعي لم يُحرِّم البناء على القبر في حدِّ ذاته ، وإنَّما

حرَّمه إذا كان في أرض موقوفة لغرض مُعيَّن ، ومع ذلك أكَّد أنَّ البناء على قبور الصالحين إظهاراً للدين أمر مرغوب فيه ، بل إنَّ الإمام الشافعي أباح نتيجة ما وَرِثَه من علم نبوي لا من هواه إقامة القباب فوق أضرحة الصالحين وكتابة أسمائهم على قبورهم من أجل إحياء ذكراهم وتذكير الناس بهم ؛ لأنَّ قصص الصالحين ينبغي أن لا ينساها المؤمنون حتَّى يُثَبِّتُ الله بها أفئدتهم ويزيدهم هُدى كما كان يُثَبِّتُ فؤاد النبيِّ ﷺ بأن يقصَّ عليه سِير الأنبياء ، ورأي الإمام الشافعي هذا ورد في أحد الكتب الصادرة من وزارة الأوقاف تحت اسم (رسالة الإمام) والتي كان يُشرِف على إصدارها الدكتور / محمَّد الأحمدي أبو النور وزير الأوقاف السَّابق ، وعنوان هذا الكتاب هو كتاب (الصلاة من الفقه على المذاهب الأربعة) قسم العبادات ، صفحة ٣٥٣ في مبحث البناء على القبور ، وقد ورد ما يأتي : (الشافعيَّة قالوا يجوز أن تُبنى قبور الأنبياء والشهداء والصالحين وأن تُرفع عليها القباب ولو في الأرض الموقوفة لإحياء ذكراهم) وهذا يعني أنَّ الممنوع فقط بناء المقابر العاديَّة في الأرض الموقوفة ، أمَّا قبور الصالحين فتُبنى في أيَّة أرض لإظهار الدين بالاتفاق ، ومَنْ هذا الذي لا يقبل أن تشرُف أرضه الموقوفة بروضة من رياض الجنَّة وبوجود قبر لرجل صالح .

٨) موضوع قبر السيِّدة فاطمة بنت أسد أم الإمام علي تحوَّل إلى مسجد وكان معروفاً باسم (مسجد فاطمة) وأنَّ الصحابي

مُصعباً والصحابي عبد الله بن جحش ، ثمَّ دفنهما تحت المسجد الذي أُقيم على قبر سيِّدنا حمزة ، وقام هؤلاء بهدمه في سبيل ما تصوَّروه لله وهو من تزيين الشيطان : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ {٨} ﴾ فاطر .

٩) ما رأي المُحرِّمين البناء على القبر في أنَّ البناء على قبر النبيِّ ﷺ بدأ في عصر الصحابة ﷺ بعد دفنه في حُجرة السيِّدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، بعد أن استقرَّ القبر في موضعه وزِيْدَ وأُعيد مرات كثيرة من عهد الفاروق عمر إلى عهد سيِّدنا عمر ابن عبد العزيز ـ رضي الله عنهما ـ ، وإلى ما بعدهما حتَّى كان آخر بناء أقيم في عهد السلطان عبد الحميد سنة ١٢٧٠ هـ ، هذا ما قرأته في كتب العلماء ﷺ وجزاهم عنَّا وعن مثلي خير الجزاء ، وإذا كان البناء الممنوع هو الذي يحدث بعد الدفن ، أمَّا البناء السابق فلا شأن لهم به كما يرى بعضهم ، فلماذا هدموا جميع ما لا شأن لهم به من قبور ومشاهد وقباب ؟ وهذا سؤالٌ منطقيٌّ مَنَّ الله به على أحد علمائنا العاملين ، وكيف يتَّفق هذا الرأي وهو أنَّ الممنوع البناء بعد الدفن مع فعل سيِّدنا عمر حين بنى جداراً متعلِّقاً بقبر النبيِّ محمَّد ﷺ ، وبعد دفنه هو قامت السيِّدة عائشة ببناء جدار آخر على القبور الثلاثة ، أليست هذه الأبنية بعد الدفن ؟ وذكر الإمام

السمهودي عن أبي غسَّان بن يحيى ؛ وكان عالماً بأخبار المدينة أنَّه مازال بيت النبيِّ ﷺ الذي دُفن ظاهراً ــ أي في المسجد ــ حتَّى بنى عمر الجدار .

١٠) وإنزال سيِّدنا جبريل عليه السلام لسيِّدنا محمَّد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج للصلاة عند قبر سيِّدنا إبراهيم ــ عليه الصلاة والسلام ــ وعند موضع مولد السيِّد المسيح ــ عليه الصلاة والسلام ــ إن دلَّ على شيء إنَّما يدلُّ على قبور ظاهرة معروفة للصالحين حتَّى مكان ولادة السيد المسيح ، أصبح مكاناً ظاهراً معروفاً ازداد شرفاً وبركةً بصلاة النبيِّ محمَّد ﷺ ركعتين ببيت لحم ، ذكر ذلك الإمام ابن حبَّان في صحيحه ، وصحَّحه بسنده عن محمَّد بن أحمد بن إبراهيم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [لمَّا أُسري بي إلى بيت المقدس مرَّ بي جبريل إلى قبر إبراهيم ــ عليهما السلام ــ فقال : انزل هنا صلِّ ركعتين ، فإنَّ هَاهُنا قبر أبيك إبراهيم عليه السلام ، ثمَّ مرَّ بي إلى بيت لحم فقال : انزل صلِّ هَاهُنا ركعتين ، فإنَّ هَاهُنا وُلد أخوك عيسى عليه السلام] ألم يكن لسيِّدنا موسى قبر معروف مرَّ به النبيِّ ﷺ وصلَّى عنده ركعتين ؟ وهو القائل : [مررت ليلة أسري بي على موسى وهو قائم في قبره يُصلِّي] رواه البخاري ومُسلم ، ويكفي أنَّها قبور معروفة للملائكة وبالتالي للأنبياء .

١١) افتح كتاب الله واقرأ هذه الآية : ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ

أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً {٢١} ﴾ الكهف ، إذا تدبَّرنا هذه الآية تأكد لنا أنَّ البنيان على قبور الصالحين مشروع بدليل أنَّ الله لم يُعقِّب على هذه الآية باستنكار رأي من أرادوا أن يتَّخذوا عليهم مسجداً ، بل كان قولهم هذا دليل على إيمانهم بالله هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنَّ الرأي الآخر وهو رأي من قالوا : ﴿ ... ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً ... ﴾ سواء أكان رأي مؤمنين أم غير مؤمنين يدُّل على أنَّ الكافرين يؤمنون ببنيان على القبر مُحافظة على حُرمته ، وإن كانوا مؤمنين فهم مؤمنون أيضاً بإقامة بنيان على قبر الصالح ، فكلا الرأيين سواء أكان الطرفان مؤمنين أم أحدهما مؤمن والآخر كافر فقد كان الإجماع على فعل واحد هو إقامة بنيان على قبور الصالحين أهل الكهف ، سواء أكان هذا البنيان مسجداً أم مجرَّد بنيان كأضرحة الصالحين في غير مسجد ، وهذا دليل قرآني حاسم يؤكِّد مشروعيَّة إقامة بنيان على قبر الرجل الصالح سواء أكان مسجداً أم غير مسجد كالأضرحة المنتشرة في أرض مصر التي هي في رباط إلى يوم القيامة ، وستظلُّ مأوى الصالحين أحياءً ومنقولين .

١٢) هناك في فلسطين قبور إبراهيم وإسحَق ويعقوب ــ عليهم الصلاة والسلام ــ وعلى هذه القبور معبد وقبَّة ، وفي بيت المقدس قبور الأنبياء داود وسليمان ويوسف وموسى ــ عليهم الصلاة السلام ــ وقد أُمِر سيِّدنا موسى بنقل رُفات سيِّدنا يعقوب

ورُفات سيِّدنا يوسف من مصر إلى بلد الخليل إبراهيم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ والرُفات أي الحُطام أو العظام ، وقد يسأل أحدهم : وكيف ذلك وقد ذكر لنا النبيُّ محمَّد ﷺ أنَّ الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ، وسيِّدنا يوسف وأبوه سيِّدنا يعقوب نبيَّان ـ عليهما السلام ـ ؟ فكيف لا يبقى منهما إلا الرُفات ؟ والإجابة على ذلك هي أنَّ في اللغة العربيَّة العظيمة ما يُعرف بالمَجَاز المُرسَل ومعناه : إطلاق اسم الجزء وإرادة الكُل ، مثل ما يقول أحدهم لآخر قوي : خذ بيدي ، واليد جزء ويقصد أن يأخذ به كلَّه حتَّى يُخْرِجه من حفرته ، كذلك المقصود برُفات أي نبيٍّ أي جسده كُلَّه ، والله أعلم . وعلى قبر داود ذاته بناء ، ولم يذكر أحد أنَّ أحداً من الخلفاء الراشدين أمر بإزالة هذه الأبنية ، فما معنى ذلك يا قوم ؟ بل إنَّ بجوار الكعبة المشرَّفة عشرات من قبور الأنبياء نقلاً عمَّا رواه الإمام المحدِّث أبو داود في سننه التي شرحها كبار علماء السُبْكيَّة ، جاء عن رسول الله ﷺ : [ما بين زمزم والحطيم تسعون نبيَّاً موتى] ويفسِّر رسول الله ﷺ سبب وجودهم من شتَّى البقاع في البيت الحرام بقوله : [عندما أهلك الله أقوامهم كانوا يرحلون لأوَّل بيت وُضِعَ للناس حتَّى إذا انتهى الأجل ، كلٌّ منهم دُفن حيث قُبض] يؤيِّد ذلك قوله ﷺ : [نحن معشر الأنبياء نُدفن حيث تخرج أرواحنا] ولقد جاء في عدَّة أحاديث وأخبار أنَّ من الأنبياء المدفونين بين زمزم ومقام إبراهيم نوحاً وهوداً وصالحاً وشُعيباً ، ولو كان وجود قبورهم مُنكراً

لأخرج رسول الله ﷺ أجسادهم التي حُرِّم على الأرض أن تأكلها ودفنهم خارج المسجد الحرام ، ولا شكَّ أنَّ جميع الأنبياء وكذلك الصدِّيقين والشهداء والصالحين يَحْيَون حياة برزخيَّة ويُصلُّون في قبورهم ، هذا ما قرأته في كُتب العلم وأكاد أنقله إلى هذا الكتاب كما هو بخصوص هؤلاء الأنبياء ــ عليهم وعلى خاتم النبيِّين أفضل الصلاة والسلام ــ .

١٣) لو صحَّ أنَّ النبيَّ ﷺ بَعَثَ مَن يُسوي القبور بالأرض ، فقد كانت قبور أعيان المشركين التي رفعوها بهواهم فوق سطح الأرض تمييزاً لهم ، مُضافاً إلى تماثيلهم المرتبطة بقبورهم ، بينما قبور الأولياء في أنحاء الأرض والتي هي آلاف بل ملايين الأضرحة التي هي روضات من رياض الجنَّة مرفوعة بالإيمان والعلم ، وهي رموز هذه الرِّفعة وهذا الشرف ، ألم يقل لنبيِّه ﷺ : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ {٤} ﴾ الشرح ، ويقول : ﴿ ... يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ... {١١} ﴾ المجادلة ؟ وأنا لا أقول : إنَّ الله رفع ذكراهم بالطوب والأحجار ، وإنَّما إظهار قبورهم وقبابهم يُشير إلى ذلك ، وعلينا أن نُحسن الظنَّ بهم ، ولا شكَّ في أنَّ الله هو الذي يُولِّد الحبَّ في قلوب الناس المؤمنين للأولياء ؛ لأنَّ الله ينادي في السماء : أنَّه يُحبُّ فلاناً فأحبُّوه ، ولا يمتدُّ الحبُّ والتوقير للرجل الصالح إلا بتذكُّره وبإيجاد الله بما يُذكِّرنا به ، والدليل على ذلك أنَّ الله قضى برفع قبر نبيِّه ﷺ في الدنيا ومقامه المحمود ينتظره في الآخرة ، نعم

هناك وسائل كثيرة لرفع ذكر الصالحين ولكــن أضــرحتهم هــي الإشارة الماديَّة الملموسة التي تُعرِّفنا وتذكرنا وبخاصَّة أنَّنا ليس كلّنا متعلِّمين أو قارئين ، ولا تقل يا هذا : وما أدرانا أنَّ صاحب هذا الضريح ــ مثلاً ــ صالح ؟ فإنَّ هذا يتنــافى مــع الإيمـــان بالغيب ، وأيُّهما أحسن سلوكاً وأكثر اطمئناناً أن أُسيء الظنَّ في كُلِّ شيء أم أُحسن الظنَّ في الصالحين ؟ ثمَّ إنَّ الله يتعامل مــع الناس حسب نيَّاتهم ، وإذا كان العائق لهذا الذي يُسيء الظنَّ في الصالحين فلا يزورهم هو كونه لا يدري أصاحب الضريح صالح أم غير صالح ، فهل يشُكُّ في السيِّدة زينب بنت بنت رســول الله ﷺ ومن هنا لا يقوم بزيارتها ؟ أم الذي يمنعه خُبْث آخر ؟ ثمَّ لو أخذنا برأي هؤلاء فرفعنا المعــاول لهــدم الأضــرحة والقبــاب وتسويتها بالأرض كما فعل المؤمنون الأوائل بقبور المشركين لا المؤمنين ، ومحونا معالِم الأمَّة المسلمة التــي تُــذكِّرنا بتــاريخ عميق ناصع طاهر ، ماذا يحدث ؟ ألا نكون بذلك أشعلنا فتنـــة ؟ ألا نكون بذلك جلبنا على أنفسنا لعنة الله ؛ لأنَّ الفتنة نائمة لعن الله مَنْ أيقظها ؟ ألم نشبع من لَعَنَات التفرُّق والتمــزُّق والنفـــاق والشقاق وسوء الأخلاق التي جلبتها لنا هذه الآراء الشاذَّة وهذه الدعوة المتنطِّعة ؟ أليست هناك قُبَّة خضراء فــوق ضــريحه ﷺ ومعه صاحباه ــ رضي الله عنهما ـــ ؟ أليســت هنـــاك قبـــاب بالآلاف وبالملايين فوق أضرحة ذريَّة النبيِّ محمَّد ﷺ فـــي كُـــلِّ مكان ؟! قِباب وأضرحة لا تُعدُّ ولا تُحصى تشرَّفت بهـــا هـــذه

الأمَّة ، مع ملاحظة أنَّ الضريح والقُبَّة ما هما إلا الإشارة التي أمر النبيُّ ﷺ بوضعها على القبر للتعرُّف على صاحبه وللمحافظة على حُرمته ، أمَّا القبر نفسه فهو في العُمق وله أحكامه الشرعيَّة المعروفة ، أمَّا عن الإشارة فقد تتضاءل وقد تكبر حسب الحال ، ألم يكن الرسول ﷺ يخطب إلى جذع نخلة ثمَّ تطوَّر الأمر لخدمة الغاية ، وهي رؤية المستمعين للخطيب ووصول صوته إليهم — إلى منبر من الخشب له درجات ثلاث ، ثمَّ تطوَّر إلى ما نراه اليوم من ارتفاع للمنبر ؟ فهل يجوز لجماعة مُتنطِّعة تخرج فتُحَرِّم المنابر في المساجد وتعود بنا إلى جذع النخلة ؟ ألا يكون من العبث والفتنة أن تُنادي جماعة — مثلاً — بتحطيم هذه المنابر المرتفعة ؟ أليست المناداة بهدم الأضرحة والقباب أشدُّ فتنة وأكثر عبثاً وأجلب للعنة الله ؟ لأنَّ مثل هذا التنطُّع ومثل هذه الدعوات الضالة بحُسن ظنٍّ وبسوء ظنٍّ وبتطبيقها إيقاظ لفتنة نائمة ، بل لو كانت ميِّتة لا نائمة لأحيتها هذه الدعوات الشاذَّة التي هي أشبه بحيَّات تسعى تنفث السموم هنا وهناك .

١٤) مُلخَّص ما يدلُّ على أنَّ البناء على قبور الصالحين جائز ، الواقع الذي عاشته الأمَّة في عصر الرسول ﷺ وما بعده حتَّى كتابة هذه السطور ، وسيبقى — بإذن الله — حتَّى يوم القيامة ، فما هذا الواقع ؟

أ) ما رواه الإمام المحدِّث أبو داود في سُننه التي شرحها كبار علماء السُبكيَّة ، جاء عن رسول الله ﷺ قوله : [ما بين زمزم والحطيم تسعون نبيّاً موتى] .

ب) ما حدث بشأن دفن النبيِّ ﷺ ، وقد سبق ذكره أنَّ قبره ﷺ وقبري صاحبيه ــ رضي الله عنهما ــ موجودة ملحقة بالمسجد في أوَّل أمرها ، ثمَّ أصبحت بداخل المسجد حتَّى الآن ، والبنــاء عليهــا واضح .

ت) والمسجد الأقصى كم هناك من قبــور للأنبيــاء وعليهــا البنــاء والقباب ؟ فهل هذه المساجد الخالية من أضرحة الصالحين والتي يسمونها مساجد التوحيد أفضل من هذه المساجد الثلاثة ؟!!!

ث) آلاف بل ملايين المساجد المنتشرة في أنحاء الأرض وأضــرحة الأولياء في مشارق الأرض ومغاربها بداخل هذه المساجد وفــي خارجها بقبابها التي تنافس عدد المآذن .

ج) حِجْر إسماعيل وبه قبر نبــي الله إســماعيل ــ عليــه الصــلاة والسلام ــ وقبر أمِّه السيِّدة هــاجر بــالحطيم ، وعلــى هــذين القبرين بناء على شكل نصف دائرة تقريباً ، وقيل أنَّ هذا الحِجْر من الكعبة ، وفي الحِجْر تُسنُّ الصلاة ويستحب الدعاء من الفقه على المذاهب الأربعة .

ح) ويقول الله : ﴿... وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ...{١٢٥}﴾ البقرة ، إذا كان مجرَّد الحَجَر الذي قام عليــه سيِّدنا إبراهيــــم ــ عليه الصلاة والسلام ــ ولمسه بقدميه وغاصت فيه قــدماه أَمَرَ الله بالصلاة عنده ، وحُدِّد له مكان وبنــاء علــى قـــدره ليُعرف به ، فما بالك بقبر الرجل الصالح ســواء أكــان نبيّــاً معصوماً أم وليّاً محفوظاً ؟

خ) في صحيح أبي داود وغيره أنَّ بمسجد (الخيف) عشرات من قبور الصالحين ، وقد صلى به رسول الله ﷺ والصحابة والتابعون والسلف .

د) قبر السيِّدة فاطمة بنت أسد أم الإمام علي ــ رضي الله عنهما ــ وقد دعا فيه رسول الله ﷺ ثمَّ بُني عليه مسجدٌ .

ذ) قصَّة سيِّدنا أبي بصير وهو صحابي جليل أسلمه النبيُّ ﷺ لأهل مكَّة بعد إسلامه تطبيقاً لصلح الحديبية ، ولكن تمكن من الهرب ولحق به صحابي آخر هو أبو جندل وفرَّ الاثنان من تضييق قريش عليهما ، وحِرْص النبيُّ ﷺ على الوفاء بالعهد وكوَّن الاثنان فِرقة فدائيَّة لاعتراض قوافل قريش التجاريَّة مما اضطرَّ قريش أن تستغيث بالنبيِّ ﷺ وتتنازل عن حقِّها في ردِّهما إليها بشرط عودتهما إلى النبي ﷺ والتزامهما بصلح الحديبية وعدم التعرُّض لقوافلها ، فأرسل إليهما رسول الله ﷺ للحضور ، ولكن أبو بصير فاضت روحه فما كان من صاحبه أبي جندل إلا أن دفنه وبنى على قبره مسجداً ، وعلم بذلك رسول الله ﷺ ولم يعترض ، هذا مُلخَّص ما ذكره العلاَّمة ابن عبد البر في مؤلَّفه (الاستيعاب) في ترجمة الصحابي المجاهد أبي بصير .

ر) مسجد أهل الكهف وقد أشار إليه الله في سورة الكهف وكان هناك رأي أن يُبنى عليهم بُنيان وربُّهم أعلم بهم ، وهذا أشبه بأضرحة الصالحين التي ليست في مساجد ، ولكن غلب الرأي

القائل ــ وإيمان أصحابه واضح ــ في أن يبنوا عليهم مسجداً وقد حدث فعلاً .

ز) لم يحدث أن ذكر لنا التاريخ أنَّ النبيَّ ﷺ أو خلفاءه الراشدين أمروا بهدم قبور أو أضرحة أو قباب الصالحين وبقيت كما هي ، والشاهد على ذلك قبور الأنبياء في فلسطين ، وخير شاهد أيضاً قبره هو نفسه ﷺ ومَن معه من الصحابة الكرام ــ رضي الله عنهما ــ وأكاد أن أقول : أنَّ من السُنَّة وجود قبر الرجل الصالح بجوار المسجد بل بداخله ، وهذا ما فعله الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ بخصوص قبر النبيِّ ﷺ وصاحبيه ــ رضي الله عنهما ــ بل ما لفت نظري اقتراح بعض الصحابة بدفنه ﷺ بجوار المنبر في أوَّل الأمر ، ولم يعترض على هذا الاقتراح أحد من بقيَّة الصحابة ، ولم يعترض عليه أحد ممَّن جاءوا بعدهم ، وكيف يعترض التابع على المتبوع ؟ واقترح ذلك بعض الصحابة قبل أن يأتي الصدِّيق أبو بكر ﷺ ويذكر ما قاله له رسول الله ﷺ بشأن دفنه ﷺ في حجرة السيِّدة عائشة ــ رضي الله عنها ــ المفتوحة على المسجد ، وقد يكون بعض الصحابة تذكَّروا قول النبيِّ ﷺ بشأن الروضة الشريفة ، وأنها تقع بين بيته حيث دفن ومنبره ، وبذلك اكتملت الصورة وظلَّت الروضة مجال رحمة للمؤمنين بعد موته ، وتحقَّقت إشارات النبيِّ ﷺ بأنَّ قبره هو الروضة الأصليَّة للسراج المُنير ، وأشعَّتها ممتدَّة إلى منبره بل مُنتشرة في أنحاء الأرض ، فما من قبر رجل صالح إلا وهو

روضة من رياض الجنَّة ، وبجوار قبره امتدادها ، لأنَّهم قوم لا يَشقى بهم جليسهم أحياءً في الدنيا وأحياءً في البرزخ .

خامساً :

وممَّا قرأته من فتاوى السابقين من أئمَّة الفقه وما سطَّره علماؤنا العاملون المعاصرون والسابقون في كتبهم وكتاباتهم حول إباحة وجواز واستحباب البناء على قبور الصالحين ، وهذا ما أخذته من بطون كتب العلماء العاملين :

١) في مصنَّف ابن حزم المسمى (المحلَّى) : ذكر : (أنَّ بناء بيت أو قائم على القبر ليس مكروهاً) وهذا يعني أنَّه يجوز بناء مكان عبَّر عنه بكلمة ــ بيت ــ على القبر أو بجواره للجلوس فيه للذكر وللدعاء وللاستراحة وحتَّى يأنس الزائر والمزور .

٢) وفي كتاب (الفروع في فقه الحنابلة) ذكر ابن مفلح تلميذ ابن تيمية أنَّه : (لا بأس ببناء قبَّة وبيت على القبر) وهذا قول ابن القصار وجماعة من المالكيَّة أيضاً ، وقد حكى ذلك الخطَّاب في شرح المختصر ، وشيخنا الحافظ أبو الفيض السيِّد أحمد ابن السيِّد أحمد الصدِّيق الغماري قد علَّق على ذلك بقوله : (وهذا في حقِّ عامَّة الناس ، وأمَّا الأولياء والصالحون ، فنصَّ جماعة على استحباب البناء ، والقبَّة في حقِّهم رعاية لحرمتهم وحفظاً لقبورهم من الامتهان الذي يتعذَّر معه الانتفاع

بزيارتهم ، وهذا يعني تهيئة المكان المريح عند القبر والبناء فوقه حتّى تتيسَّر زيارته والمحافظة عليه .

٣) وأفتى عالِم من علماء المالكيَّة وهو ابن حمدون : (أن البناء على القبر بقصد تعظيم من يُعظَّم شرعاً جائز) ذكر في شرحه منظومة ابن عاشر – الجزء الثاني ص٧ – ، *وتعليقي على ذلك* : أنَّه ربَّما يهُبُّ أحدهم ويحتجُّ على قول الشيخ العالِم عبارة : (... تعظيم من يُعظَّم ...) ويترجم هذه العبارة على أنَّها تقديس للصالح بل وعبادة له ، ويخلص من ذلك أنَّ هذا ما يخشاه هؤلاء وهو عبادة الأوثان بتعظيم أصحاب القبور ممَّن يسمونهم الناس أولياء أو صالحين ، فأقول له : هوِّن على نفسك وخفف من غضبك خشية أن يُصيبك مكروه ، ألم يمدح الله الذين يُعظِّمون شعائره بدليل قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ {٣٢} ﴾ الحج ، ويعظِّمون : أي يوقرون كلَّ ما يُذكِّرهم بالله سواءٌ أكان مكاناً أم زماناً أم حالاً ، فالأماكن المقدسة كالكعبة ، والأزمنة المباركة كيوم عرفة ، والأحوال المرضي عنها وهي كلُّ أحوال الأنبياء وبعدهم الأولياء ، وأعظم حال هو حال خاتم النبيِّين صلى الله على جميع أنبيائه ، ورضي الله عن جميع أوليائه وأفضل الصلاة والسلام على سراجهم المنير ، فهُم مصابيح نوره وأوعية بركته في حياتهم وفي برازخهم ، وهم نجوم ومصابيح جعلها الله رجوماً للشياطين ، والإشارة لذلك

ما يحدث فعلاً لكلِّ شيطان يحاول لمس السماء الـدنيا ، فإنَّـه يجد أنَّها مُلئت حرساً شديداً وشُهُباً ، فالشهادة إشارة ، والغيب مُشار إليه ، ألم نُؤمَر بزيارة القبور عموماً وقبور الصـالحين خصوصاً ؛ لأنَّها تُذكِّرنا وتُشعرنا بالآخرة وبلقاء الله وتشـوقنا إليه ؟ كذلك ما شرعه الله لنا من عبادات هي من شعائر الله ، والواجب تعظيمها والمحافظة عليها ، أليس المصـحف وهـو شيء من الورق يحمل الكلام المنسوب إلى الله ، حين نتعامـل معه يجب أن نتعامل معه بـالأدب والتـوقير والتعظـيم ، ولا نحمله إلا في الأماكن الطاهرة ، أليس هذا تعظيماً لِمَا عظَّمـه الله ولمن عظَّمه الله ؟ ألم يَرِدْ عن النبيِّ ﷺ أنَّ حُرمة المؤمن أعظم من حُرمة الكعبة ، وحُرمته في حياته وبعد مماته ، وإنَّ الإنسان الصالح في روحه من سرِّ القرآن ، وفي قلبه من نور القرآن ، وفي عقله من علم القرآن ، وفي جسده مـن عمـل القرآن ، وفي لسانه من كلمات القرآن ، فكم يكون عظيماً لِما شرَّفه الله به من حال مرضيٌّ عنه ، ولقد سُئل أحد العارفين : لماذا تجعل الناس يتمسَّحون بك ؟ قال إنَّهم لا يتمسَّحون بي ، إنَّما يتمسَّحون بحِلْية حلاَّني الله بها ، فطوبى لِمَـن أبصـر ، وويلٌ لمن لا نور في قلبه ، ولقد علَّم الله أولياءه ـ أي جعـل لهم علامة ـ فقال : ﴿ ... سِيمَاهُمْ فِي وُجُـوهِهِم مِّـنْ أَثَـرِ السُّجُودِ ... {٢٩} ﴾ الفتح .

٤) وفي حاشيته نجد الفقيه المحقِّق ابن عابدين قد أجاز البناء على القبور ، مستدلاً بما نقله عن (جامع الفتاوى في الأحكام) ونصُّه: (ولا يُكره البناء إذا كان الميِّت من المشايخ والعلماء) *وتعليقي على هذا هو قولي* : أليست هذه إشارة إلى أنَّ المشايخ والعلماء والشهداء وقبلهم الأنبياء قضى الله أن يرفع لهم ذكراهم ، وأخذ كلٌّ واحد منهم نصيبه من الخطاب الإلهي الشريف لنبيِّه : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ {٤} ﴾ الشرح ؟ وما الضريح أو القُبَّة أو إلحاقه بالمسجد وجريان اسمه على ألسنة المؤمنين ولو بالوقوف لقراءة الفاتحة إلا من ميراثه من جدِّ الأتقياء ﷺ .

٥) روى الإمام البخاري في صحيحه على وجه الجزم والثقة أنَّ فاطمة بنت الحسين بن علي ﷺ نصبت قبَّة على قبر زوجها الحسن بن الحسن بن علي ﷺ ، وأقامت فيها سنة تقيم فيها فرائض الصلوات ونوافل العبادات وذكر وتلاوة مع أهلها ، وكان في عصر فقه وعلى مرأى من العلماء ولم يُنكر عليها أحد ، وهذا دليل على جواز ذلك ، والقبَّة على القبر بمنزلة المسجد عليه .

٦) وقال الفقيه ابن مفلح تلميذ ابن تيمية في مؤلَّفه (الفصول) : (والقبَّة والبناء المحيط على القبر أو الحظيرة على القبر إن كان في ملك الميِّت فعل وليُّه ما شاء ، وإن كان في أرض موقوفة كُره كراهة تنزيه لا تحريم للتطبيق على ما وُقفت

عليه) وفي فتاوى العلامة ابن قدَّاح قوله : (إذا جُعل على قبر من أهل الخير علامة فهو حسن كالبناء الخاص) .

٧) قال العلامة علي بن أحمد الحداد في مؤلَّفه (مصباح الظلام): (من قال تكفير البلد ــ أي أهلها ــ الذي فيه قباب وأنَّ القباب كالأصنام ، فهو تكفير الأوّلين المتقدِّمين والمتأخِّرين من الأكابر والعلماء والصالحين وفي ذلك مخالفة للإجماع السكوتي على من سبق من الأنبياء والصالحين) .

٨) وفي شرح النُوبشتي على كتاب (المصابيح) قوله : (وقد أباح السلف البناء على قبور العلماء والمشايخ الصالحين يزورها الناس ليستريحوا بالجلوس في البناء بتلاوة القرآن ، فتكون مثل الرباطات والمساجد) .

٩) ذكر الحكيم الترمذي في كتاب (نوادر الأصول) : (أنَّ السيِّدة فاطمة الزهراء ــ رضي الله عنها ــ كانت تأتي قبر سيِّد الشهداء الصحابي حمزة ﷺ في كلِّ عام فترمَّه ، يعني تُصلح ما تهدَّم منه حتَّى لا يزول أثره فيخفى على زائره) *وتعليقي على هذا* : ألا يدلُّ ذلك على أنَّ فكرة منع البناء على القبور لم تكن موجودة في العصر النبويِّ ، بل كان الواجب العناية بها لتبقى .

١٠) سُئل الشيخ المسناوي في (مسائله) عن : البناء على قبر الرجل والمرأة ممَّن ترجى بركتهما في الحياة وبعد الموت ؟ فأجاب : (إنَّ البناء على قبور الصالحين بقصد التبرُّك

والتمييز وحفظ الحرمة جائز بل مطلوب ، لِمَا ذكره بعض المحقِّقين : أنَّ فيه جلب مصلحة الانتفاع بالصالحين ودفع مفسدة امتهانهم بالحفر أو المشي ، إذ لولا البناء لاندرست ــ أي اختفت ــ قبورهم فتبطل زيارتهم ، وزيارة القبور مطلوبة شرعاً) .

١١) قال الشيخ عبد القادر الفاسي : (ولم يزل الناس يبنون على مقابر الصالحين والأئمَّة شرقاً وغرباً كما هو معلوم ، وفي ذلك تعظيم حرمات الله واجتلاب مصلحة عباد الله لانتفاعهم بزيارة أوليائه ، ودفع مفسدة المشي والحفر والمحافظة على تعيين قبورهم وعدم اندراسها ــ أي عدم خفاء أثرها ــ .

١٢) أفتى الحافظ السيوطي : باستحباب البناء على قبور الأولياء والصالحين ولو كانت في الأرض المحبسة (أي الموقوفة) ، وقد ذكر ذلك في بحثه (بذل المجهود) ووافقه جماعة من فقهاء الشافعيَّة .

معلومة { ٤ } :

يا ولدي هذه المعلومة متعلِّقة بالمسألة الرابعة وهي حول زيارة الأولياء والتوسُّل بهم إلى الله ، أمَّا عن زيارة أضرحة الأولياء فهذه مشروعة بإجماع العلماء ؛ لأنَّ زيارة القبور في الأصل سنَّة فعلها رسول الله ﷺ وأمر بها ، وإذا كان قد أمر بزيارة القبور عموماً ، فما بالك بزيارة قبور الصالحين وزيارة من لهم عليك حقٌّ وحقوق ؟ وللصالحين وعلى رأسهم قمَّتهم خاتم النبيِّين ﷺ حقوق

على كلِّ مسلم ، ولذلك حثَّ في أحاديث كثيرة علـــى زيـــارة قبـــره ومسجده حيث روضته الشريفة ، وكيف يحضُّ على زيارتـــه مـــثلاً ويمنع زيارة صاحبيه أو زيارة بنت بنته السيِّدة زينب ــ رضـــي الله عنها ــ أو زيارة أي من يُحسن الناس الظنَّ في تقـــواه ، إذاً مبـــدأ رفض زيارة الصالحين بحجَّة المحافظة على التوحيد مرفوض ، وقد ضلَّ به الكثيرون ونجـــا منـــه المبصـــرون ، فـــرحمهم الله بحـــبِّ الصالحين ، وقد ذكرت في المعلومة الثالثة أدلَّة كثيرة تحـــثُّ علـــى الزيارة فارجع إليها ، وما ذكر النبيُّ ﷺ أنَّ الركعة في مسجده بألف ركعة إلا ليحضَّ على زيارته وزيارة صاحبيه ، ومن هـــذه الزيـــارة تنطلق الزيارات لكلِّ الصالحين ، لأنَّ النسب الذي يربط الجميع هـــو نسب التقوى وأكرمُنا أتقانا ، وأتقانا هو خاتم النبيِّن ﷺ ، ولقد كان تحديد مكان معين فيه قبره ﷺ ومعه صاحباه بداية خير ينتشر فـــي أنحاء الأرض في صور أضرحة وقباب مرفوعة تـــذكرنا وتنشـــطنا وتشوقنا لسلوك الصلاح والتقوى ، وكأنَّها شجرة أصلها ثابت فـــي المدينة المنورة ، وفروعها تمتدُّ هنا وهناك شرقاً وغرباً ، تَبَّتْ يَـــدٌ امتدَّت لقطع فرع منها ، وما بقاء أصلها وجذرها فـــي المدينـــة إلا لتبقى هذه الشجرة بفروعها التي ستظلُّ تمتدُّ وتتفرع ، وتؤتي أكلها كلَّ حين بإذن ربِّها ، فهيهات هيهات أن تستطيع يدٌ مهما توهَّمت أنَّ لها طولاً أن تمحو هذه الشجرة الطيِّبة الثابتة الصاعدة من الوجود ، وإذا كان هذا هو قضاء الله وحكم الله وعدل الله ورحمة الله ، فمـــن ذا الذي يستطيع أن يمنع الزيارة لأضرحة الصالحين ؟ إنَّ المســـاجد

والمآذن والقباب هي الإشارات الماديَّة المحسوسة التي تقول بلسان حالها : (هنا دين الله الذي قضى الله بإظهاره على الـدين كُلِّـه) تجوَّل يا ولدي في أنحاء الأرض ، هل هنـاك أمَّـة رفـع الله ذكـر صالحيها معنوياً ومادياً مثل هذه الأمَّة التي هي خير أمَّـة أُخرجـت للناس ، والتي في الوقت نفسه أُبتليت بقرن الشيطان الذي يحـاول أن يهدم بقرنه الجهول الظلوم إشارات إظهار هذا الدين ، وإنَّ هـذه الأمَّة أمَّة ولود تُنجب في كلِّ عصر بل في كلِّ يوم ، وبخاصَّـة فـي مصر مَن سيماهم في وجوههم من أثر السجود ، ومن يرفع الله ذكر بعضهم كإشارة إلى الجميع في صورة أضرحة هنا وهناك يقصـدها المُخلِّصون الموحِّدون بالزيارة فيتجدَّد إيمانهم وشـوقهم ، وأقـول للمعترضين : أدعوا الله لكم أن يكون اعتراضـكم مجـرَّد اجتهـاد مخطيء ، وهذا ظنِّي في أكثركم ، وأن لا تكونوا أدوات بعلمكـم أو بغير علمكم لجهات خفيَّة تعمل في الظلام لعلَّها تسـتطيع أن تطفـئ نور الله نور الإسلام : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّـهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ {٨} ﴾ الصف ، والحقيقة أنَّ الذي يتَّخذ إلهه هواه يحاول أن يستدلَّ على صدق وصحَّة رأيه بآيات وأحاديث يفسرها بهواه حتَّى تمشي تبعاً لهواه لا تبعاً لِما جاء به رسـول الله ﷺ ، والمعترضون يذكرون دائماً حديثاً مشهوراً وصحيحاً ويحتجُّون به لتأييد رأيهم في حُرمة زيـارة الأضرحـة وهذا الحديـث هـو : [لا تشُدُّوا الرِحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، مَسجدي هذا ، والمسـجد الحرام ، والمسجد الأقصى] رواه أبو سعيد الخـدري ﷺ بصـحيح

مسلم[١]، وحديث مروي عن أبي هريرة ﷺ في صحيح مسلم أوّله لا تُشَدُّ ، وهذا الحديث الذي يستدلُّون به على حُرمة زيارة أضرحة الصالحين ، لو نهى الواحد منهم نفسه عن الهوى لاكتشف بجلاء أنَّه يَحُثُّ على زيارة الصالحين ولا يمنعها كما يزعمون ، ألم يسأل أحدهم نفسه سؤالاً هو : لو كان المسجد النبويُّ خالياً من قبر النبيِّ ﷺ أو منفصلاً عن هذا القبر أكان النبيُّ ﷺ يجعله من بين المساجد التي تُشَدُّ إليها الرحال ؟ أليس هذا المسجد فيه الروضة الشريفة بين بيته ـ حيث قبره ـ وبين منبره ﷺ ممَّا يؤكِّد الصلة بين المسجد حيث المنبر ، والقبر حيث الذات الشريفة ؟ ألم يسألوا أنفسهم هذا السؤال ؟! ماذا كان سيحدث لو لم تكن هذه الصلة بين المسجد وقبره الشريف ﷺ ؟ ثمَّ لماذا قال النبيُّ ﷺ في الحديث مُشيراً إلى هذا المسجد : [... مسجدي هذا ...] ؟ أليست المساجد لله لقول الله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً {١٨} ﴾ الجن ؟ لماذا قال ﷺ : [... مسجدي هذا ...] ؟ والجواب : هو أنَّ كون المساجد بيوت الله ، أي من أجل عبادته والسجود له وحده ، فهي متساوية في كونها كلّها لله ، لا يُعبَد فيها غيره ولا يُسجد فيها لأحد سواه ، وهي تتفاضل حسب ما فيها من روضات الجنَّة وبخاصَّة روضات قبور الصالحين ، فالمسجد الأقصى فيه أكثر الأنبياء السابقين وحوله وفي فلسطين عموماً ، ومسجد المدينة المنورة منسوب للنبيِّ ﷺ بدليل قوله ﷺ : [... مسجدي هذا ...] وصلته بقبره حيث ذاته الشريفة واضحة فيه ، وكأنَّ النبيَّ

ﷺ بإشارته هذه كأنَّه ينبئنا أنَّ صلة المسجد بالصالحين سُنَّة ، وأنَّ مكانة المكان تعلو بنسبته لله أوَّلاً ، وتزيد بركته بقدر ما فيه من روضات ؛ لأنَّه كلَّما تعدَّدت الروضات وكثرت ، كثرت ملائكة المكان ، فأحسَّ الزائر والمُصلِّي ببركة هذا المسجد الذي حظي عن غيره بمجلس عِلْم عالِم عامِل ، وحظي عن غيره بمجلس ذكر للخاشعين بذكر الله ، وتميَّز عن غيره من المساجد بروضة رجل صالح فازدادت بركته ، والمسجد الحرام منسوب لله مباشرة وهو أوَّل بيت وضع للنَّاس ولذلك يُسمَّى بيت الله الحرام ، فهو آدم المساجد ، وهو أيضاً لا يخلو من قبور الصالحين ، وفيه عشرات الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ وقبر سيدنا إسماعيل ــ عليه الصلاة والسلام ــ وقبر أمِّه هاجر ــ رضي الله عنها ــ معروفان بالحِجر أي حِجر إسماعيل ، وهما بجوار الكعبة ، كما أنَّ في المسجد الحرام مقام إبراهيم ــ عليه الصلاة والسلام ــ وكلُّها اماكن تُقصد للزيارة والصلاة فيها ، وإذا كان النبيُّ ﷺ خصَّ هذه المساجد بهذا الحديث ؛ فلأنَّ الركعة في المسجد الحرام بمائة ألف ركعة ، والركعة في مسجد النبي ﷺ بألف ركعة ، والركعة في المسجد الأقصى بخمسمائة ركعة فيما سواهم ، وقد أَخَذَت هذه المساجد الثلاثة هذا الشرف لاتساع روحانيتها وكثرة بركاتها لنسبتها أوَّلاً لله وبخاصَّة المسجد الحرام حيث توجد الكعبة ومقام إبراهيم ومقابر عشرات الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ ، ولعلَّ ما ذكره النبيُّ ﷺ في هذا الحديث إشارة واضحة إلى أنَّ أي مسجد تُشدُّ إليه الرحال

حسب أفضليَّته وما يتميَّز به ، وهذا الحديث لا يمنع شدَّ الرحال لمساجد أخرى كمسجد قباء ، أو شدَّ الرحال لأي عمل شريف مثل : الجهاد في سبيل الله أو في طلب العلم أو في صلة رحم أو في كسب رزق حلال وهكذا ، ثمَّ إنَّ هذا الحديث يشير فقط إلى أفضليَّة هذه المساجد اليقينيَّة ، ولم يُغلق الباب لزيارات أخرى لمساجد أخرى ميَّزها الله مثل : مسجد قباء – كما ذكرت – فلماذا يحاول البعض ظلماً وتنطُّعاً أن يجعلوه نَهْياً عن زيارة الصالحين ؟ مع أنَّ أفضليَّة هذه المساجد كانت لصلتها بالصالحين ، فكأنَّ الحديث بطريقة غير مباشرة يدعونا لزيارة الصالحين ولزيارة الأماكن التي لها صلة بالصالحين ، أو فيها أثر من آثار الصالحين كمقام إبراهيم مثلاً ، وقد أمرنا الله في كتابه أن نتَّخذ من مقام إبراهيم مُصلًّى فقال تعالى: ﴿ ... وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ... {١٢٥} ﴾ البقرة ، فإذا كان الحَجَر الذي قام عليه سيِّدنا إبراهيم بقدميه الشريفتين في أثناء بناء الكعبة نتَّخذ منه مُصلى ، فكيف ينهى هؤلاء عن زيارة صاحب القدم ؟! وكل أقدام الأنبياء والأولياء أقدام صِدْق يَشْرُف العبد بالسعي إليهم وزيارتهم ، ومادُمت قد ذكرت مَقام إبراهيم وأنَّ الله قد أمرنا أن نتَّخذ منه مُصلى بنصِّ القرآن ، فلا بُدَّ أن ألفت النظر إلى أنَّنا إذا ما اتَّخذنا من مَقام إبراهيم مُصلى لا يعني أنَّنا نسجد لسيِّدنا إبراهيم أو لقدم سيِّدنا إبراهيم أو لأثر قدمي سيِّدنا إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – ، كذلك إذا صلى المسلم في مسجد فيه ضريح أو بجوار ضريح فالسجود لله وحده ، بدليل أنَّ الله أمرنا أن نتَّخذ من

مقام إبراهيم مُصلى ، فهل يدعونا الله إلى السجود لسيِّدنا إبراهيم ــ عليه الصلاة والسلام ــ أو لقدمه أو لأثره ؟! أم أنَّ المعنى أنَّ آثار الصالحين فيها من البركة ومن النور وما حولها من الملائكة ما تُجلِّي فينا النور وينشِّط في صدورنا الشوق إلى الحقِّ حتَّى نزداد عبوديَّة لله وسجوداً له وحده لا شريك له ، فلو كانت الزيارة لقبور الصالحين ممنوعة ــ كما يقول هؤلاء ــ لَمَا أمرنا رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة – ذكرتها في المعلومة الثانية – بزيارته والتي وردت قبل ذلك ، وما أعْرَض مَن أعْرَض عن زيارة الصالحين مُشتغلاً بالصدِّ عن زيارتهم إلا لأنَّ الصالحين رافضون لزيارته ، ولماذا هم رافضون لزيارته غير راغبين لاستقباله ؟ لأنَّه مُعْرِض عن ذكر الله وعن الذاكرين لله ، وصدق الشاعر الحكيم الذي نطق بلسان حال الصالحين فقال :

أيُّها المُعرِضُ عنَّا	إنَّ إعراضك منَّا
ولو شِئْنا جعلنا	كُلَّ ما فيك يُردنا

ألم يمر خاتم النبيِّين ونور الموحدين ﷺ ليلة الإسراء والمعراج على قبر سيِّدنا موسى ــ عليه الصلاة والسلام ــ وصلى عنده ركعتين وقال : [مررت ليلة أُسري بي على موسى وهو قائم في قبره يُصلي] رواه البخاري ومسلم ، وقوله : [الأنبياء أحياء في قبورهم يُصلُّون] رواه البيهقي وغيره بأسانيد صحيحة ، وفي حديث آخر صلى ركعتين عند قبر الخليل إبراهيم ــ عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام ــ ، فكيف يأمرنا النبيُّ ﷺ وينصحنا ويُرغِّبنا في

زيارته هو ﷺ ، ثمَّ ينهى هؤلاء عن زيارة الصالحين ، والصالحون من ذريَّته ؟! ألم يكن ﷺ يزور أهل البقيع دائماً ؟! أليس هذا يعني أنَّ زيارة قبور المسلمين عامَّة والصالحين خصُّوصاً سُنَّة ؟! أليست مخاطبتنا لهم في قبورهم بالسلام عليهم دالَّة على وجودهم وعلى أنَّهم أحياء يسمعوننا ؟! فما بالك بصالحيهم من الأولياء ؟! ولماذا يسمع الأموات وبخاصَّة الصالحون مَنْ يُسلِّم عليهم من أهل الدنيا بينما لا يسمع المُلقي للسلام ردَّهم ؟! لأنَّ الأموات قد كُشِفَ عنهم غطاؤهم قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ {٢٢} ﴾ ق ، ألم يقل الله في كتابه : ﴿ ... وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً {٦٤} ﴾ النساء ، هل في الآية إشارة إلى المجيء إليه حيّاً أو ميّتاً حتَّى يقيِّدها هؤلاء بحياته الدنيويَّة فقط ؟! ألم يرد على لسانه ﷺ أنَّ أعمالنا تُعرض عليه فإن وجد خيراً حمد الله ، وإن وجد شرّاً استغفر لنا الله ؟! وقال ﷺ : [حياتي خير لكم ، ومماتي خير لكم ، تُعْرض عليَّ أعمالكم ، فإن وجدت خيراً حمدت الله لكم ، وإن وجدت غير ذلك استغفرت الله لكم] من كتاب (حقيقة التوسُّل والوسيلة) رواه البزار بسنده عن ابن مسعود ﷺ ، بل ذَكَرَه الإمام ابن تيمية في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم) وقال : (وإنَّ كثيراً منهم سمع ردَّ السلام من قبره ﷺ على المسلمين في كثير من الأوقات ، بل ثبت ذلك من سائر الموتى ، كما جاء في الأحاديث الصحيحة الثابتة) وهذا القول

مبسوط الأدلَّة في فصل (حياة الأنبياء وغيرهم في قبورهم) من هذا الكتاب ، ولاحظ يا ولدي أنَّ الشيخ يقول في كتابه (وغيرهم) فَمَنْ غيرهم إلا الأولياء ؟ بل إنَّ أعمالنا تُعرض على الأقارب الذين ماتوا ، قال رسول الله ﷺ : [إنَّ أعمالكم تُعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات ، فإن كان خيراً استبشروا به ، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهمَّ لا تُمِتْهُم حتَّى تهديهم كما هديتنا] حديث شريف مرفوع للنبيِّ ﷺ انفرد به الإمام أحمد بن حنبل ؓ ، تأمَّل يا مسلم قول الأموات في دعائهم : [... كما هديتنا] أي أنَّ الصالحين ينتفع أحياء الدنيا بدعائهم ، ويزداد انتفاعهم بدعائهم إذا كانوا حريصين على زيارتهم في برازخهم ؛ لأنَّ الأموات وبخاصَّة الصالحون يشعرون بما يفعله أحياء الدنيا من الأعمال فيدعون الله لهم بالهداية إن وجدوا ما لا يُرضي الله ، فما بالك لو أنَّ أحياء الدنيا طلبوا مودَّة أمواتهم من الصالحين بتكرار زيارتهم والسلام عليهم ، ولا تعجب يا ولدي من هذه الصِلة الوثيقة بين أحياء الدنيا وأحياء البرزخ ، وأقصد بأحياء البرزخ الذين ذاقوا الموت وفارقوا الدنيا ، فإذا هم أحياء في روضاتهم في قبورهم إذا كانوا صالحين ، وفي حُفَرِهم إذا كانوا غير صالحين ، وتأمَّل يا ولدي كلمة : ﴿ ... ذَائِقَةُ ... ﴾ في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ {٥٧} ﴾ العنكبوت ، وهذا يعني أنَّ الموت هو لحظة تذوق خروج الروح من الجسد ، وأقول : لحظة وبعدها يتحرَّر من أثقاله البشريَّة الكثيفة وينكشف عنه غطاؤه ، فإذا هو في حياة واسعة

بقدر صلاحه أو في حياة ضيِّقة بقدر فساده ، فتتضاعف حدَّة سمعه وبصره وشعوره وإحساسه ؛ لأنَّ بصره اليوم حديد ، فهو يشعر بما يحدث لمعارفه في الدنيا ، فيفرح لصلاحهم ويدعو لهم بالمزيد من الخيرات ، ويحزن لفسادهم ويطلب لهم من الله الهداية قبل موتهم ، ويأنس الأموات بزيارة أحياء الدنيا مع عرض أعمالنا عليهم فتزداد دعواتهم لنا ، فلماذا ينهى هؤلاء المُعترضون عن زيارة قبور الصالحين الذين تربطنا بهم قرابة الإيمان وهي أرقى بكثير من قرابة الدم ؟! والنفع من ورائها أضعاف.أضعاف النفع من وراء قرابة الدم وبخاصَّة إذا جمع الأموات بين القرابتين ، وأعجب كُلَّ العجب حين يحتجُّون بحديث شدِّ الرحال في النهي عن شدِّ الرحال لزيارة الصالحين ، مع أنَّ علماء المذاهب الأربعة في كتاب (الفقه على المذاهب الأربعة) القديم ، ورَد فيه أنَّ زيارة قبور المسلمين وبخاصَّة الصالحون سُنَّة ، والسفر لزيارة قبوُر الصالحين مندوبة ، ومن أعظم القُربات زيارة قبر النبيِّ محمَّد ﷺ ، ألم يسمع هؤلاء قول النبيِّ ﷺ : [من زارني مُتعمِّداً كان في جواري يوم القيامة] وغير ذلك من الأحاديث النبويَّة الصحيحة التي ذكرتها في المعلومة الثانية في الإجابة على السؤال الرابع والأربعين ، فارجع إليها يا ولدي ليَتَثْبُت لك أنَّ هؤلاء المُعترضين قد جانبهم الصواب حين اتَّهموا أكثر هذه الأمَّة التي لا تجتمع على ضلالة بالشِّرك ، بدعوى أنَّ هؤلاء المُحبِّين للنبيِّ ﷺ وذريَّته خالفوا النبيَّ ﷺ بزيارة الأضرحة والاستغاثة بالصالحين من دون الله ، فهذه تُهمة باطلة ، لماذا ؟ لأنَّ

هؤلاء المُعترضين خلطوا أو سوَّوا بين صنفين من الناس ومن الأشياء : الذين هم أولياء الله ، والذين هم من دون الله ، كذلك الأشياء منها ما هو مُقدَّس لنسبته لله ومنها غير ذلك ، وحين يخلط أو يُسوي الإنسان بين معاملة الصنفين فهذا يعني أنَّه لا يُميِّز ، فهو ليس أهلاً للفتوى ، تدبَّر يا ولدي قول الله تعالى بشأن المُشركين : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ ... ﴾ ويقول بشأن المؤمنين الموحِّدين : ﴿ ... وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ ... {١٦٥} ﴾ البقرة ، فكيف يُسوِّي هؤلاء المُعترضون بين مَنْ هم أشد حباً لله وبين مَن يُحِبُّ الأنداد من دون الله ؟! فهم مُشركون يتوجَّهون بالعبادة التي هي من حقِّ الله وحده إلى مخلوقات أو أشياء من دون الله ، إذاً قلوبهم فقدت صلتها بالله فهم مُشركون حتَّى ولو قصدوا بعبادتها لِتُقَرِّبهم إلى الله وبخاصَّة أنَّ الله لم يأمرهم بذلك ، فالمرفوض أنْ لا يكون التوجُّه بالعبادة لغير الله ، وتزيد الجريمة إذا كان المعبود من دون الله ، فقد وقعوا بذلك في جريمتين : جريمة العبادة لغير الله ، وجريمة أنَّ المعبود من دون الله ، كالذين يعبدون الأحجار وهي أشياء ليس فيها ما يُغري بعبادتها ، أمَّا إذا كان المعبود منسوباً لله كنبيٍّ أو وليٍّ فهذه جريمة كُبرى ؛ لأنَّ النبيَّ أو الوليَّ المفروض أن يتقرَّبوا إلى الله المعبود الحقِّ باقتدائهم به وحبِّهم له لا بعبادته ، فإذا أحبُّوه فلله ؛ لأنَّه نبيٌّ أو وليٌّ فلا يُسوُّون حُبَّهم لله بحبِّه ، وإنَّما يكون حُبُّهم للنبيِّ أو الوليِّ نتيجة لحُبِّهم لله فيزدادون عبوديَّةً لله وحده ، وبذلك لا يكون هناك تعارض بين حُبِّهم

لله الحقّ والذي نشأ عنه حُبُّهم لأولياء الله وترتَّب عليه زيارتهم لأضرحتهم ، أمَّا الاستغاثة بالأولياء ؛ لأنَّهم أحياء هنا وهناك إلا بقصد أنَّهم عِباد أنفاسهم طاهرة ، فإذا دعوا الله لنا استجاب وأغاثنا ، وعلَّة حُبُّنا لهم والاستغاثة بدعائهم الله من أجلنا إنَّهم أولياء الله لا أنَّهم من دون الله ، ثمَّ إنَّ عبادتنا من الألِف إلى الياء لله وحده ، فلماذا يتَّهموننا بالشرك ؟ ثمَّ إنَّهم لا يحقُّ لهم أن يتَّهموا أحداً بالشرك لعدَّة أسباب :

أوَّلاً : لأنَّه لا ينبغي لمسلم أن يتَّهم المسلمين بالشرك وهم قوم يشهدون الشهادتين ، ويقيمون الصلاة لله وبقيَّة الأركان .

ثانياً : لأنَّ هؤلاء المعترضين لم يَشُقُّوا عن صدور المسلمين حتَّى يتَّهموهم بالوثنيَّة .

ثالثاً : لأنَّ حُسْن الظنِّ والتأويل الحسن من خُلق المسلم .

رابعاً : لأنَّ من صفات المسلم الحقِّ أن يتبيَّن ويتحقَّق قبل الحُكم على أيِّ أحد .

فهم على ضوء هذه المبادئ خالفوا خُلق الإسلام والعلم الصحيح ، فيتحدَّثون عن الزيارة والاستغاثة بدون فهم مع أنَّ المسلمين المُحبِّين للصالحين لا يستغيثون إلا بالله ، فهم إمَّا أن يلجأوا لله مُباشرة بدعائهم ، وأحياناً يلجأون إلى الصالحين الذين هم أحياء في الدنيا أو في البرزخ من أجل أن يدعوا الله لهم ، فالتوجُّه في كلا الحالتين إلى الله ، فأين الشرك ؟! وحين يدعون الله قد يتوسَّلون إليه بالصالحين كما فعل النبيُّ ﷺ ، فحين ماتت السيِّدة فاطمة بنت

أسد ـــ رضي الله عنها ـــ أم سيِّدنا علي ﷺ ، والتي كانت قد خدمت النبيَّ ﷺ بعد وفاة أمِّه ﷺ ، فلمَّا فرغ من دفنها توسَّل قـائلاً : [الله الذي يُحيي ويُميت وهو حيٌّ لا يموت ، اغفر لأمِّي فاطمة بنت أسد ، ووسِّع عليها مُدخلها ، بحقِّ نبيِّك والأنبياء الذين من قبلـي ، فإنَّـك أرحم الراحمين] رواه الطبراني في الكبير والأوسط وابـن حبَّـان والحاكم ، وصحَّحوه عن أنس بـن مالك ﷺ ، وتأمَّـل يـا ولـدي قوله ﷺ : [... بحقِّ نبيِّك والأنبياء الذين من قبلي ...] أليس هذا توجُّه إلى الله مع التوسُّل بالصالحين ؟ فالمسلمون يتوسَّـلون فـي الدعاء كما كان يتوسَّل النبيُّ ﷺ ، ففي دعاء الخروج إلـى الصـلاة يقول ﷺ : [بسم الله ، آمنت بالله ، توكَّلت على الله ، لا حـول ولا قوَّة إلا بالله ، اللهمَّ إنِّي أسألك بحقِّ السائلين عليك ، وبحقِّ مخرجي هذا ، فإنِّي لم أخرج بطراً أو أشراً ، ولا رياءً ولا سُمعة ، خرجـت ابتغاء مرضاتك ، واتقاء سخطك ، أسألك أن تعيذني من النار ، وأن تُدخلني الجنَّة] رواه الحافظ أبو نعيم في (عمل اليوم والليلة) من حديث أبي سعيد ، ورواه البيهقي في كتاب (الدعوات) ، وأخرجـه ابن السُنِّي بإسناد صحيح عن بلال مؤذِّن رسـول الله ﷺ ، ألـيس قوله : [... بحقِّ السائلين ...] أليس السائلون خلقاً يسـألون الله ويتضرَّعون له فهم قوم صالحون ؟ وإذا كـان الأعلـى يـدعو الله فيتوسَّل بحقِّه وحقِّ النبيِّين من قبله ، وبحقِّ السائلين وبحقِّ مخرجه إذا خرج ولا يخرج إلا لخير ، والنبيُّون والسائلون في درجات أدنى بالنسبة للدرجة العليا ، فكيف يُحرِّم هؤلاء المُعترضون توسُّل الأدنى

بالأعلى في حالة دعائه لله ؟ وحديث الأعمى حديث مشهور لا يُنكره إلا مُكابر ، ذكره أبو العركي من حديث عثمان بن حنيف ، وقال الترمذي هذا حديث صحيح ، ورواه النسائي في (عمل اليوم والليلة) ، ومن (دلائل النبوّة) للحافظ أبي بكر البيهقي ، رواه الطبراني بإسناد صحيح ، وأخرج هذا الحديث البخاري في تاريخه ، وابن ماجه والحاكم في (المُستدرَك) بإسناد صحيح ، وذكره الجلال السيوطي في (الجامع الكبير والصغير) ، وهذا الحديث هو : جاء ضرير فشكا إلى النبيِّ ﷺ ذهاب بصره فقال : ادع الله أن يعافيني ، قال النبيُّ ﷺ : [إن شئت دعوت ، وإن شئت صبرت فهو خير لك] قال : بل ادع لي ، فأمره أن يتوضأ فيُحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : [اللهمَّ إنِّي أسألك وأتوجَّه إليك بنبيِّك محمَّد نبيُّ الرحمة ، يا محمَّد إنِّي أتوجَّه بك إلى ربِّي في حاجتي لتُقضى لي ، اللهمَّ شفِّعه فيَّ] فعاد الرجل وقد أبصر . كذلك الحديث المشهور بتوسُّل سَيِّدنا آدم عليه السلام الذي أخرجه البيهقي بإسناد صحيح في كتابه (دلائل النبوَّة) ، والذي قال فيه الحافظ الذهبي : (عليك به فإنَّ كلَّه هدىً ونور) ، وهو عن عمر رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال : [لمَّا اقترف آدم الخطيئة قال : يا ربّ أسألك بحقِّ محمَّد إلا غفرت لي ، فقال الله تعالى : يا آدم ، كيف عرفت محمَّداً ولم أخلقه ؟ قال : يا ربِّ لمَّا خلقتني رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً (لا إله إلا الله ، محمَّد رسول الله) فعلمت أنَّك لم تُضف إلى اسمك إلا أحبُّ الخلق إليك ، فقال الله تعالى : صدقت يا آدم ، إنَّه لأحبُّ الخلق

إليَّ ، وإذا سألتني بحقِّه فقد غفرت لك ، ولولا محمَّد مـا خلقتـك] وهذا الحديث أخرجه الحاكم أيضاً في (المُستدرَك) علـى شـرط البخاري ومسلم ، وصحَّحه الطبراني وزاد فيه : [... وهـو آخـر الأنبياء من ذريَّتك] كذلك من صور التوسُّل طلـب الـدعاء مـن الآخرين ، أليس هذا التصرُّف اتِّخاذ واسطة واضـحة بـين طالـب الدعاء وبين الله ؟! فحين أطلب مثلاً من رجل صالح أن يـدعو الله لي أن يقضي حاجة لي ، ألست أوسطه في طلب ذلك من الله لحسن ظنِّي به ؟! ألم يتوسَّل الأعلى بالأدنى حين قال النبيُّ ﷺ لسيِّدنا عمر ﷺ : [لا تنسانا من دُعائك يا عمر] ؟ هل النبيُّ ﷺ في حاجـة أن يدعو له سيِّدنا عمر ﷺ وهو نفسه ﷺ رحمة لسيِّدنا عمـر ﷺ ؟ إذا لماذا سأله ذلك ؟

أولاً : ليُعطي لنا إشارة أنَّ طلب الدُعاء من الآخـرين سُـنَّة فعلهـا الرسول ﷺ .

ثانياً : إذا كان الأعلى طلب الدعاء من الأدنى ، فمن باب أولـى أن يطلب الأدنى الدعاء من الأعلى .

ثالثاً : مادام المقصود بالدعاء هو الله وهو على كُلِّ شـيء قـدير ، فما الذي يمنع أن يطلب الأعلى من الأدنى أو الأدنى من الأعلى ؟ بل أقول : إنَّ الأعلى إذا طلب من الأدنى أن يطلب من الله إنَّما يعبِّر عن شدَّة حاجته وافتقاره إلى الله ، لدرجة أن يطلب من الله مِن خلال مَن هو أدنى منه كما طلب النبيُّ ﷺ من سيِّدنا عمر ﷺ .

وفِعل النبيُّ ﷺ هذا يُعطي صمام الأمان لكلِّ من يظنُّ أنَّه أعلى من غيره درجة فيؤمِّنه من غرور نفسه ، ويحفظه من العُجب بنفسه حتَّى لا يظنُّ واهماً أنَّه أفضل من غيره وليس في حاجة إليه ، بل قد يظنُّ أنَّ غيره في حاجة إليه لدنو درجته ، إذا كان النبيُّ ﷺ وهو الرحمة للعالمين ودرجته العليا هي مدد لكلِّ الدرجات ، دعا الله من خلال من هو أدنى منه ، فإن أبى من هو أدنى أن يطلب من غيره الدعاء فهذا تأكيد لغروره وعُجبه بنفسه وكبريائه ، وبخاصَّة أنَّ في كتاب الله آيات كثيرة فيها دعاء للآخرين ، ألم يرد في أحاديث قدسيَّة ما يعني : { ادعوني بألسنة الغير ، أوَ ادعوني بألسنة لم تعصوا بها } ؟ فطلبك دعاء الله من خلال غيرك واسطة واضحة وتوسُّل أكيد ، أباحه الله وشرعه الله بفعل رسول الله ﷺ وقوله ، وسواء دعوت الله أم توسَّلت بالصالحين أم طلبت من الصالحين الدعاء لك ، فهذا كلُّه حقٌّ وخير فعله الرسول ﷺ وفعله غيره من الصحابة والتابعين ، ويبقي سؤال وهو : لماذا توسَّل سيِّدنا عمر ﷺ بدعاء سيِّدنا العباس ﷺ عم النبيِّ ﷺ ولم يتوسَّل بالنبيِّ ﷺ ؟ هذا سؤال أطرحه ؛ لأنَّ هؤلاء المعارضين للتوسُّل بالأموات كما يدَّعون يحتجُّون بذلك التصرُّف من سيِّدنا عمر ﷺ ، فيبيحون التوسُّل بالأحياء دون الأموات ، وكأنَّ الأحياء ــ أحياء الدنيا ــ أكثر قدرة على قضاء المصلحة المطلوبة من الأموات ، وهذا جهل محض وعمى مؤكَّد ، فلا أحياء الدنيا ولا أحياء البرزخ ــ وأقول : أحياء ــ قادرون على قضاء شيء ، فهم متساوون في العجز أمام

قدرة الله ، ويبقي حُسن الظنّ في الرجل الصالح سواء أكان في الدنيا أم في البرزخ ، فظننّا أنّه تقيٌّ يعني أنّه كريم عند الله ؛ لأنّ الله يقول : ﴿ ... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... {١٣} ﴾ الحجرات ، فإذا توسّل سيّدنا عمر بن الخطاب بوجود ودعاء سيّدنا العباس ـ رضي الله عنهما ـ فعِلّة ذلك قرابته للنبيّ ﷺ ، ولذلك ذكر ذلك عند التوسّل به ، وإذا كان التوسُّل بقريب النبيِّ ﷺ جائز لقرابته ، فما بالك بالتوسُّل بالنبيِّ نفسه ﷺ ؟ وسأعود بعد قليل إلى هذا الموضوع ، إنّ المسلم يتوسّل بالصالحين أحياءً أو منقولين بسبب صلاحهم عند الله وحُسن الظنّ بهم ، فإذا قضى الله الحاجة فهو يقضيها بسبب حبّه لهم ، سواء أكانوا في بيوتهم أم في برازخهم ؛ ولأنّهم كرماء عنده بقدر تقواهم ، وأكرمهم على الإطلاق خاتم النبيِّين ﷺ ، ثمّ إنّ قول النبيِّ ﷺ في دعائه للسيِّدة فاطمة بنت أسد ـ رضي الله عنها ـ وهو : [... بحقِّ نبيِّك والأنبياء الذين من قبلي ...] وقد سبق أن ذكرته ، ثمّ أليس هذا توسُّلاً بأموات حين قال : [... والأنبياء الذين من قبلي ...] وتوسُّلاً بأحياء في الدنيا حين قال : [... بحقِّ السائلين عليك ...] ؟ بل إنّه ﷺ توسّل بنفسه حين قال : [... بحقِّ نبيِّك ...] ، أليست هذه إشارة لمن له قلب وله عقل أو لبٌّ تُلفت النظر إلى قدره ﷺ عند الله ، ولذلك بدأ التوسُّل بحقِّه الذي مَنَّ الله به عليه ، ألا يدفع ذلك التوسُّل النبويُّ بنفسه ـ في دعائه ﷺ ـ وبالأموات وأخيراً بالأحياء المؤمنين إلى أن يتوسّل بنبيِّه وبالأموات الصالحين كذلك بالأحياء ؛ لأنّه يُحسن الظنّ

فيهم ، أمَّا أنّه يأبى ذلك بشأن النبيِّ ﷺ بحُجَّة أنَّ النبيَّ ﷺ ميِّـت ، أبعد ذلك عمى ؟! أبعد ذلك جهل ؟! أبعد ذلك ضلال ؟! ألـم يسـقط بذلك تساؤل المعترضين ـ بقصد الاعتراض ـ وهو : (لماذا توسَّل سيِّدنا عمر بسيِّدنا العباس ولم يتوسَّل مباشرة بـالنبيِّ ﷺ ؟) ؟ وإذا سأل أحدهم مثل هذا السؤال بقصد أنَّ التوسُّل بالميِّت لا يجوز حتَّـى ولو كان نبيّاً يؤكِّد عمى السائل وضلاله ، وكأنَّه يقول بدون علم ولا هدى ولا كتاب منير : إنَّ العباس ﷺ الحيُّ في الدنيا أكثر نفعاً مـن النبيِّ ﷺ الذي يحيا الحياة البرزخيَّة ، أو إنَّ العباس ﷺ أكرم عنـد الله لحياته الدنيويَّة ، أمور إن دلَّت على شيء إنَّما تدلُّ على فصيلة (مَنْ أبى واستكبر وكان من الكافرين) ، ثـمَّ إنَّ الـذي سيقضـي الحاجة هو الله لا حيٌّ في الدنيا ولا حيٌّ في الآخـرة ، ولكـن أيـن إجابة السؤال المجرَّد من نيَّة الاعتراض : (لماذا توسَّل الفاروق ﷺ بالعباس ﷺ ولم يتوسَّل بالنبيِّ ﷺ ؟) ؟

أوَّلاً : لأنَّ المطلوب شيء متعلِّق بالأجساد وهو المطر .

ثانياً : لأنَّه قريب ، فهو عمُّ النبيِّ ﷺ .

ثالثاً : ليُثبت بذلك الفاروق أنَّه يجوز التوسُّل بالأدنى لقربته للنبيِّ ﷺ رغم وجود الأعلى مثل سيِّدنا علي ﷺ ، بل إنَّ سيِّدنا عمـر نفسـه الخليفة الثاني بعد الصديق ـ رضي الله عنهما ـ والذي قال النبـيُّ بشأنه ما يعني : [إنَّه لو كان بعدي نبيٌّ لكان عمـر] لـم يتوسَّـل بنفسه وتوسَّل بعم النبيِّ ﷺ ليلفت النظر إلى جواز التبرُّك بالصالحين والتوسُّل بهم بسبب صلتهم بالنبيِّ ﷺ ، سواء أكانت صـلة قرابـة

وتقوى أم صلة تقوى فقط ؛ لأنَّه ﷺ جدٌّ كلِّ تقيٍّ ، فتوسُّله بالعباس ﷺ لم يكن لأنَّ العباس حيٌّ في الدنيا ، ومَن يقول ذلك فهذا دليل على عدم معرفته بمقامات الرجال ، ولا ينبغي أن يُفتي في ذلك إلا حين يصبح رجلاً ، حتَّى يُدرك أنَّ توسُّله هنا جوهره هو توسُّله بالنبيِّ محمَّد ﷺ الذي توسَّل به وهو ما زال في الغيب قبل ظهوره في عالَم الشهادة ، وتوسَّل به بعد أن ظهر في عالَم الشهادة ، وحديث الأعمى معروف وسبق ذِكره ، وقد تُوسِّل به ﷺ بعد موته كما توسَّل الأعمى به في حياته ، وذلك حين كانت لأحد الناس مصلحة عند سيِّدنا عثمان ﷺ وتأخر في قضائها ، فتوسَّل الرجل بالنبيِّ ﷺ وكان في برزخه ، فقضى سيِّدنا عثمان ﷺ مصلحة الرجل بعد إعراضه عنه مُدَّة طويلة ، ثمَّ إنَّ توسُّل سيِّدنا عمر بسيِّدنا العباس ـ رضي الله عنهما ـ إشارة إلى جواز التوسُّل بالفاضل مع وجود الأفضل منه سواء أكان الأفضل هذا حيًّا في الدنيا كسيِّدنا عمر نفسه أو سيِّدنا عليّ ﷺ أم في برزخه كأفضل الخلق أجمعين ﷺ ، والتوسُّل بالجميع جائز وتُقضى الحاجة بقدرة الله ولحبِّه للصالحين وهذا هو القول الحق ، والأموات في برازخهم أحياء وفي حالة إطلاق بقدر صلاحهم وسعة روضاتهم ، وهم قد كُشِف الغطاء عنهم بتذوقهم للموت نَفَساً ـ أي لمحة ـ عند تحرر الروح من ضيق الجسد ، فأصبحوا في حالة من الشعور والإحساس والبصر والسمع والإدراك أضعاف أضعاف ما كانوا عليه قبل موتهم ، وتدبَّر يا ولدي قول الله : ﴿ ... فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ {٢٢} ﴾ ق ، فهذا

القول يُشير إلى كُلِّ ما ذكرت ، من أجل هذا نُخاطب الأموات جميعاً بالسلام عليهم وبخاصَّة الذين في حالة إطلاق كُلٌّ على قدر صلاحه وسعة روضته ، بل ونطلب منهم الدعاء ؛ لأنَّهم في حالة قُرب شديد من الله ، وهم في قبورهم لهم عبادة تشريف لا عبادة تكليف ، إذاً هم في حضرة الله ، إذا كان الإنسان المسلم في الدنيا وهو مازال مُقيَّداً بجسده وحاجاته إذا دخل في الصلاة أو في الذِكر يكون في حالة قُرب من ربِّه وفي حالة حضور ، فما بالك بعد تحرره من البشريَّة وحاجاتها ، ألا يكون أشدُّ قُرباً وأكثر حضوراً ، فمن الدين أن نزور أهل القبور من الصالحين ونسلِّم عليهم ونطلب منهم الدعاء ؛ لأنَّنا مؤمنون أنَّ الأموات أحياء في قبورهم ويمكن مخاطبتهم وهم يأنسون بمن يزورهم ؛ ولأنَّنا مؤمنون بالآخرة وهم أقرب إلى ربِّهم وإلى آخرتهم فيجوز أن نطلب منهم الدعاء ، ولذلك قال النبيُّ ﷺ : [مررت ليلة أسري بي على موسى وهو قائم في قبره يُصلِّي] رواه البخاري ومسلم ، وقوله ﷺ : [الأنبياء أحياء في قبورهم يصلُّون] رواه البيهقي وغيره بأسانيد صحيحة ، وأخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما : [أنَّ الله بعث لنبيِّنا جميع الأنبياء ليلة الإسراء فصلَّى بهم ركعتين] وإذا كان أموات المشركين في حفرات من النار إشارة إلى ضيق حياتهم بعد تذوقهم للموت يسمعون في قبورهم ، بدليل ما أخرجه البخاري ومسلم وأصحاب السُنن من حديث عمر ﷺ قال : اطلَّع رسول الله ﷺ على أهل القليب فقال : [هل وجدتم ما وعدكم ربُّكم حقّاً ؟] فقيل له : أتدعو

أمواتاً ؟! فقال ﷺ : [ما أنتم بأسمع منهم ، ولكن لا يُجيبون] فإن كان هذا شأن أموات المُشركين يسمعون ولكن لا يُجيبون ؛ لأنَّهم في حالة خزي وتقييد وحرج ، فماذا سيقولون ؟ أمَّا النَّاجون فهم في حالة إطلاق وسِعة ، وفي روضات واسعة من رياض الجنَّة وفي حالة إحساس تام ، نطلب منهم الدعاء بعد السلام عليهم ونحن مطمئنون باستماعهم واستجابة طلبنا ، ومادام الدعاء مُوجَّه إلى الله لا إلى غير الله ، فما معنى هذه السفسطة التي لا معنى لها ؟! ثمَّ إنَّهم يحسون بنا وبأعمالنا ويدعون لنا بدليل حديث رسول الله ﷺ : [إنَّ أعمالكم تُعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات ، فإن كان خيراً استبشروا ، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهمَّ لا تُمتهم حتَّى تهديهم كما هديتنا] رواه الإمام أحمد في مُسنده ، وعبد الرازق في مُصنَّفه عن سفيان عن أنس بن مالك ﷺ ، ورُوي مثل هذا الحديث عن جابر بن عبد الله وعن أبي أيوب الأنصاري ــ رضي الله عنهما ــ وذكره الترمذي في مُسنده ، وعن النعمان بن بشير وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنهما ــ وغيره بصيغ متعددة جوهرها عرض أعمالنا على الأموات . بل في حديث آخر أخرجه ابن المُبارك وابن أبي الدنيا عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ يقول النبيُّ ﷺ : [تُعرض أعمالكم على الموتى ، فإن رأوا حسناً فرحوا واستبشروا ، وإن رأوا سوءاً قالوا : اللهمَّ راجع بهم] وفي حديث آخر يقول النبيُّ ﷺ : [اتقوا الله في إخوانكم من أهل القبور ، فإنَّ أعمالكم تُعرض عليهم] أخرجه الحكيم الترمذي ، وابن أبي الدنيا ،

والبيهقي في (شُعب الإيمان) عن النعمان بن بشير ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : وذكر الحديث . بل إنَّ أعمالنا تُعرض عليه ﷺ فقد ورد في حديثه : [عُرضت عليَّ أعمال أمَّتي حسنها وسيئها ، فوجدت من محاسن أعمالها الأذى يُماط عن الطريق ، ووجدت في مساوئ أعمالها النُّخامة تكون في المسجد لا تُدفن] رواه مسلم ، وأخرجه ابن ماجه في (الأدب) والإمام أحمد في (مسند الأنصار) . وهذا يعني أنَّه ﷺ ميزان توزن به أعمالنا كمّاً وكيفاً في حياته الدنيويَّة وفي حياته البرزخيَّة بل وفي الآخرة ﷺ ، وإذا كانت أعمالنا تُعرض على أمواتنا ، فما بالك بزيارتنا لهم وطلب الدعاء منهم ؟! إنَّ الميِّت يستأنس بزائره لقول النبيِّ ﷺ : [ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به] عن السيِّدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، وقوله ﷺ : [ما من رجل يمرُّ بقبر أخيه كان يعرفه في الدنيا فسلَّم عليه إلا عرفه وردَّ عليه السلام] رواه ابن عبد البرِّ في (الاستذكار والتمهيد) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ . وفي حديث آخر عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : [إذا مرَّ رجل بقبر يعرفه فسلَّم عليه ردَّ عليه السلام وعرفه ، وإذا مرَّ بقبر لا يعرفه فسلَّم عليه ردَّ عليه السلام] وهذا يعني أنَّ زيارة حيٍّ الدنيا لأحياء البرزخ هي زيارة حيٍّ لحيٍّ ، فما بالك بزيارة النبيِّ ﷺ وزيارة الأولياء وطلب الدعاء منهم والتوسُّل بهم ؟! فهل هؤلاء المُعترضون يعتبرون هذا شِركاً واستغاثة بالصالحين من دون الله ؟! أليس حكمهم هذا ظالماً

وفتواهم هذه بغير علم بل ليست فيها رائحة علم ولا مذاق حكمة ؟!
فالاستغاثة بالله هي الأصل في كُلِّ توجُّه ، فالتوجُّه له حقيقة ومـن
خلال عباده الصالحين مجازاً ، كما يذهب المريض إلى الطبيب وفي
قلبه وفي عقله قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ {٨٠} ﴾
الشعراء ، فالاستغاثة بالله بطلب الدعاء من قوم صالحين أحياءً في
الدنيا أو أحياءً في البرزخ ، مع اعتبار الطرفين عاجزين ومتساويين
في العجز أمام قدرة الله مع الاعتقاد أنَّ الفعَّال حقيقة هو الله قاضي
حاجات الناس ، أقول : إنَّ هذه الاستغاثة جائزة ، فهي أسباب فـي
قبضة الله بل أبواب خير فتحها لعباده ، وإنَّهم قوم لا يشقى بهم مَن
يعرفهم ويحبُّهم ويزورهم ويعرف قدرهم ، وما التوجُّه للصالحين إلا
من باب الأخذ بالأسباب المحبوبة لدى الله ، وكلٌّ هذا جائز ومشروع
ولا يعترض على هذا إلا ضيِّق الاطلاع على الكتاب والسُـنَّة ، وقـد
ورد في حديث رواه ابن السُنِّي عن عبد الله بن مسـعود ﷺ قـول
النبيِّ ﷺ : [إنَّ العبد إذا كان في صحراء وفقد دابَّته استغاث فقال :
يا عباد الله أغيثوني ، فبعث الله له مَن يُغيثه] تأمَّل يا عبد الله لماذا
يستغيث هذا العبد الذي فقد دابَّته بعباد الله ؟ وما العلَّة في ذلك ؟ إنَّ
العبد يستغيث بهم لأنَّهم عباد الله لا عباد الهوى والشهوات ، فهـي
استغاثة مجازيَّة بهم وحقيقيَّة بالله ، ولله مُدبرات يُدبر الله بها الكون
وهي تتحرك بأمر الله ، ولله عباد صالحون وببركتهم التي أودعهـا
الله في ذواتهم تُقضى المصالح ، بل وتُفرَّج الكروب ويُدفع الـبلاء ،
والله يقول : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَـيْءٍ سَـبَباً

{٨٤} فَأَتْبَعَ سَبَباً {٨٥} ﴾ الكهف ، فالتمكين لأيِّ عبد في الأرض ليس تمكيناً مستقلاً عن الله ، بل المعنى أنَّ العبد الصالح عرف قدر نفسه فأحبَّه الله حيّاً وميِّتاً ، وبحبِّه له أحبَّ الله من أحبَّه ، ورضي عن من وقَّره حيّاً وميِّتاً ، ومن توسَّل به داعياً الله أو طالباً منه الدعاء استجاب الله الدعاء ؛ لأنَّ الله لا يردُّ لمحبٍّ دعاء ، ويكفي أنَّ الله يشير إلى بركة الصالحين الممتدَّة من قول الله لنبيِّه ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ {١٠٧} ﴾ الأنبياء ، وأنَّ الصالحين قوم لا يشقى بهم جليسهم ، إذاً اتباعهم وحبُّهم وزيارتهم وطلب الدعاء منهم وكلُّ معاملة طيِّبة معهم إنَّما هي رحمة أصلها الذات الشريفة ﷺ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى حين يطلب العبد من عباد الله الصالحين شيئاً إنَّما يطلب منهم أن يطلبوا له من الله أو ليسخِّرهم الله فيحقِّقوا مطلوبه بإذن الله ، والمقصود في كلِّ الأمور هو الله الحقُّ ، ثمَّ إنَّنا في صلاة الاستسقاء نصطحب حيواناتنا وأطفالنا ونساءنا لنصلِّي صلاة الاستسقاء إذا تأخر الغيث ، أليس هذا توسُّلاً بمخلوقات حيوانيَّة ومخلوقات بريئة لم ترتكب ذنباً ؟ وتوسُّلهم بهذه المخلوقات يعني أنَّهم يقولون لربِّهم الذي بيده كلُّ شيء : إنَّه إذا كان منع الغيث بسبب عدم براءتنا ، فأنزله من أجل هذه المخلوقات البريئة ، فارحمنا بسببهم . فإذا كان مجرَّد حيوانات وأطفال لا تعقل أو لا تميِّز بين الخير والشرِّ ولكنَّها بريئة يرحم الله بها الخلق ، فما بالك بعباد الله الصالحين المعصومين وهم الأنبياء والمحفوظين وهم

الأولياء الذين هم مصابيح رحمة الله ونوره في دنياهم وفي برازخهم ؟

معلومة { ٥ } :

يا ولدي هذه المعلومة متعلّقة بحكم إقامة الموالد وهي المسألة الخامسة ، فلماذا يعترض هؤلاء على إقامة الموالد للنبيّ ﷺ وللصالحين ؟ أليس هذا تذكيراً للكبار والصغار بسيرة هؤلاء الصالحين ؟ وكان الأجدر بهم أن يُصحّحوا إقامة الموالد لا أن يعارضوا إقامتها ، فالمولد إذا قام بشروط أربعة معيّنة دعا لها الله ورسوله من أجل تذكير الناس وبخاصّة صغارنا بالصالحين ليكونوا مثلهم باقتدائهم بهم ، وهذه الشروط الأربعة هي :

١) إقامة مجالس العلم النافع التي يُذكر فيها سيرة الصالح ليُقتدى به ويُنتفع بها .

٢) إقامة مجالس الذكر الخالصة الطاهرة من كلّ ما نهى عنه رسول الله ﷺ .

٣) إطعام الطعام وبخاصّة للفقراء ، وهذا عمل من أعمال الخير .

٤) أن يكون المولد فرصة لبعض من يريد أن يُتاجر فيما هو نافع وفيما هو حلال من كسب طيّب .

أمّا ما عدا ذلك فهو ممنوع شرعاً ، ولقد كان النبيّ ﷺ يحتفل بذكرى مولده ﷺ أسبوعيّاً حين كان يصوم يوم الاثنين ، وحين سُئل عن علّة ذلك الصيام فقال : [هذا يوم ولدت فيه] وهذه إشارة إلى ضرورة شكر الله على النعمة ، وهل هناك نعمة أظهر من نعمة

مولده ﷺ ؟! وحتَّى لا تُنسى نعم الله الظاهرة ، وحتَّى لا ننسى النماذج ومرايا الإيمان ومصابيح النور ، فعلينا أن نقيم الموالد بشروطها حتَّى يتجدَّد إيماننا بحرصنا على تذكر أيام الصالحين ، وحرصنا على لقاء بعضنا البعض في مجالس خير ، وهذا تعاون على البرِّ والتقوى وتنشيط لفعل الخير وجمع المسلمين وتعارفهم وتآلفهم في المناسبات ، وفي هذه الأجواء التي تتكرر بالموالد ينشأ الصغار في بيئة مجدِّدة للإيمان ومشوِّقة للصالحين ممَّا يساعد على الاقتداء بهم ، لذلك كان في إقامة الموالد بالشروط التي ذكرتها حكمة ورحمة ، فتذكرُ الصالحين تنشيط وتثبيت لنا ، لذلك نلاحظ أنَّ الله يقصُّ على نبيِّه قصص أنبيائه ويذكر علَّة ذلك لتثبيت فؤاده ﷺ فيقول : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ... {١٢٠} ﴾ هود ، فالموالد الخالية من المنهيِّ عنه كذلك الأضرحة والقباب والمساجد والمآذن كلُّها أشياء تذكِّرنا وتحرضنا على العمل الصالح وتثبت أفئدتنا برؤيتها وزيارتها إذا كنا مؤمنين .

معلومة {٦} :

يا ولدي هذه المعلومة متعلِّقة بإيقاد السُرج على أضرحة الصالحين ، إذا كان هناك من يعترضون ويتَّهمون الذين يوقدون السُرج على المقابر بالشرك والخروج عن الملَّة ، فإنَّ الردَّ عليهم هو : أنَّ مُحبِّي الصالحين وزوار الصالحين هم أهل توحيد لله وأهل حبٍّ لرسول الله ﷺ وحبٍّ للصالحين أولياء الله ، ثمَّ إنَّهم لا يوقدون سُرجاً على المقابر ؛ لأنَّ قبور الصالحين في عمق الأرض وقد

أغلقت عليهم ، أمَّا ما يوقدونه من سُرجٍ فهو بقصد تيسير الزيـــارة ليلاً لا لعبادة الصالحين كما يدَّعي هؤلاء ، فـــلا شـــيء فـــي ذلـــك وبخاصَّة إذا كان ضريح الرجل الصالح بداخل المسجد ، وكلُّ تصرف نابع من الحبِّ والتوقير والتعظيم نتيجة لتوحيد الله وحبِّه لا لعبـــادةٍ وتقديرٍ لغيره كما فعل غيرهم من أهل الكتاب من قبل ، فهو تصرُّفٌ إسلامي مشروع أن تُضئ الأماكن التي يترجم فيها زوارها عن حبِّهم للصالحين ترجمة عن حبِّهم لربِّ الصالحين ، ثمَّ إنَّ السُرج لا يوقدها المسلمون في القبر ، ولكن في مكان الزيارة ــ أي مكـــان زيـــارة القبر ــ المكان الذي يقف فيه القادم للزيارة ، فالإضـــاءة لا تكـــون بخصوص القبور لذاتها وإنَّما لتيسير الزيارة ــ كما ذكرت ــ وإنارة أماكن الزيارة للصالحين عند قبر النبيِّ ﷺ وعند قبور الصالحين في جميع أنحاء الأرض وبخاصَّة التي بالمساجد ، وكـــم مـــن العلمـــاء العاملين صلُّوا في هذه المساجد وزاروا هـــذه الأضـــرحة والسُـــرج موقدة ، أكـــلُّ هؤلاء الذيـــن يُعـــدُّون بالآلاف بـــل أقول بـــالملايين لا يعرفون دينهم ؟! وهل هؤلاء المعترضون هم فقـــط أهـــل العلـــم وحدهم ؟ ثمَّ أين نيَّة العبد ؟ أليست نيَّة العبد في أيِّ تصـــرف هـــي الحاكمة على مصيره ؟ وهل هؤلاء الموحِّدون المحبُّون للصـــالحين حين يُوقدون مصبـــاحاً لتيسير زيارة الرجـــل الصـــالح يُتَّهمـــون بالشرك ؟! هل هذا علم ؟! وهل هذه معرفة ؟! وهل هذا هـــو ديـــن الإسلام ؟! وما رأي هؤلاء فيما رواه أبو داود وابـــن ماجـــه بســـند حسن من ترغيب النبيِّ ﷺ في زيارة المسجد الأقصى وهـــو المقـــام

على قبور أنبياء وصالحين ، فقال جواباً على سؤال : [ائتوه فصلّوا فيه ، فإن لم تأتوه وتصلّوا فيه فابعثوا بزيت يُسرج في قناديلـــه] ؟ انظر كتاب (التاج) في الأحاديث ، المجلد الأوّل .

معلومة { ٧ } :

يا ولدي هذه المسألة السابعة والأخيرة في الإجابــة علــى الســؤال الرابع والأربعين ، وهي مسألة اتّهام هؤلاء المعترضين لزوار قبور الصالحين المحبّين لهم بالشــرك ، وإذا تجــاوزوا قلــيلاً اتّهمــوهم بالكبائر ، يعني أنّ الزائر مثلاً لضريح السيّدة زينب بنت بنت رسول الله ﷺ مشرك في نظرهم ، وفي أحسن الأحوال قد ارتكب كبيرة في رأيهم يجب أن يتوب منها وإلا ... !!! ولا شكّ فــي أنّ مثــل هــذا الزائر المحبّ للصالحين يؤيّد إقامة الأضرحة بدليل زيارتها ، ويؤيّد إيقاد السُرج فوقها من أجل تيسير الزيارة ، بل ويؤيّد شــدّ الرحــال للزيارة وإقامة القباب فوق قبور الصالحين ، فهل بعد كلّ هذه التّهم والجرائم في العقيدة لا يكون مشركاً أو مرتكباً للكبائر ؟! هذه هــي فتوى هؤلاء المتنطّعين المحرومين من حبّ الصــالحين ، والــذين بفتواهم هذه يظنّون أنّهم حرّاس عقيدة التوحيد ، ويتمنّــون لــو أنّ صاعقة نزلت فأهلكت هؤلاء الذين يقيمون الموالد للصالحين ، فهــل هذه الفتاوى التي تُفرغ عقيدة التوحيد من مضمونها ، وتشطر كلمة التوحيد إلى شطرين يناطح أحدهما الآخر فهم باسم (لا إله إلا الله) يناطحون (محمّد رسول الله) وهم لا يشعرون ؟ وكان خيراً لهم أن يطهّروا السلوكيات المشروعة من الأخطاء بدلاً مــن أن يُحرّموهــا

ويتَّهموا أصحابها بكذا وكذا ، يا ولدي هذه الفتوى تهمـــة ظالمـــة ؛ لأنَّ الشرك أنواع :

الشرك الأكبر : هو التوجُّه بالعبادة مباشرة لغير الله كعبادة الأوثـــان والأصنام والأحجار ، مثل أهل مكَّة المشركين قبل الإسلام .

والشرك الأصغر : وهو الرياء ، ويقول الـــرسول ﷺ بشأنه حديثاً : [إنَّ أخْوَفَ مَا أخَافُ عَلَيْكُم الشِّرْكُ الأصْغَرُ] قالوا يا رســـول الله : وما الشِّركُ الأصْغَرُ ؟ قال : [الرِّيَاءُ ، إنَّ الله تبارك وتعـــالى يقـــول يوم تُجَازَىَ العِبَادُ بِأعْمَالِهِم : اذهَبُوا إلى الذين كُنْتُم تُرَاءُونَ بأعْمَالِكُمْ في الدُّنْيا فَانظُروا هل تَجِدُونَ عِندَهُم جَزَاءً ؟] رواه سيِّدنا محمـــود ابن لَبِيدٍ ﷺ في مسند الإمام أحمد ﷺ ، إذاً من توجَّه بالعبادة ذاتهـــا لغير الله فهو شرك ؛ لأنَّه يعبد غير الله فهو مشرك شركاً أكبر وهو خالد في النار ، ولا يشمُّ رائحة الجنَّة مثل أبي جهل ، أمَّا من يشهد الشهادتين ولكنَّه يقصد بعمله الصالح الشهرة والسمعة فهـــذا هـــو الشرك الأصغر ، وسمِّي عمله بالعمل الصالح ؛ لأنَّـــه صـــالح فـــي صورته وفاقد لمضمونه وروحه ، فهو كجثَّة هامدة متعفِّنة . ملخَّص القول : إنَّ الشرك هو التوجُّه بالحبِّ لغير الله ولمخلوقات مـــن دون الله ، وأقول : من دون الله لا أقول أولياء الله ؛ لأنَّ الحبَّ لمن هـــو من دون الله والتوجُّه إليه ينشأ عنه البُعد عن الله ، وفـــي المقابـــل حبُّ أولياء الله الناشئ عن حبِّ الله من أعظـــم الوســـائل الميسِّـــرة للعمل الصالح والتقرُّب إلى الله ؛ لأنَّ المتحابين في الله على منـــابر من نور يوم القيامة ، فهل هذا شرْك يا ولدي ؟ مُحبُّـــو الصـــالحين

الذين يقيمون الأضرحة للصالحين ، ويجعلون أضرحتهم في بعض المساجد ويحرصون على زيارتهم ، ويوقدون بعض المصابيح حيث توجد هذه الأضرحة فهؤلاء ليسوا مشركين ؛ لأنَّهم يحبُّون الصالحين بحبِّهم لله لا مَن هم مِن دون الله ، والرسول ﷺ يدعونا أن نحبَّ الله لما يغذونا به من نعم ، وأن نحبَّ النبيَّ ﷺ بحبِّ الله ، وأن نحبَّ آل البيت بحبِّنا له ﷺ ، وهذا ما يدفعنا للزيارة . إنَّ الأسوة الحسنة وهو النبيُّ ﷺ حَدَثَ بشأنه عند موته وفي عصر الصحابة ومَن بعدهم في عصر التابعين ، أقول : حدث كلُّ ما ينهى عنه هؤلاء المعترضون على الأضرحة ، فمَن نصدِّق ؟ أنصدِّق هؤلاء المعترضين أم نأخذ بما فعل الصحابة ومَن بعدهم وأقرَّه العلماء والأئمَّة في كلِّ عصر بالقول وبالفعل وبالحال ؟ ألم يُدفن النبيُّ ﷺ بوصيَّته أو بتوجيهاته التي سمعها منه الصدِّيق أبو بكر ﷺ في حجرة السيِّدة عائشة ــ رضي الله عنها ــ الملاصقة لمسجده ﷺ والمفتوحة عليه مباشرة ؟ أليس هذا جمعاً بين المسجد والقبر ؟ ألم يدخل هذا القبر الشريف وبجواره قبر الصدِّيق وقبر الفاروق في داخل المسجد في عصر التابعين عند توسعته ؟ ألم يُشر النبيُّ ﷺ إلى هذا كلِّه مؤيِّداً له بقوله : [ما بين بيتي ومِنْبَرِيِّ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ] ؟ رواه عبد الله بن زيد المَازِنِيِّ وأخرجه الشيخان والنسائي وأحمد ومالك ﷺ ، ألم يكن الرسول ﷺ يتردَّد كثيراً على أهل البقيع وهم أولياء صالحون ؟ ألم يكن يشدُّ الرحال لزيارة مسجد قباء ؟ ألم يذهب لزيارة شهداء أُحد راكباً وماشياً ؟ ألم يصلِّ ركعتين

عند قبر موسى وقيل : عند قبر الخليل إبراهيم ــ عليهما الصلاة والسلام ــ بإشارة من سيِّدنا جبريل عليه السلام وقال : [مررت ليلة أسري بي على موسى وهو قائم في قبره يصلِّي] رواه البخاري ومسلم ، كذلك بيت لَحم حيث وُلد المسيح ــ عليه وعلى نبيِّنا وعلى جميع الأنبياء أفضل الصلاة والسلام ــ ؟ هذه الآلاف من الأضرحة في المساجد وفي غير المساجد المنتشرة في أنحاء الأرض وهي أضرحة علماء مشهورين وأولياء صالحين مثل : ضريح الإمام الشافعي ، وضريح الإمام محمَّد متولي الشعراوي ، وضريح الإمام محمَّد زكي إبراهيم ، وضريح الإمام صالح الجعفري ، وضريح الإمام الدكتور عبد الحليم محمود ، وأضرحة الأئمَّة المربِّين مثل : الإمام أبي الحسن الشاذلي ، والإمام أبي العباس المرسي ، والإمام إبراهيم الدسوقي ، والإمام أحمد البدوي ، والإمام أحمد الرفاعي ، والإمام عبد القادر الجيلاني وغيرهم رضي الله عنهم ، أكلُّ هؤلاء وعلى رأسهم أضرحة الأنبياء في الشام وإمام الجميع سيِّدنا محمَّد ﷺ في المدينة ، أكلُّ هؤلاء وزوارهم متَّهمون لدى هؤلاء المعترضين بشبهة الشرك ؟ إنَّ هذا الاتِّهام الباطل لهو البهتان العظيم ، إنَّ توحيدنا لله نابع من يقيننا بـ (لا إله إلا الله) ، وإنَّ حبَّنا للصالحين واقتداءنا بهم نابع من إيماننا بـ (محمَّد رسول الله) ، وهذا هو التوحيد والأدب ، والمتَّبع الحقّ من الناس هو المُوحِّد المؤدَّب ، الموحَّد لله المؤدَّب مع رسول الله ﷺ ومع الصالحين مصابيح نوره وأوعية دعوته ﷺ ، إنَّ علَّة زيارتنا للصالحين هي أنَّ زيارة القبور سنَّة وبخاصَّةٍ زيارة

قبور الصالحين ، فما بالك بزيارة قبر النبيِّ محمَّد ﷺ ؟ وكيف تُباح زيارة النبيِّ ﷺ ولا يتْبعها زيارات الصالحين ؟ ولو أنَّ قبره ﷺ لم يكن في مسجده أو ملحقاً به أكان مسجده تكون له هذه القيمة التي تميَّز بها عن غيره والركعة فيه بألف ركعة ؟ أكان النبيُّ ﷺ يجعله من بين المساجد الثلاثة التي تشدُّ لها الرحال ؟ أليس هذا الحديث الخاصُّ بشدِّ الرِّحال يُشير بطرف خفيٍّ إلى أنَّ شدَّ الرحال لزيارة الصالحين مُباحة بل مُستحبَّة ؟ أدعو الله أن يُطهِّر القلوب من آثار مَنْ : ﴿ ... أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ {٣٤} ﴾ البقرة ، آمين .

السؤال الخامس والأربعون :

المعترضون يحتجُّون بقصة سيِّدنا نوح عليه السلام في معارضتهم لإقامة الأضرحة وزيارتها وإلحاقها بالمساجد وإيقاد السُرُج فوقها على أساس أنَّ عبادة (ودّاً – وسُواعاً – ويغوث – ويعوق – ونسرا) نشأت عبادتهم في البداية من حُبِّ الناس لهؤلاء الصالحين ، فأقاموا لهم ما أقاموا من نُصب تحوَّلت فيما بعد إلى أوثان أو أصنام تُعبد من دون الله ، والمُعترضون يخشون على أمَّة النبيِّ محمَّد ﷺ المعصوم العصمة التامَّة ، والمحفوظ كتابه الحفظ الكامل ، والذي دعوته هي الدعوة العالميَّة الكاملة المحفوظة ، والذي خاطب الله أمَّته بقوله : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... {١١٠} ﴾ آل عمران ، يخشون عليها أن تسقط كما سقطت أمَّة سيِّدنا نوح عليه السلام ، بل إنَّ كثيراً منهم يدَّعون أنَّ الأمَّة قد سقطت فعلاً ؛ لأنَّهم يعتبرون الأضرحة أوثاناً وزُوَّارها مُشركين ، وهذه هي حجتهم ، فما ردُّك على هؤلاء المُعترضين ؟

الإجابة :

معلومة {١} :

يا ولدي لو تأمَّلت السؤال لأدركت منه أنَّ هؤلاء المُعترضين لا يفقهون مكانة النبيِّ محمَّد ﷺ وقدره عند ربِّه ولا يعلمون أنَّ هذا الكون في قبضة الرحمن الذي وعد بقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ {٩} ﴾ الصف ، وهل يتَّفق إظهار دينه على الدين كلِّه مع

خشية هؤلاء على الأمَّة أن تعبد الأصنام ؟ وهل يحدث السَقْط إلا لنطفة أو علقة أو مُضغة ، ولا يحدث أبداً لكائن حي بلغ الأربعين عاماً كَمُلَ عقله وخُلقه ؟ ولو كان الأمر بهذه البساطة أو كان الإسلام ديناً هشّاً بهذه الصورة فَعَلامَ حَفظَ الله القرآن ؟ ولماذا عصم الله نبيَّه وأظهر قبره في الأرض ؟ وكيف تتفق هذه الخشية الخبيثة مع مَنْ بشَّر به النبيُّ محمَّد ﷺ مُجدداً لدين الله كُلّ مائة عام ؟ ما هذا الهوس الذي يعيشه هؤلاء الذين فرَّغوا التوحيد من جوهره ، وجفَّفوا الروحانيَّات حتَّى جعلوها راجِمات للحُبِّ قاذفات للمودَّة ؟ وردِّي أيضاً على هذا السؤال الطويل هو : أنَّ النبيَّ ﷺ قال في حديث عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : [إنَّ أمَّته لا تجتمع على ضلالة] وقال ﷺ : [إنَّ الخير فيه وفي أمَّته إلى يوم القيامة] وإنَّ حقائق هذا الدين محفوظة إلى يوم القيامة لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ {٩} ﴾ الحِجْر ، ونبوَّة هذا الدين معصومة من الناس ، والناس باقون إلى يوم القيامة فلا يضلُّ فيها أحدٌ أبداً ، وعلى رأس كلِّ مائة عام يبعث الله وليّاً من أولياء وعلماء هذه الأمَّة مَن يجدِّد لها دينها ، فيكون كمرآة مباشرة تعكس حقائق هذا الدين وخُلُق هذا الدين ، فهذه الأمَّة بعلمائها وعوامِّها بخير ، ولا خوف عليها تنفيذاً لوعد الله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ {٣٣} ﴾ التوبة ، ولقد أشار النبيُّ ﷺ إلى قوم يأتون بعده في القرون التَّالية بأنَّهم إخوانه آمنوا به بدون أن يروه : [إنَّ

أناساً من أُمَّتي يأتون بعدي يَوَد أحدهم لو اشـــترى رؤيتـــي بأهلـــه وماله] رواه الحاكم عن سيِّدنا أبي هريرة ﷺ . فهل نُصدِّق بعد ذلك قول من يقول متنطِّعاً : أنَّ الأمَّة سقطت بزيارتها لأضرحة الصالحين فيما وقعت فيه أمَّة سيدنا نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ؟ إنَّ هذه الأمَّة هي أمَّة الكون ، وهـــل يُتصـــوَّر زوال الكـــون إلا إذا قامـــت القيامة ؟ هذه الأمَّة جعلها الله شمس هذا الوجـــود ، وهـــل تُكَـــوَّر الشمس قبل أن تنتهي الدنيا ؟ وهذا يعني أنَّ هذه الأمَّة بحقائق دينها حقيقة ، وأمَّة الحقائق يستحيل أن تفنى بالضلال أو بعبادة الأوثان ، وستظلُّ قائمة بأمر الله من خلال الفرقة الناجية من أبنائها ، فرقـــة الأولياء الصالحين ، وهي الفرقة الناجية بنصِّ القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، في قوله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ {٦٢} ﴾ يونـــس ، وهيَّـــا بنـــا يا ولدي إلى المعلومة الثانية لأواصل الحديث حتَّى يتأكَّد لك أنَّ كلمة الحَسْم باقية حتَّى يأذن الله بيوم القيامة ، وكلمة الحق والحَسْم هي : ﴿ وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِـــلَ كَـــانَ زَهُوقـــاً {٨١} ﴾ الإسراء .

معلومة {٣} :

يا ولدي هناك عشرات الآيات والبشارات التي تؤكِّد بقاء هذه الأمَّة ، وإذا كانت خير أمَّة أُخرجت للناس سقطت كما يقولون فيما ســـقطت فيه أمَّة سيدنا نوح عليه السلام من الشِرك ، فماذا بقي للكون من خير ؟ إنَّ هذه الأفكار المُتنطِّعة الشاذَّة الجافة القاسية الزائغة الكاذبة هي التي

أحدثت في الأمَّة ما أحدثت من تمزُّق وتفرُّق وتشيُّع ـ إلا مَن رحم ربُّك ـ ، وهل هناك من المسلمين مَن يُصلُّون أو يصومون للأضرحة أو لأصحابها ؟ إذا كان الواحد منهم يصلِّي في الروضة الشريفة وبجواره قبر النبيِّ ﷺ وقبر الصدِّيق أبي بكر وقبر الفاروق عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقف يصلِّي مُتَّجها إلى جهة القبلة حيث أمره الله لا يتَّجه للقبر في صلاته ، ومُكبراً تكبيرة الإحرام : (الله أكبر) التي يحرُم بعدها الاشتغال بغير الله الواحد الأحد ، إذا كان هذا يحدث من جميع المسلمين ، ومع مَنْ ؟ مع قبر خاتم النبيِّين ﷺ وقبري الإمامين المتفرعين من أصل الدين الصدِّيق إمام الصدق والفاروق إمام العدل ، فهل بعد ذلك تخشى على المسلمين أن يعبدوا قبور أو أضرحة الصالحين ؟ إذا كان هذا ممكناً حدوثه فكان الأولى أن يحدث مع القمم من هذه الأمَّة ، ولكن الله حافظ هذه الأمَّة ؛ لأنَّ شريعتها غير منسوخة ، وكتابها محفوظ بقدرة الله ، ونبيُّها معصوم لا يضلُّ فيه ولا في ذريَّته من أصحاب الجنَّة أحد ، ولا يضلُّ به ولا بذريَّته من أصحاب النار أحد وإنَّما يضلُّ بهواه ، ولقد مضى أربعة عشر قرناً وربع قرن وأرض الإسلام مليئة بأضرحة الصالحين ، بلَ يكاد لا يمضي يوم في مصرنا المحروسة التي هي في رباط إلى يوم القيامة ، أقول : لا يكاد يمضي يوم إلا ويقوم ضريح رجل صالح في مكان ما في مصر التي أبناؤها خير أجناد الأرض ، ولم نسمع أنَّ مسلماً أقام تمثالاً لرجل صالح ليعبده كما حدث في أُمم سابقة منسوخة ، وكيف يعبد المسلم عبداً حكم الله عليه بالموت ؟! ألا يدلُّ

موته على أنَّه عبد لله لا يملِك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً ، وإذا كان قوم سيدنا نوح ﷺ قد ضلُّوا من بعده ونُسخت رسالته ، فإنَّ رسـالة النبيِّ محمَّد ﷺ قد قضى الله أن لا تُنسخ وأن تبقى إلى آخر الزمان بلا خوف ، بل إنَّ ملايين الأضرحة هنا وهناك هي نجـوم الأرض كما يراها أهل السماء كدليل أنَّ هذه الرسالة باقية وهذا الدين خالد ومصابيحه مَذكورون ظاهرون في كُلِّ مكـان ، وقبرُ النبيِّ محمَّـد ﷺ هو السـراج المُنير والمُخاطَـب بقوله تعالـى : ﴿ وَرَفَعْنَـا لَكَ ذِكْرَكَ {٤} ﴾ الشرح ، وإذا كان هؤلاء المُعترضـون يـذكرون حديثاً هو : [لا يذهب الليل والنهار حتَّى تُعبد اللات والعُزى] فإنَّ هذا الحديث إشارة إلى قُبيل يوم القيامة حيث لم يبق علـى وجـه الأرض إلا لُكَع ابن لُكَـع ، يعبـدون الأصنام لا الأضرحة والأولياء يا سادة ويا كِرام ! إنَّ الأولياء هُم سفن النجاة ، ولولا شيوخ رُكَّع وشباب خُشَّع ، وأطفال رُضَّع ، وبهائِم رُتَّع ، لصُبَّ عليكم الـبلاء صبّاً ، أليست صـلاة الاستسقاء تُثبت هذا حين يمتنع نزول الغيث ــ المطر ــ فيخرج المسلمون ويصحبون معهم بهائمهم وأطفـالهم ونساءهم يُصلُّون صلاة الاستسقاء ؟ وكأنَّهم يقولون لـربِّهم : إن كُنت منعت الخير بسببنا نحن ونحن المسيئون ، فأنزل المطر مـن أجل هذه المخلوقات البريئة ، فما بالك بالأبرار والأولياء الذين هم سفن النجاة وأسباب غَوْث ؟ وإذا قال أحدهم : إنَّنا نعترض علـى هؤلاء الذين يتوسَّلون بالأموات الذين ذهبـوا فـي التـراب ، ولا نعترض على التوسُّل بالأحياء . فقد توسَّل سـيِّدنا عمـر بسـيِّدنا

العباس ــ رضي الله عنهما ــ في شأن إنزال المطر ولــم يتوسَّــل بالنبيِّ ﷺ ؛ لأنَّ سيِّدنا العباس كان حيّاً في الدنيا أمَّا النبــيُّ ﷺ فقــد مات ، قد يقول أحد الجهلاء هذا القول ، وإن كنت قد أشرت إلى هذه الواقعة ورددت عليها في الإجابة على السؤال الرابع والأربعــين إلا أنَّني أُجدِّد القول فأقول : وما الفرق بين الحيِّ والميِّت مادام الفعَّــال هو الله ؟ ثمَّ إنَّ توسُّل سيِّدنا عمر بســيِّدنا العبــاس ــ رضــي الله عنهما ــ ؛ لأنَّه عمُّ النبيِّ ﷺ ، فما بالك لو توسَّل بالنبيِّ ﷺ ؟ وهــل سيِّدنا العباس ﷺ الحيُّ أفضل عند الله من النبيِّ ﷺ الميِّت ؟ وأخيراً إذا كان المطلوب هو الماء ، والماء هــو حيــاة للأجســاد ، فمــن الطبيعي أن نتوسَّل بجسد طاهر مثل جسد سيِّدنا العباس ﷺ لقرابته من النبيِّ محمَّد ﷺ ، وإذا كان في صلاة الاستسقاء نتوسَّل بمن هــو أقل في المرتبة ، فما بالك بمن هو أعلى في المرتبة ؟! هــذا مــن ناحية ، ومن ناحية أخرى التوسُّل بالنبيِّ ﷺ توسُّل جامع من خلالــه يقضي الله للعبد كلَّ حاجاته الدنيويَّة والأخرويَّة ، فالتوسُّــل بســيِّدنا العباس ﷺ توسُّل فرعيٌّ نابع من التوسُّل بالنبيِّ محمَّد ﷺ المُرْسَــل رحمةً للعالمين ، وتوسَّل سيِّدنا عمر بسيِّدنا العبــاس ــ رضــي الله عنهما ــ ليؤكِّد شرعيَّة التوسُّل عموماً بالصالحين ، بــل بالصــالح الأدنى مع وجود الأعلى ، فقد كان موجوداً في ذلك الوقــت ســيدنا عمر ﷺ نفسه الذي كان إذا ذُكر ، ذُكر العدل ، وإذا ذكر العدل ذُكــر الله ، وكان موجوداً أيضاً مَن هو أفضل مِنْ ســيِّدنا العبــاس وهــو سيِّدنا علي بن أبي طالب ﷺ أجمعين ، كما أنَّه توسَّل بــه لقرابتــه

للنبيِّ ﷺ ، فما بالك لو توسَّلنا بالأصل وهو النبيُّ ﷺ ، ولماذا يفرِّقون في التوسُّل بين الحيِّ والميِّت ، أليس الحيُّ والميِّت في حالة عجز تام أمَّام قدرة الله ، أم أنَّ هذه القدرة في حاجة إلى الحيِّ ، وكأنَّ التوسُّل به لحياته هو الذي سيقضي حاجة المتوسِّل ؟! إنَّ علَّة التوسُّل بشخص هو تقواه سواء أكان ميِّتاً أم حيّاً ، وتقواه هي علَّة حُبِّ الله له ، وحبُّ الله له هو علَّة قضاء المصلحة ، بل إنَّ في صلاة الاستسقاء توسُّل بمخلوقات غير عاقلة وبريئة بل بأطفال لا ذنب لهم ، ثمَّ إنَّني أواصل الردَّ على احتجاجهم بقوم سيدنا نوح عليه السلام ، وقد يقولون : لماذا ذكر الله قوم سيدنا نوح عليه السلام في القرآن ؟ أليس ذلك دليلاً على التحذير واحتمال سقوط أمَّة الإسلام فيما وقع فيه غيرهم ؟ وهذا ما أحدِّثك عنه في المعلومة الثالثة .

معلومة { ٣ }:

يا ولدي هذه الأمَّة هي الأمَّة الكاملة الدين ، التامَّة النعمة ، المحفوظة الكتاب ، المعصوم نبيُّها ، والمُصانة به ، والباقية ظاهرة إلى يوم الدين ، فكان لابدَّ أن تُعرض عليها جميع تجارب وأحوال الأمم السابقة المنسوخة كُتبها ، المحفوظة بالإشارة إليها من خلال القرآن الكريم ، فتتجمَّع جميع حسناتها في هذه الأمَّة التي هي خير أمَّة أخرجت للناس ، وتجتهد هذه الأمَّة أن تتجنب كلَّ سيئات الأمم السَّابقة ، والمؤكَّد أنَّ الله حافظ لهذه الأمَّة بحفظه لقرآنه وإظهاره لدينه على الدين كلِّه ، ورفع ذكر نبيِّه ﷺ واستمرار مُعجزاته في كلِّ عصر إلى يوم القيامة ، وبعث المُجدِّدين المُقتدين بالأسوة الحسنة ،

وستبقى راية التوحيد مرفوعة إلى يوم القيامة ، وسيبقى الصالحون من هذه الأمَّة يُترجمون عن توحيدهم لله بحبِّهم له ، ويترجمون عن حُبِّهم له بحبِّهم لرسوله ﷺ ، ويُترجمون عن حُبِّهم لرسوله ﷺ بحبِّهم للصَّالحين ، ويترجمون عن حُبِّهم للصَّالحين بحبِّهم للخلق أجمعين ، وبذلك يكونون خير أمَّة أُخرجت للناس ، وقد يتنطَّع أحدهم فيذكِّرنا بأنَّ النبيَّ ﷺ ذكر : أنَّ أمَّته ستنقسم إلى ثلاث وسبعين فِرقة ، واحدة في الجنَّة ، والباقي في النار ، وطبعاً يدَّعي أنَّ فِرقته ـ الفِرقة المُحذِّرة من زيارة أضرحة الصالحين ـ هي الفِرقة الناجية من النار ، نتمنَّى ذلك بتوبتها قبل الموت ، ولماذا لا تكون الفِرقة الناجية هي التي نجَّاها الله بالقرآن أو بشهادة القرآن في قوله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ {٦٢} ﴾ يونس ، أليست هذه شهادة من الله أنَّ هؤلاء هُم الفِرقة النَّاجية ؟ إذاً ألا يلحق بهم أحبابهم وزوارهم لله ؟ وأقول : لله ، ألا نلاحظ أنَّ مُحبِّي الصالحين وزوارهم لله بعيدون كُلَّ البُعد عن التفرُّق والإختلاف ؛ لأنَّهم الفِرقة المرحومَّة ؟ وفي قول الله إشارة إلى ذلك : ﴿ ... وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ {١١٨} إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ... {١١٩} ﴾ هود ، الفِرقة الناجية : هي الفِرقة التي لا تنقسم ولا يفصل الموت بين أبنائها : ﴿ ... فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً {٢٣} ﴾ الأحزاب ، فأفرادها السابقون قضوا نَحْبَهُم ، وأفرادها اللاحقون فيما بعد ينتظرون أن يلحقوا بإخوانهم شوقاً إليهم ، بل إنَّ الذين في برازخهم من إخوانهم في

انتظارهم بشوق تُعرض علـــيهم أعمـــالهم ، فـــإن وجـــدوا خيـــراً استبشـــروا ، وإن وجدوا غير ذلك طلبوا لإخوانهم في الدنيا الهداية كما هداهم ، هذه هي الفِرقة النَّاجية ، التي يأنس بعضُها بـــبعض ، يأنس الأموات بزيارة الأحياء ، ويشتاق الأحياء إلى لِقاء الأموات ، والفريقان في حياة الرضا بالله ربّاً ، وبالإســلام دينـــاً ، وبـــالقرآن إمـــاماً ، وبسيِّدنا محمَّد ﷺ نبيّاً ورسولاً، فهل هذه الأمَّة التي منهـــا هذه الفِرقة وهي جوهرها يُخشى عليها من عبادة الأوثـــان ؟! أيُّهـــا المُعترضون استغفروا الله وتوبوا إليه ، اطمئنُّوا أيُّها المُعترضون ، فقد قال رسول الله ﷺ : [وإني لست أخشى علـــيكم أن تُشـــركوا ، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تَنَافسوها] والحديث عـــن عُقبـــه بـــن عامر أخرجه ابن المُبارَك ، وذكره السيوطي في (جامع الأحاديث) المُجلَّد الثالث . النبيُّ ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى لا يخشـــى علـــى أمَّته الشِرك ، وهؤلاء المُعترضون يقولون : أنَّ الأمَّة سقطت فعـــلاً في الشِرك ، فيا تُرى مَنْ نصدق ؟ أَنُصدِّق الله ورسوله أم نُصـــدِّق هؤلاء ؟! وهل اتِّخاذ المسلمين من مقام إبراهيم مُصـــلًّى ، أي عنـــد الصخرة التي بُوركت بقدمي سيِّدنا إبراهيم ــ عليه الصلاة والسلام ــ أقول : هل هذا عبادة وثن ؟ هل هذا شِرك ؟ أم هو أمر الله في سورة البقرة ، بل قرأت في كتاب (حقيقة التوسُّل والوسيلة علـــى ضـــوء الكتاب والسُنَّة) وفي غيره : أنَّ الخليفة أبا جعفر المنصور ــ رحمه الله ــ سأل الإمام مالكاً بن أنـــس ﷺ وهما في مســـجد الرســـول ﷺ قائلاً : يا أبـــا عبد الله أأستقبل القبـــر الشريف وأدعـــو أمْ أســـتقبل

القبلة ؟ فأجابه الإمام مالك : (يا أمير المؤمنين ولِمَ تصرف وجهك عنه ﷺ وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة ، بل استقبله واستشفع به فَيُشَفِّعْهُ الله فيك) أليست هذه فتوى صريحة بإباحة الدعاء عند قبره الشريف ﷺ والتوجُّه بالدعاء إلى الله ، وفي الوقت نفسه التوجُّه بالوجه إلى رسول الله ﷺ تَوَسُّلاً به ؟! ويا تُرى أكانت فتوى الإمام مالك ﷺ عالِم المدينة دعوة إلى الشِرك في نظر هؤلاء ؟!

السؤال السادس والأربعون :

هل هناك واسطة بين العبد وربِّه حتَّى يلجأ المسلم للصالحين أو لزيارة أضرحتهم والطلب هناك ؟

الإجابة :

معلومة {1} :

يا ولدي الواسطة بين العبد وربِّه شرعها الله بدايةً كسبب للبلاغ والأسوة ، والله يقول : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَباً {٨٥} ﴾ الكهف ، وكلمة رسول نفسها تدلُّ على ذلك ، وتعني أنَّ الله جعل بينه وبين عباده واسطة للتبليغ والتعليم والأسوة ، ومن خلالها يتعامل العباد مع ربِّهم فيتلقَّوْن أوامره ونواهيه ، فالرسول ﷺ واسطة تبليغ وهداية إلى صراط مستقيم : ﴿ ... وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ {٥٢} ﴾ الشورى ، وهذه هي هداية التبليغ ، أمَّا هداية التوفيق فهي من الله مباشرة وحقيقة ، يقول الله مشيراً إليها : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ... {٥٦} ﴾ القصص ، والله ﷻ خلق للإنسان عينين وأذنين إشارة إلى عين الحقيقة وعين الشريعة ، وبهما يستطيع المؤمن أن يدرك العلم الصحيح ، فبعين الحقيقة يرى أنَّ الفعال الحقيقيُّ هو الله لا شريك له ، وبعين الشريعة يأخذ بالأسباب طاعة لأمره ، فالله بينَ العبد وبين كلِّ شيء ، وهو أقرب إليه من كلِّ شيء ، وهذه هي الحقيقة ، وكلُّ شيء مشروع محبوب لدى الله بين العبد وربِّه ، وهذه شريعة ، تدبَّر يا ولدي قول الله تعالى : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ... {٨٠} ﴾ النساء ،

أليس من معنى ذلك أنَّ الرسول ﷺ واسطة طاعة بيننا وبين الله ، ويستحيل طاعة الله كما شرع إلا من خلال النبيِّ محمَّد ﷺ ؟ ثمَّ إنَّ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ... {١٠} ﴾ الفتح ، أليس هذا يعني أنَّ البيعة ذات وجهين ؟

<u>وجه حقيقي</u> : وهو أنَّ الله بينهم وبين الرسول ﷺ ، ولولا إيمانهم به ما وضعوا أيديهم في يد الرسول ﷺ .

<u>ووجه شرعيٌّ مجازيٌّ</u> : هو أنَّ الرسول ﷺ بينهم وبين الله ، وبذلك تمَّت البيعة . ثمَّ إنَّ سؤالهم للنبيِّ ﷺ عن الله في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ... {١٨٦} ﴾ البقرة ، دليل على الواسطة المجازيَّة بيننا وبين الله الغني عن الواسطة ، وما شرعها إلا رحمة بنا ، ومن العجيب أن يحتجَّ المعترضون بهذه الآية في نفي الواسطة والتوسُّل ، يقولون : إنَّ الله لم يقل : (قُل إنِّي قريب) كما قال في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ... {٢٢٢} ﴾ البقرة ، ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ... {٢١٩} ﴾ البقرة ، وهكذا ، أولم يدرك هؤلاء أنَّ السؤال في مثل هذه الآيات عن أحكام شرعيَّة تستوجب القول والشرح ؟ من أجل هذا جاءت كلمة (قُل) ، أمَّا في أية الحضور في حضرة الله ويقظة الإحساس والشعور بوجوده لا تحتاج إلى كلمة (قُل) ، فبمجرَّد سؤالهم عن الله للنبيِّ ﷺ وهو أقرب عباده إليه ، جعلهم الله في حضرة رحمته أو أصبحوا مباشرة في حضرة القُرب ، ببركة سؤالهم للقريب من ربِّه عن ربِّه ، ونلاحظ أنَّ الله لم يعقِّب

مثلاً بما يفيد العتاب ؛ لأنَّهم سألوا النبيَّ ﷺ ، بل كافأهم بدخولهم في حضرة النبيِّ ﷺ حضرة القرب ، وكأنَّهم بمجرَّد سؤالهم أصبحوا في حضرة القرب ، يشير إلى ذلك قوله بمجرَّد سؤال : ﴿ ... فَإِنِّي قَرِيبٌ ... ﴾ وهذا جعلهم يشعرون بالحال وفي الحال بقرب الله ببركة رسوله ﷺ ، وليس معناها كما يتوهَّم هؤلاء أنَّها نفي محض للوسيلة والواسطة ، ولذلك في التشهُّد حيث حضرة الوصول بعد حضرة السلوك التي ابتدأت بتكبيرة الإحرام وانتهت بآخر سجدة ، أقول : في حضرة الوصول يكون المسلم في حضرة القُرب عقب السجود ، ولذلك يقول بعد الثناء على الله : (السلام عليك ــ بكاف الخطاب ــ أيُّها النبيُّ ورحمة الله وبركاته) فحضرة الله هي حضرة النبيِّ ﷺ ، وحضرة الصالحين من وراءه فهو إمامهم ، وإذا كان الله سمَّى أماكن سجود المؤمنين له بالمساجد وسمَّاها بيوته ، فما بالك بمكان فيه الساجد الأوَّل والمتقلِّب في الساجدين ، وهو أوَّل العابدين النبيُّ محمَّد ﷺ ؟ فحضرة النبيِّ ﷺ هي حضرة القرب ، والقريب قريب بمجرَّد دخوله في حضرة القريب التي يحظى بها الساجد الأوَّل ، وهذا هو المعنى الصحيح للآية ، فبمجرَّد سؤالهم عن الله لرسوله وحبيبه ﷺ شعروا أنَّهم في حضرة القُرب ، ولو كان الأمر كما يفهم المُعترضون لنهى الله عباده عن سؤالهم النبيَّ ﷺ ولو بإشارة عتاب لهم على ذلك ، ثمَّ إنَّ سؤال أصحاب خير القرون للنبيِّ ﷺ عن ربِّه وربِّهم شوقاً إليه ، ألا يدلُّ على أنَّهم اتَّخذوا الواسطة المشروعة المُباركة للمعرفة والقُرب ، وقد تحقَّق بذلك قُربُهم بقوله :

﴿ ... فَإِنِّي قَرِيبٌ ... ﴾ ؟ ثُمَّ أليس طلب الدعاء من الآخرين واسطة واضحة ؟ و هيَّا بنا يا ولدي لأشرح لك ذلك ، هيَّا بنا .

معلومة { ٣ } :

يا ولدي إنَّ الله شرع لنا أن نسأله بألسنة لم نعصه بها ، وأن نسأله بألسنة غيرنا ، وكذلك أكَّد نبيُّه ﷺ أنَّ دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مُستجابة ، أليست هذه صورة من صور الواسطة واتِّخاذ الواسطة حين يطلب المريض من رجل صالح أن يدعو له ؟ أليس الله أقرب إلى المريض من هذا الرجل الصالح ؟ نعم الله أقرب ، بل هو القريب ولا قريب إلا هو ، وكلٌّ مَنْ يقرِّبه قريب ، وجوهر مسألة الدعاء هو حالة الداعي أو المطلوب منه الدعاء ، فحين يختار المسلم مَن يدعو له في مسألة ما أو يطلب له من الله شيئاً لحُسن الظنِّ فيه أنَّه مُستجاب الدعوة أو مقبـــول عند الله ؛ لأنَّ فمه مخرج للكلمات الطيِّبة ، ومدخل للطعام الحلال الطيِّب ، أقول : حين يختار المُسلم ذلك ، أليست هذه واسطة بين المسلم وبين ربِّه ؟ أليس هذا العبد الصالح مُستجاب الدعاء اتَّخذه المسلم واسطة بينه وبين الله ليطلب منه له ؟ بل إنَّ المسلم مطلوب منه أن يختار الأماكن المقدَّسة والأزمنة الطاهرة من أجل الدعاء فيها ، فما بالك بالأحوال الطيِّبة ؟ لا شكَّ في أنَّ اختيار أصحابها ليدعوا لنا من الفقه ومن الدين ومن حُسن الظنِّ في الصالحين ، وهذه وساطة صريحة بين العبد وبين ربِّه ، والتوجُّه إلى الله بالدعاء بأكثر من لسان أرجى للإجابة ، وقد ذكر لنا رسول الله ﷺ أنَّ الدعاء بظهر الغيب مُستجاب ، فالأسباب

الطيِّبة الطاهرة والأمكنة والأزمنة المقدَّسة وأحوال الناس الصالحين كلُّها وسائل يُرجى بها الإجابة ، أليست الأمُّ واسطة نجاة لابنها بدعائها ورضائها عنه ؟ أليست شفاعة النبيِّ ﷺ وشفاعات الذين أنعم الله عليهم أليس معناها الوساطة ؟ بمعنى أنَّ الناجي لعصمته أو لحفظه ينضمُّ لمن يحتاج إلى أن يُفرِّج كربه ويُزال همَّه فيشفع له عند الله ، والناجي يأخذ بيد آخرين ، بل نلاحظ أنَّ الأعلى يطلب الدعاء من الأدنى كما طلب النبيُّ ﷺ من الفاروق عمر ﷺ أن يدعو له ، وقال له : [لا تنسانا من دعائك يا عمر] يطلب ذلك وهو الرحمة للعالمين ، ومن بين العالمين سيِّدنا عمر ﷺ ، فإذا كان الأعلى يُوسِّط الأدنى ليدعو له ويتوسَّل بالأدنى ليدعو له ، أليست هذه سُنَّة مارسها النبيُّ ﷺ وهو المتوسَّل به وهو الرحمة للعالمين وهو صاحب الشفاعة الكبرى ؟ ثمَّ يأتي هؤلاء المُعترضون ويقولـــون : لا واسطة ولا توسُّل ولا وسيلة ، يقولون ذلك بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ويقولون : إنَّ الله أقرب للعبد من حبل الوريد ، فلماذا يُوسِّط ؟ ولماذا نتوسَّل ؟ أليس الصالح عبداً مثلنا ؟ ثمَّ إنَّ الله لا يحتاج إلى واسطة ، إلى غير ذلك من الحجج ، ونسي هؤلاء أنَّ اتِّخاذ الواسطة أو الوسيلة ليس لأنَّ الله في حاجة إليها ، ولكن لأنَّ الله شرعها بداية حين أرسل الرسل ــ عليهم الصلاة والسلام ــ وختمهم بخاتم النبيِّين ﷺ وجعله رسولاً بينه وبين الناس كافة ، وأرسله رحمة للعالمين ، فاتَّخذه الصحابة واسطة بيعة لله ووسيلة طاعة له ، كذلك نجد فـــي قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ

لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ {٥١} ﴾ الشورى ، أليس هذا يعني أنَّ الله هو الذي رحم عبده باتِّخاذ الوسيلة والدخول من أبواب مشروعة فتحها لهم وأباح لهم التعلُّق بأسباب الخير ووسائل النجاة مع رؤية العقل الحقيقي لله ؟ وما هي إلا وسائط في قبضة الله وهبها لعباده رحمة بهم ، وليس هذا شركاً ، يقول الله : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ {٨٠} ﴾ الشعراء ، هل معنى ذلك أن لا أتَّخذ الطبيب وسيلة للشفاء أو واسطة للعلاج ؟ ألا يجب عليَّ كمؤمن أو كمسلم أن أنظر بعينين كما خلق الله لي عينين : عين أرى بها أنَّ الشافي هو الله وهي عين الإيمان ، وعين أنظر بها إلى الطبيب كوسيلة وكسبب وكواسطة تَلَقِّي عن الله وليس شركاً ؟ فلجوء الصغار للكبار ، والمرضى للأطباء ، والجهلاء للعلماء ، والضعفاء للأقوياء ، والفقراء للأغنياء ، والمذنبين للصالحين ، مع رؤية أنَّ الفعَّال هو الله ، وأنَّ هذه الأسباب والأبواب لا تملك لنفسها ضرّاً ولا نفعاً ، ولكنَّ الله لصلاحها واستقامتها وبما ملَّكها الله جعلها رحمة للناس مجازاً والرحمن الرحيم هو الله ، فالصالحون هم مصابيح نور الله ، وهم أوعية رحمة الله ، والتعامل مع هذه المصابيح والأخذ بهذه الأوعية ليس شركاً ، بل هي هدايا الله لا يرفضها إلا مُتكبِّر جبَّار وبنيان متهدِّم مُنهار ، إذاً التوحيد لا ينفي الواسطة شرعاً بل يؤكِّدها على أساس : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً {٨٤} فَأَتْبَعَ سَبَباً {٨٥} ﴾ الكهف ، فهذا عبد صالح عادل لجأ

إليه قوم مظلومون ، فأعانهم بما وهبه الله له من قدرات ، وقدرات الصالحين في صدق التوجُّه إلى ربِّهم مع قبوله لهم من أعظم القدرات التي يتوسَّل بها المسلم معتقداً أنَّها رحمة من الله ، بل إنَّ التوسُّل بالصالحين بعد موتهم أبلغ في الإيمان بأنَّ الله هو الفعَّال وليس المُتوسَّل به ؛ لأنَّ المؤمن المتوسِّل يعتقد بيقين أنَّ الحيَّ والميِّت من الصالحين يستويان في العجز أمام قدرة الله ، وإن كان الميِّت أكثر عجزاً لفقدانه الأسباب المشهودة ، من هنا كان التوسُّل به أبلغ ؛ لأنَّه بقدر عجزه وافتقاده للأسباب يمُدُّ الله عبده المتوسِّل بأسباب قضاء المصلحة تأكيداً لحبِّه للصالحين ، حتَّى يزداد المؤمنون في مرافقتهم .

معلومة { ٣ } :

يا ولدي هذا الدين الحنيف له حقيقة وله شريعة ، فالحقيقة : أن تجعل الله بينك وبين كُلِّ شيء ، وهذا في قلبك حيث توجد عقيدة التوحيد . أمَّا الشريعة : فهي أن تجعل كلَّ شيء مرضي عنه من قِبَلْ الله بينك وبين الله وهذا في ظاهرك ، وهذا الشيء المرضي عنه من قِبَلْ الله يظلُّ محبوباً لله في حياة العبد في الدنيا وفي برزخه ؛ لأنَّ المــوت لا يُنهي حُبَّ الله لعبده الصالح ولا يقطع صلة العبد بربِّه ، ومادام الفعَّال هو الله فيستوي أن يكون السبب حيّاً أو ميِّتاً ، بل إنَّ الميِّت أكثر حياة ؛ لأنَّه بلا غطاء ، أمَّا حيُّ الدنيا فمازال له غطاء ولم يُكشف بعد ، وقد يكون لصلاح صاحبه قد رقَّ فقط ، فما بالك بمن كشف الله عنه الغِطاء بالموت ألا يكون أكثر حياة وأحدَّ

سمعاً وبصراً وشعوراً وإحساساً وصلة بنا ؟ بل ورد أنَّ الأموات تُعرض عليهم أعمالنا فيطلبون لنا التوبة والهدى قبل الموت إن وجدوا ما لا يسرُّهم ، قال رسول الله ﷺ : [إنَّ أعمالكم تُعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات ، فإن كان خيراً استبشروا ، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهمَّ لا تُمتهم حتَّى تهديهم كما هديتنا] رواه الإمام أحمد في مسنده ، وعبد الرازق في مصنَّفه عن سفيان عن أنس بن مالك ، ورُوى مثل هذا الحديث عن جابر بن عبد الله وعن أبي أيوب الأنصاري ، وذكره الترمذي في مسنده عن النعمان بن بشير وعن أبي هريرة ﷺ . أبَعْد ذلك إذا خاطب المسلم رجلاً صالحاً في دنياه أو في برزخه واتَّخذ منه سبب خير وباب عطاء ووسيلة رحمة ومجرى مدد وسبيل رضا ، هل يكون مُشركاً ؟ من قال هذا ؟ وقد نسب الله أفعالاً كثيرة إلى الأسباب نسبة مجازيَّة لا حقيقيَّة ، فهل إذا أخذنا هذه الأسباب وتعاملنا معها مجازاً باعتبارها أسباب خير أنكون مشركين ؟ ألم يقرن الرزق بالأغنياء لدرجة أنَّه يقول لهم : ﴿ ... فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ ... {٨} ﴾ النساء ، مع أنَّه هو الرزَّاق ذو القوة المتين ، وفي آيــة أخرى في نفس السورة يقــول الله : ﴿ ... وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا ... {٥} ﴾ النساء ، فلو أنَّ فقيراً قال لغني من باب المجاز لا الحقيقة : ارزقني ممَّا أعطــاك الله ، أيكون مشركاً ؟! إنَّنا إذا قلنا مثل ما يقول المُعترضون لأصبح الوجود كلُّه مشركاً ، الأميُّ الذي يقول للقارئ : علمني ، والمريض الذي يقول للطبيب : عالجني ، والشقي الذي يقول للمهتدي : اهدني وهكذا ،

وعلى رأي المعترضين أكلُّ هؤلاء مُشركون ؟ والعلم الصحيح أنَّ الله إذا نسب صفة طيِّبة لمخلوق وخصَّ بعطاء نافع مخلوقاً ، فهذه إشارة للناس أن يستعينوا مجازاً بهذا المخلوق حتَّى يكون سبب خير لهم ووسيلة عطاء لهم وهكذا ، ألم ينسب الله الهدى لنبيِّه ﷺ نسبة مجازيَّة فقال : ﴿ ... وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ {٥٢} ﴾ الشورى ؟ بل ألم ينسب الضلال للأصنام حيث قال : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ ... {٣٦} ﴾ إبراهيم ؟ ألم ينسب الرزق للأغنياء حين قال للأغنيـــاء : ﴿ ... فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ ... {٨} ﴾ النساء ؟ فالحقيقة أن تجعل الله بينك وبين كلِّ شيء ، والشريعة أن تجعل الأشياء المشروعة بينك وبين الله ، فإذا أراد الصحابة أن يبايعوا الله جعلوا الله بينهم وبين النبيِّ ﷺ وهذا حال قلوبهم ، فالله أقرب إليهم من حبل الوريد ، أمَّا الشريعة أنَّهم إذا أرادوا البيعة لله فعليهم أن يتَّخذوا النبيَّ ﷺ بينهم وبين الله ، فيضعوا أيديهم في يده الشريفة وهذه هي الشريعة في دار الأسباب في هذه الدنيا ، ولذلك يقول الله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ... {١٠} ﴾ الفتح ، فالقرآن الكريم قائم على حقيقة أنَّ الله أقرب إليك من حبل الوريد فاجعله بينك وبين كلِّ شيء ؛ لأنَّه المحيط بكلِّ شيء ، ومن حيث الشريعة أنَّ كلَّ شيء مشروع وكلَّ شيء مرضي عنه يجوز أن تجعله بينك وبين الله مجـــازاً ، وفي ظاهر الأمر : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ... ﴾ شريعةً ، وقوله : ﴿ ... إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ... {١٠} ﴾ الفتح ، هذه حقيقة ، وهكـــذا في قوله :

﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ ... ﴾ هذه شريعة وواسطة طاعة ، وقوله : ﴿ ... فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ ... {٨٠} ﴾ النساء ، فهذه حقيقة ، وفي سورة الأنفال الآية السابعة عشرة فيها من الشريعة قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ... ﴾ ، بمعنى أنَّ قتلكم لهم كان شريعةً ولم يكن حقيقة ، أمَّا الحقيقة ففي قوله تعالى : ﴿ ... وَلَـكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ ... ﴾ ، كذلك ورد في هذه الآية من الشريعة قوله تعالى : ﴿... وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ... ﴾ لأنَّه نسبَ الرمي للنبيِّ ﷺ ، وفيها من الحقيقة قوله تعالى : ﴿ ... وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى ... ﴾ ، لأنَّه هو الرامي الحقيقي ، وكلُّها رموز فيها اختبار وابتلاء للمؤمنين وليكونوا على يقين من توحيدهم ، وهنا يتأكَّد للمسلم أنَّ اتِّخاذ السبب ونسبة الفعل له مجازاً لا يقدح في توحيده ولا يمسُّ إيمانه بالله ؛ لأنَّها نسبة مجازيَّة شرعها الله ، أمَّا ما في قلبه فلا يوجد إلا اليقين بأنَّ الله هو الفعَّال الحقيقي ، وعلى ضوء هذه الحقيقة فإنَّ اللحاق بالصالحين والدخول في الصالحين سواء أكانوا في بيوتهم أم في برازخهم والطلب من الله متوسِّلين بهم أو من خلالهم فهو شيء مشروع ، ولو كانت صلتنا بالأموات وبخاصَّة الصالحون قد انقطعت بموتهم لما شرع لنا زيارتهم والسلام عليهم ، وكيف تنقطع ونحن أمَّة واحدة ، ونحن أحياء الدنيا وهم أحياء البرزخ ؟ نزورهم وأعمالنا تُعرض عليهم ويأنسون بنا ونذكرهم بخير فيحسُّون بنا ، وإذا كنَّا نسلِّم عليهم ويردُّون فلا نسمع ردَّهم ؛ فلأنَّنا مازلنا نعيش بغطائنا الذي يحجبهم عنَّا ، وهم قد كُشِف عنهم غِطاؤهم ، فهم يسمعوننا ولا نسمعهم إلا

في حالات معيَّنة خصَّ الله بها بعض عباده الصالحين الذين رقَّ غطاؤهم وقد يروننا ولا نراهم ، ويحسُّون بأعمالنا ولا ندرى نحن ما يحدث لهم ؛ لأنَّهم أكثر حياة وأحدُّ بصراً وسمعاً وأشدُّ شعوراً وإحساساً ، بعد ذلك أيحقُّ للمعترضين أن يصوروهم لنا على أنَّهم جُثث في طريقها إلى النسيان ؟ وكأنَّ الإنسان مجرَّد كتلة من العظم واللحم والدم والشحم فانية ، مع أنَّ هذه هي الصـــورة لا الأصل ، وإذا كان المشركون في قبورهم قال عنهم خاتم النبيِّين ﷺ للصحابة : [... ما أنتم بأسمع منهم] فما بالنا بالأولياء الصالحين ؟! كم يكون سمعهم وبصرهم وإدراكهم وإحساسهم وشعورهم في برزخهم ؟! وكم يكون الشقي في حفرة من العذاب والضيق ؟ وكم يكون التقيُّ في روضة من النعيم والسعة وجميعهم يسمعون ويبصرون كلٌّ على قدر سعته وضيقه ؟ ثمَّ إنَّ إجابة الأموات لمخاطبة أحياء الدنيا إجابة غيبيَّة وروحيَّة لا تُسمع بأُذُن البشر إلا في حالات مُعيَّنة يكون فيها غطاء حيِّ الدنيا رقيقاً شفَّافاً كغطاء سيِّدنا علي ﷺ الذي قال ما معناه : (لو كُشف الغطاء ما ازددت يقيناً) فالله قادر أن يُسمِعَ مَن يُسمِع ، ويُعجِزَ مَنْ يُعجِز عن أن يسمع ، ولكن اليقين أنَّ الميِّت يسمع بدليل أنَّـــه شُرِعَ لنا أن نزور الأموات ونسلِّم عليهم ونخاطبهم ، بل إنَّ النبيَّ ﷺ خَاطَب موتى المشركين ، وأعلن أنَّ أحياء الدنيا ليْسُوا بأسمع منهم ـــ أي من موتى المشركين ـــ فما بالك بموتى المؤمنين ؟ وما بالـــك بالأولياء وقبلهم الأنبياء المنقولين ؟ إذاً هنا صلة بين أحياء الدنيا وأحياء البرزخ ، فالأموات

يأنسُون بزيارة الأحياء ويسمعون أقوالهم ، بل يحسُّون بمشاعرهم ونيَّاتهم ، ومَن رقَّ غِطاؤه من أحياء الدنيا قد يُدرِك شيئاً بكشف الله له من أحوال الأموات ، وهذه هي عقيدة المؤمنين في زيارتهم لأمواتهم ، فالموت ليس إعداماً للأموات وإنَّما هو إحياء لهم الحياة البرزخيَّة التي تحررت من الغطاء الذي كُشِف عن الميِّت بالموت ، وإذا كان الموت نقل الإنسان إلى حياة أوسع وأقرب إلى الله ، وشعورهم بنا أقوى وسمعهم لنا وبصرهم أحَدَّ ، ألا يُشجِع هذا أمثالنا المؤمنين إلى زيارة صالحيهم ومَن نُحسِن الظنَّ بهم ؟ بل نطالبهم بالدعاء لنا ، بل هم يدعون لنا بالفعل وبدون طلب منا حين تُعرَض عليهم أعمالنا ، فما بالنا لو طَلَبنا ؟ أليس الله الرحمـٰن الرحيم الودود هو الذي شرع هذه الصلة لتظلَّ هذه الأمَّة هي الأمَّة المتآلفة المُتواصلة التي لا يفصل الموت بين أبنائها ؟ وهذه العقيدة إن دلَّت على شيء إنَّما تدُلُّ على الصلة الوثيقة بيننا وبين الآخرة ، وتبعث في قلوب المؤمنين والمُحبين للصالحين الاطمئنان أنَّ الأموات أحياء ولم تنقطع صلاتهم بهم ، وأنَّ أمواتهم بموتهم غابوا فقط عن أعينهم وأسماعهم المقيَّدة بالغطاء ، وأنَّهم موجودون نؤمن بوجودهم بالغيب ، بدليل زيارتنا لهم ومخاطبتنا لهم ، ألم يشرع الله ورسوله أن نلقِّن الميِّت كلاماً طيِّباً ورد في السنَّة ، وأنَّه إذا سُئل عن دينه وعن كتابه وعن رسوله يقول : كذا وكذا ؟ أبعد ذلك كلِّه يريد هؤلاء أن نكفر بالآخرة وأن نقطع صلتنا بعَالَم الغيب الذي هو أصل عالم الشهادة ؟ بينما عالم الغيب وعالَم الشهادة عالَم

واحد كعُملة واحدة لها وجهان : وجه الشهادة المقيَّد ، ووجه الغيب المُطلق ، فالشهادة فرع ، والغيب أصل ، وإذا غاب الفرع عن الأصل انقطع وجوده ولم يَعُدْ له وزن ، ومن ليس له وزن في الدنيا من حيث إيمانه بالغيب وصلته بالغيب فإيمانه مهلهل ولا يصلح أن يُنصِّب نفسه مفتياً بدون روح ؛ لأنَّ الروح هي حلقة اتِّصال الشهادة بالغيب ، ومادام فاقداً للروح فشهادته لا وزن لها وليس لها غاية إلا الفتن بقصد أو بدون قصد . أدعو الله أن يُلهم الجميع الصواب ، والصواب هو الحقُّ ، والحقُّ ظاهر ، والباطل زاهق ، والله حــقٌّ : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {٣} ﴾ الحديد .

خـاتمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

يا ولدي العبد الفقير إلى الله يختم هذا الكتاب الثاني من كتب (الشـجرة الطيِّبة) بخاتمة أعلِّق فيها على بعض الفتاوى التي قرأتها ، وظنِّي في العلماء أنَّهم مجتهدون ، والمجتهد من العلماء سواء أصاب أم أخطأ فله أجره ــ إن شاء الله ــ مادام يقصد وجه الله ، فظنِّي دائماً بهم حسن طيِّب ، وثقتي فيهم ثابتة ، وحبِّي لهم مع توقيري لهم ليس مجرَّد جزء هام من خُلقي فقط ، بل هو جزء هام من عقيدتي ، ولو أفتى أحدهم أو بعضهم بما لا أطمئنُّ إليه وعندي الدليل في مواجهة هذه الفتوى ، فليس معنى ذلك مخاصمة للعلماء ، بل تأكيد حقيقة في الإسلام وقاعدة حريَّة الرأي مع طهارة القلب ، ومن هنا يكون الدليل هو السيِّد والبرهان هو المرجع ، والنصُّ القرآني والنصُّ النبوي فوق الجميع يُبارك كلَّ دليل ، ويُظهر الحقيقة بكلِّ برهان ، ولقد قرأت في أحد كتب الفتاوى لعالِم من العلماء ، بل هو الإمام في مجتمعه والمعتبر عند كثير من المسلمين ، قرأت له فتوى حول ما رُوي عن الإمام الرفاعي ومصافحته ليد النبيِّ ﷺ عند قبره الشريف بعد أن قال هذين البيتين فخرجت يد النبيِّ ﷺ فصافحها ، وهذان البيتان هما :

في حالة البُعد روحي كنت أُرسلها تُقبل التُرب عنِّي وهي نائبتي

وهذه دولة الأشباح قد حضرت فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

وهو في فتواه يُكذِّب هذه الحدث تكذيباً قاطعاً ، وكان الأجدر أن يقول : إنَّه ليس لديه دليل على ذلك ، والعلم في هذه المسألة متروك لله وحده ،

ثمَّ إنَّه ساق بعض الأحاديث النبويَّة الصحيحة ، وهذا ما أقدِّره في مثـل هذا العالِم أنَّ فتواه وفتوى أمثاله تعتمد على أحاديث صحيحة ، بصـرف النظر عن التجاوزات عند بعضهم ، ولكن المشكلة في فهم هذه الأحاديث الفهم الروحي الخُلقي الذي من خلاله أنطق الله لسان النبيِّ ﷺ بها ، فهي ليست مجرَّد ألفاظ جافة أو حُجباً جامدة ، بل هي ومضات من نور النبوَّة تصل عالَم الشهادة بعالَم الغيب وصلاً يُعمِّق إيماننا بالتوحيـد وإيماننـا بالآخرة ويُنمِّي حبًّا للنبيِّ محمَّد ﷺ سفينة النجاة ، ومن هذه الأحاديث :

حديث أوَّل : [إنَّ لله ملائكة سيَّاحين في الأرض يُبلِّغـوني مـن أمَّتـي السلام] من حديث عبد الله بن مسـعود ؓ ، وهـو صـحيح أخرجـه النسائي وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع .

حديث ثانٍ : [ما من أحدٍ يُسلِّم عليَّ إلا ردَّ الله عليَّ روحـي حتَّـى أردَّ عليه] أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة ؓ ، وحسَّنه الألباني فـي صحيح الجامع .

حديث ثالث : [إنَّ خير أيَّامكم يوم الجُمعة ، فأكثروا عليَّ الصـلاة فيـه فإنَّ صلاتكم معروضة عليَّ] قالوا يا رسول الله : كيف تُعـرض عليـك وقد أرمت ؟ قال : [إنَّ الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبيـاء] صحيح ، أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه مـن حـديث أوس بـن أوس ؓ ، وصحَّحه الألباني .

ولم يرد أنَّ رسول الله ﷺ قال : إنَّه يمكن أن يُصافح أحداً بعـد موتـه ، ممَّا يدلُّ على بطلان أنَّ الإمام الرفاعي صافحه عند زيارته في قبـره ، وممَّا أدهشني أنَّه ختم فتواه بقوله : ولو فُرِضَ أنَّ هذا قد حـدث فهـو

من الشيطان للتلبيس عليه ـ أي على الإمام الرفاعي ـ ، هذا مُلخَّص أو مُعظم ما ذكره الشيخ مُفتي إحدى البلاد العربية في كتاب (فتاوى أهل الحرم) نفعنا الله بهم ، وكما قلت في مقدِّمة الردِّ إنَّني لا أُنقص أبداً من قدر هذا العالِم ولا من قدر غيره ، ولا أُشكِّك في قصده أو نيَّته ؛ لأنَّه عالِمٌ مُجتهدٌ ، وإنَّما أردُّ العلم بالعلم ، وهذا فرض عين مادام بالدليل والبرهان ، وبعد ذلك أقول : (الله أعلم) .

أوَّلاً : ثبت بالحديث الأوَّل الذي ذكره فضيلة الشيخ أنَّ للنبيِّ ﷺ وجوداً حيّاً ملموساً ؛ لأنَّ الملائكة لا تُبلِّغ السلام ويتلقاه منهم إلا حيٌّ يُرزق ، وإذا كان الشهيد حيٌّ يُرزق ، فما بالك بمن هو فوقه وهو الصدِّيق ؟! وإذا كان الأمر كذلك فما بالك بمن هو فوق جميع النبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين ، والمُندرج في نبوَّته جميع النبوَّات وصلى بهم جميعاً إماماً ليلة الإسراء والمعراج ؟! إذاً هذا الكائن الواحد الذي يوحِّد الواحد له وجود حيٌّ يمكن التعامل معه ، تُعرض عليه أعمالنا ، فإن وجد خيراً حمد الله ، وإن وجد غير ذلك استغفر لنا الله ، كما أنَّنا نُلقي عليه السلام في كلِّ صلاة بكاف الخطاب حين نقول في كلِّ تشهُّدٍ : (... السلام عليك أيُّها النبيُّ ورحمة الله وبركاته ...) .

ثانياً : ثبت بالحديث الثاني الذي ذكره فضيلة الشيخ أنَّ روح النبيِّ ﷺ يردُّها الله إلى ذاته الشريفة في قبره ، فيُحدث فيه حياة خاصَّة قريبة يشعر بها الذي يسلِّم عليه عند قبره الشريف بالذات حتَّى يردَّ عليه السلام مباشرة وهو قائم في الروضة الشريفة ، وهذا وجود حيٌّ أبلغ من الوجود الحيِّ المُشار إليه في الحديث الأوَّل ، ففي الحالة الأولى

وصول السلام إليه بطريقة غير مباشرة ، أمَّا في الحالة الثانية فوصوله يكون مباشراً ؛ لأنَّ المسلم في الروضة الشريفة ، ممَّا يدلُّ أنَّ القرب من حيث المكان مع وجود الحال الأرْقى لشرف المكان له تأثير في أحوال الذين يُسلِّمون على النبيِّ ﷺ ، وبذلك تتفاوت الحالتان من حيث السلام ووصوله والردِّ عليه من حيث أحوالهم هُم لا من حيث حاله ﷺ .

ثالثاً : ثبت بالحديث الثالث الذي ذكره فضيلة الشيخ أنَّ ذات النبيِّ ﷺ لا تفنى بل تبقى فلا تأكلها الأرض ، ألا يترتَّب على ذلك أن يوجد تساؤل هو : لماذا لا تأكلها الأرض وهي لحم ودم وعظم وشحم ومن الأرض ؟ وما دورها بعد رجوعها إلى الأرض ؟ أليس هذا وجوداً مادياً محسوساً للنبيِّ ﷺ ؟ أليس هذا معناه أنَّنا إذا فتحنا قبره الشريف نجد أنَّه بكماله الجسدي كما مات منذ مئات السنين ؟ وما معنى ردُّ روحه إليه ﷺ ؟ وحين تُردُّ إليه ماذا يحدث لذاته الشريفة ﷺ ؟ وحين تردُّ روحه إليه ﷺ ماذا يحدث لزائره من حال ؟ ألا يختلف الأمر بين حال وحال ؟ وإذا كانت ذاته البشريَّة باقية كما هي لم تأكلها الأرض بإذن ربِّها ، وإذا كانت روحه تردُّ إليه ، وإذا كان سلام زائره في قبره يُنقل إليه سلاماً مباشراً باعتباره قائماً في الروضة الشريفة ﷺ ، وإذا كان ﷺ له أذن يسمع بها السلام ، وله لسان يردُّ به السلام ، وهذا كلُّه بإذن الله وقدرته ، فلماذا نستبعد أيُّ تصرُّف من بقيَّة ذاته الشريفة ﷺ ؟ إذا كان يسمع ويُبصر زائره ، فماذا يمنع من مصافحته لزائره ﷺ ؟ هل بعض حواسه تعمل وبعضها مُعطَّل وهو الكامل حِسّاً ومعنى ﷺ ؟ وإذا كانت المسألة غامضة بالغة الرسوخ لم نرتقِ لمستواها فلماذا لا نُكِل العلم بها

إلى الله فنقول : (الله أعلم) سواء أكانت قد حدثت أم لم تحدث ؟ وفي هذه الحالة نُصبح معذورين وبدون إدانة وبدون حرج مع رسول الله ﷺ ثمَّ إنَّ المسألة تتعلَّق بحال الذي يُسلِّم عليه ، وإذا كانت الذوات البشريَّة الأقل في الرتبة من ذات النبيِّ ﷺ كان لها وجود حيٌّ يُشير إليه القرآن بعد موتها أو غيابها عن الدنيا كأهل الكهف ، وكعُزير ، وموتى سيِّدنا عيسى المسيح عليه السلام الذين ردَّهم الله إلى الدنيا بعد ردِّ أرواحهم إليهم ، وهل هناك حياة ملموسة دون أن تردَّ الروح إلى ذاتها البشريَّة ، وإذا رُدَّت إلى ذاتها البشريَّة أيُستبعد أن تكون لهذه الذات تصرفات من خلال أعضائها وحواسها ؟! ولماذا ننكر ذلك والمُحرِّك لها هو الله ؟! وهل نسينا مقتول بني إسرائيل حين ردَّه الله إلى الدنيا بضربة بقطعة من بقرة مذبوحة ؟! فما بالنا بخاتم النبيِّين ﷺ الذي حياته أوسع تَسَع جميع صور الحياة ، وروضته واسعة تَسَع جميع الروضات ؟ وأعجب كلَّ العجب ممَّا ورد في الفتوى حول أنَّ المصافحة المُشار إليها بين النبيِّ ﷺ والإمام الرفاعي قد تكون من تلبيس إبليس عليه ـ أي على الإمام الرفاعي رضي الله عنه ـ ، هذا الرجل المشهور بالعلم والعمل والتقوى والالتزام بشريعة الله ، والمشهود له بكلِّ خير ، وهل يوجد شيطان في الروضة الشريفة أو عند قبر النبيِّ ﷺ ؟! وكيف يكون ذلك والشيطان مُحرَّمٌ عليه أن يتمثَّل بالنبيِّ ﷺ حتَّى من خلال رؤيا يراها المسلم ؟! فقد قال ﷺ : [من رآني في المنام فقد رآني ، فإنَّ الشيطان لا يتمثَّلُ بي] عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ ، فما بالك في حالة اليقظة وفي حالة ردِّ الروح إلى ذاته ﷺ ؟! وهل لردِّ الروح إليه كما ذكر ﷺ في

حديثه الثاني الذي ذكره الشيخ معنى غير ردِّها إلىٰ ذاته ؟ بل هناك حديثٌ يُشير إلى رؤيته ﷺ في اليقظة هو : [من رآني في النوم فسيراني في اليقظة ، لا يتمثل الشيطان بي] أخرجه البخاري وأحمد وأبو داود . وقد ذكر الإمام عبد الله بن أبي جمرة في مختصره حول قوله ﷺ في حديثه : [... فسيراني في اليقظة ...] : (أي أنَّ العبد بعد أن يراه في منامه يراه في دنياه) ، وكذلك قال الإمام السيوطي : (فلا يُستبعد أنَّ الإمام الرفاعي قد رآه عدَّة مرَّات في منامه ، وتحقَّقت رؤيته له في يقظته) وهذا ما ذكره العلماء ، غفر الله لفضيلة الشيخ هذه السقطة ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ معصوم في محياه وفي مماته ، والشيطان يحترق لو اقترب من روضته أو قبره ﷺ ، ولعلَّ خلفاءه يصحِّحون هذا الخطأ الذي جعل من الروضة مجالاً يظهر فيه الشيطان الرجيم ، وسيكون ذلك بِرّاً بإمامهم الذي له حقٌّ عليهم بل وعلينا ، ومن أجل هذا كتبت هذه السطور ، ولا ننسى ليلة الإسراء والمعراج حين قابل ﷺ ـ وهو مازال في عالَم الشهادة ـ الأنبياء في المسجد الأقصى وهم في عالَم البرزخ وهو أول منازل الآخرة ، وحدث بينه وبينهم ما حدث من مُشاهدة وكلام طيِّب ، وصلَّى بهم إماماً ، وإذا كان الله مكَّن له وهو في عالَم التقييد أن يصل عالَم الغيب ويتعامل معه ، ألا يُمكِّن له وهو في عالَم الإطلاق أن يصل عالَم الشهادة ويتعامل معه وبخاصَّة مع رجل تقيٍّ نقيٍّ مثل الإمام العالِم الولي / أحمد الرفاعي الذي كان قاب قِوسين أو أدنى من عالَم البرزخ من حيث حاله ؟! أمَّا عن الفتوى بخصوص التوسُّل واعتباره في فتوى فضيلة الشيخ شِركاً ، وأنَّ المتوسِّل مُشرك لا يُغسَّل ولا يُصلَّى

عليه ، ولا يدفن في مقابر المسلمين ، فقد تكلمت كثيراً في هذا الكتاب عن التوسُّل وأحبُّ أن يُفرِّق المؤمن بين الأولياء لله أو أولياء الله وأولياء من دون الله ، فالشرك يكون شركاً إذا تعلَّق المرء بأولياء من دون الله ، أمَّا التعامل مع أحباب الله وهم أولياء الله فتعامل مشروع ؛ لأنَّ المؤمن على يقين أنَّ الفعَّال هو الله ، وأنَّ وليَّ الله لا حول له ولا قوَّة ، وأنَّ المؤمن يتعامل معه تفاؤلاً بحبِّه لله وحبِّ الله له ، كما يكون الابن باراً بوالديه يطلب منهما الدعاء ، وهو حريص على رضاهما ، فما بالك بمن يصله بالنبيِّ محمَّدٍ ﷺ من أولياء وعلماء سواءٌ أكانوا في حياتهم الدنيويَّة حيث الغطاء أم في حياتهم البرزخيَّة حيث لا غطاء إلا غطاء أحياء الدنيا والنفوس المريضة ، حيث إنَّ غطاءهم كثيف يحجبهم عن أحباب الله ، أمَّا من حيث إنَّ النبيَّ ﷺ لا يعلم الغيب وكذلك جميع الأنبياء والأولياء ، فما بالك بغيرهم ؟! فهذا ليس على الإطلاق ؛ لأنَّ الله يقول : ﴿ ... وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء ... {٢٥٥} ﴾ البقرة ، إذاً الباب مفتوح بمشيئة الله ، ومن يستطيع أن يسبق النبيَّ محمَّداً ﷺ في هذا بمشيئة الله ؟! لأنَّ الله وحده هو الذي يعلم الغيب ولا شريك له في ذلك على الإطلاق ، ولكنَّ الله يقول في آية الكرسي : إنَّه بمشيئته قد يُجلِّي شيئاً من غيبه في مرآة مَن يشاء من عباده ، وهل هناك أوثق من عبوديَّة النبيِّ محمَّد ﷺ لربِّه ؛ لأنَّه هو أوَّل العابدين ؟! فكم يكون علمه ؟! نعم مستحيل أن يحيط أيُّ عبد بشيء مِن علم الله مِن تِلقاء نفسه ، وأوَّل مَن يقوم بهذه الحقيقة هو أوَّل العابدين وأوَّل المسلمين ﷺ ، فهو أصلاً لا يعلم الغيب على الإطلاق وهذه قمَّة

الأدب مع الله ، ومن التوحيد أن نصدق الله في قوله فلا ننفي علم العبد بالغيب بإذن الله وبخاصَّة النبيُّ محمَّد ﷺ ، ثمَّ إنَّ التوسُّل بالرجل الصالح سواء أكان حيّاً أم ميِّتاً ليس بذاته ولكن بما حلاه الله به من تقوى لا تفنى بالموت ، بل تكون تقوى جليَّة بدون غطاء في روح المؤمنين يحسُّون بها بالنسبة للوليِّ الصالح وهو في برزخه ، فالتوسُّل بالسرِّ الذي في روحه ، وبالنور الذي في قلبه ، وبالعلم الذي في عقله ، وبالعمل الصالح الذي في جسده ، وبالكلمة الطيِّبة التي في فمه من حاله ، أليس هذا زاد التقوى ولباس التقوى ذلك خير ؟! وهو في الوقت نفسه أعظم ما فيه أنَّه لا حول له ولا قوَّة إلا بالله ، وهذا هو عين التوحيد ، فنتوسَّل إلى الله بحبِّه وزيارته وطلب الدعاء منه والفعال هو الله ؛ لأنَّنا نؤمن بحياة الآخرة التي حياة البرزخ أوَّل منازلها ، والدليل على حياة الأموات في برازخهم مشروعيَّة زيارتهم والسلام عليهم ، وبدليل أنَّنا في كلِّ صلاة نسلِّم على النبيِّ ﷺ ، فكيف يكون ذلك شركاً والتوسُّل إلى الله بكلِّ شيء مرضي عنه سواء أكان فعلاً أم فاعلاً أم معنىً لا يُنكره الشرع ؟! وإلا ما معنى تصرُّف الصحابة في تسابقهم على شعره وعرقه ﷺ ؟! ثمَّ إنَّ صلاة الاستسقاء وصحبة البهائم والأطفال في أثناء أدائها ؛ لأنَّها مخلوقات بريئة ساجدة لله ، هل هذا شرك أم أخذ بالأسباب المشروعة وإتيان البيوت من أبوابها ؟! كذلك يستنكر الشيخ القول : بأنَّ النبيَّ ﷺ من نور ، وهذه حقائق لا ينبغي إنكارها ؛ لأنَّها لا تتعلَّق بمجرَّد بشريَّته المقيَّدة ﷺ بالمكان والزمان ، وليس من المعقول أنَّ النبيَّ محمَّداً ﷺ هو أوَّل خلق الله من حيث

بشريَّته التي عاشت حوالي ثلاثاً وستين سـنة معروفـة للجميـع ، ولا يقول بذلك عاقل ، وإن كان العلم الحديث أثبت أنَّ هذا الكـون المـادي مكون من ذرَّات هي أصغر مكوناته تقريبـاً ، وأنَّ الـذرَّة مـن سـالب وموجب ، أي أنَّها نور ، فما بالك بذرَّات ذات النبيِّ محمَّـد ﷺ أشـرف وأطهر مادة في الكون ؟! منذ خلقه وبشريَّته أنقى وسط نـوراني بلغـة العلم الحديث ، ولذلك كان الصحابة يتنافسون على جمع شعره وعرقـه وهي من إنتاج بشريَّته ، وعلى كـلِّ حـال لا داعـي أن نلتفـت لهـذا الاكتشاف الحديث لحقيقة المادة أو أصل المادة ، ولنرجع لأشرح معنـى أنَّه أوَّل خلْق الله ومعنى كونه من نور أو كونه نوراً ، فهـو أوَّل خلـق الله خُلقاً و ودرجةً ورتبةً ، فهو أوَّل العابدين وأوَّل المسـلمين ، ومـن يجرؤ أن يُنكر ذلك وكلُّ النبوَّات فرعيَّة وشـرائعها منسـوخة ونبوَّتـه أصليَّة وشريعته باقية ، وهي مرسلة لكلِّ مكان وزمان وحال ، مَـن أوَّل الرحماء من الخَلْق حتَّى أنَّه رحمة للعالمين ؟ مَن أوَّل الكرمـاء ؟ مَـن أوَّل ... ؟ ومَن أوَّل ... ؟ وليس أوَّليَّته مِن حيث المكان والزمان ولكـن من حيث الحال الذي يستغرق كلَّ مكان وزمان ، ثمَّ إنَّه من حيـث إنَّـه متخلِّق بالقرآن والقرآن نور ، أليس بذلك هـو السـراج المنيـر ﷺ ؟! وأتـرك الفرصـة لجميع العلماء أن يشرحوا لنا معنى : ﴿ ... وَاتَّبَعُـواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ ... {١٥٧} ﴾ الأعراف ، فهو مـن حيـث علـوِّ مقامه متلبس بنور الله ونازل معـه حتَّى سمَّاه : (السراج المنيـر ﷺ) وهل هناك علاقة تصلنا بالنبيِّ محمَّد ﷺ إلا من حيث نبوَّتـه ورسـالته ورحمته للعالمين ؟! وأعظم ما فيه عبوديَّته لله ومكـارم أخلاقـه مـع

العالمين ، ولا أدري لماذا يغفلُ الناس عن معناه ﷺ ويُحملقون في مبناه منفصلاً عن معناه ؟ وهل هناك مصباح منير منفصلة ذاته الزجاجيَّة عن التيار الكهربي ؟ ولا شكَّ في أنَّ الروح سابقة للجسد ، فهل يُتصوَّر لو اجتمعت الأرواح هل تستطيع أيَّة روح أن تسبق روحه ﷺ في الرتبة ؟! كذلك بالتالي لو اجتمعت الأجساد هل يجرؤ جسد أن يسبق جسده ﷺ ؟! وقد تجلَّى ذلك بوضوح ليلة الإسراء والمعراج حين قدَّمه الله بذاته بوجهيها الروحي والبشري ليكون إماماً لأشرف خَلْق الله وهم الأنبياء ، رغم أنَّه كان مازال في عالَم الشهادة الذي تبرز فيه المباني وتنطوي فيها المعاني ، قدَّمه الله على ذوات الأنبياء بمعناه ومبناه سواء أكانوا هُم بمعانيهم وأرواحهم أم بذواتهم الأثيريَّة أو الترابيَّة ، حيث إنَّ الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء أوْ بأيَّة صورة ، فما معنى ذلك ؟ أليس ذلك معناه أنَّه أوَّل الخلق من حيث رتبته بدون منازع ؟ أمَّا مِن حيث إنَّ الله خلق الأشياء من أجله فهذا حقٌّ رغم أنَّ فضيلة الشيخ استنكره في فتواه ، يدلُّ على ذلك قول الله : ﴿ ... رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ {١٩١} ﴾ آل عمران ، إذاً كلُّ شيءٍ خلقه الله خلقه حقّاً لا باطلاً ، وما الحقُّ إلا توحيد الله والأدب مع الله وحبِّ الله وعبادة الله والتخلُّق بأخلاق الله ، ملخَّص القول : إنَّ الله أقام هذا الكون رحمةً وعدلاً وحكمةً ، وكلُّها معاني تجلَّت في الذات المحمَّديَّة ، وهل بُعث بغيرها رحمةً للعالمين ﷺ ؟! .



مراجع كتاب الشجرة الطيِّبة

(الكتاب الثاني . الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨ م)

{١} القرآن الكريم .

{٢} موسوعة الحديث الشريف ، الكُتُب التسعة (البخاري ، مُسلِّم ، الترمذي ، النسائي ، أبو داود ، ابن ماجه ، أحمد ، مالك ، الدارمي) .

{٣} كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ، قسم العبادات ، وزارة الأوقاف .

{٤} جميع كُتب فضيلة الشيخ / محمَّد زكي إبراهيم ــ رحمه الله ــ رائد العشيرة المحمَّديَّة .

{٥} التبصير في البناء على القبور ، للدكتور / محمَّد الفاتح أحمد مرزوق .

{٦} التوسُّل بالأنبياء والصالحين ، للأستاذ الدكتور / حسن الشيخ الفاتح الشيخ قريب الله ، دار الجيل ــ بيروت .

{٧} حقيقة التوسُّل والوسيلة على ضوء الكتاب والسُّنَّة ، تأليف / موسى محمَّد علي ، دار التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع .

{٨} فتاوى البلد الحرام ــ الحرم المكي ، لمجموعة من العلماء ، المكتبة التوفيقيَّة ــ بمصر .

{٩} كتاب الشجرة الطيِّبة الكتاب الأوَّل ، للفقير إلى الله أحمد البِسْقِي الأوَّل بن مصطفى .

فهرست كتاب الشجرة الطيِّبة (الكتاب الثاني) الطبعة الثانية

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	الطريقة الجامعة	٣
٢	مقدمة كتاب الشجرة الطيِّبة (الكتاب الثاني) الطبعة الثانية	٦
٣	س٤١ : مُتعلِّق بمَن يُحرِّمون وجود مقابر الصالحين في المساجد	١٢
٤	س٤٢ : مُتعلِّق بمَن يدَّعون أنَّ أئمة المذاهب الأربعة يُحرِّمون ذلك أيضاً	٢٣
٥	س٤٣ : مُتعلِّق بمنعهم الصلاة في مسجد فيه قبر رجل صالح	٦٠
٦	س٤٤ : مُتعلِّق بمَن يحرِّمون إقامة الأضرحة وكل ما يتعلَّق بها	٧٦
٧	س٤٥ : مُتعلِّق بمَن يحتجُّون بقوم نوح في منع إقامة الأضرحة	١٥٣
٨	س٤٦ : هل هناك واسطة بين العبد وربِّه ؟	١٦٣
٩	الخـــاتمـــة	١٧٦
١٠	مراجع كتاب الشجرة الطيِّبة (الكتاب الثاني) الطبعة الثانية	١٨٦
١١	فهرست كتاب الشجرة الطيِّبة (الكتاب الثاني) الطبعة الثانية	١٨٧

تصويب الأخطاء

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
٣	١٢	رئيسية	رئيسة
١٤	٣	ينهي	ينهى
١٦	٤	رأيْنها	رأتاها
١٦	١٩	لأنهم مؤمنون حقا	- -
١٩	١٠	في نفس حجرة	عائشة نفسها
١٩	١٤	الإدعاء	الادعاء
٢٣	١	المؤلِّفون	المؤلفين
٣١	٧	النوبشتي	النوبختيّ
٣٣	١	لكثير	كثيرًا
٣٤	٢	إنَّ	وإنَّ
٣٩	٢٠	المناسّب	المناسِب

تابع تصويب الأخطاء

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
٤٤	٧	والأصحاب	وأصحابه
٥٤	٦	غير واضحة	أبنائه
٥٧	١٣	مساجداً	مساجد
٦٠	٢	مكروه	مكروهة
٦٩	الأخير	فتكسوا	فتكسو
٧٣	٧	العُزة	العُزْىٰ
٧٨	١٢	بِذْرته	بَذْرته
٨٠	الأخير	الشرف	الشريف
٨٤	١	رواه	رواية
٨٦	١٧	وثـقــة	وَثَّـقَـهُ
٨٧	١٩	كلُّـه	كلَّـه

تابع تصويب الأخطاء

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
٨٩	١	مَدَدْ	مَدَدٌ
٩٢	١٢	وإنَّ	وأنَّ
٩٢	١٢	وإنَّ	وأنَّ
٩٨	٧	غير واضحة	المقصود
٩٨	٨	غير واضحة	وكونك
٩٩	٢٠	يعلوا	يعلو
١٠١	٧	حيث أنَّ	حيث إنَّ
١٠٢	١١	أبو الهول	أبي الهول
١٠٣	٥	وتمِّ	وتمَّ
١٠٣	٧	هيَّ	هي
١٠٥	١١	السابق	الأسبق

تابع تصويب الأخطاء

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
١٠٩	١٠	كُلَّـه	كُلِّـه
١٠٩	١٨	كُلٌ	كُلٌّ
١١٣	١٣	وقيل أنَّ	وقيل إنِّ
١١٤	١١	قريش	قريشاً
١١٤	١٤	أبو بصير	أبا بصير
١١٥	٧	أنَّ	إنَّ
١١٩	٦	كلَّ	كلُّ
١٢٢	٣	بنته	إبنته
١٢٢	٦	أي	أيِّ
١٢٢	٦	الكثيرون	كثيرون
١٢٣	٥	أُبتلِيت	ابتلِيت

تابع تصويب الأخطاء

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
١٢٣	١٠	المخلِّصون	المخلِصون
١٢٣	١١	أدعوا	أدعو
١٣١	٢٠	حُبَّهم	حُبُّهم
١٣٢	٤	إنهم	أنهم
١٣٤	١١	نبيُّ	نبيِّ
١٤٠	٨	أشدُّ	أشدَّ
١٤٦	٤	البعض	بعضاً
١٤٩	٨	تُجازي	يُجازَى
١٤٩	٨	تُرَاءُونَ	تُراؤون
١٥١	١٩	الموحَّد	الموحِّد
١٥٥	٣	أنَّ	إنَّ

تابع تصويب الأخطاء

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
١٦٠	١٥	المرحومَّة	المرحومَة
١٦٤	١٧	أية	آية
١٦٥	١١	وراءه	ورائه
١٦٦	١	غير واضحة	قريب
١٦٧	٥	ويُزال	ويُزيل
١٧٠	٤	غير واضحة	أقاربكم
١٧٠	١٦	في نفس السورة	في السورة نفسها
١٧٣	١٤	حيٌّ	حيٍّ
١٧٤	٢٠	غير واضحة	يريد
الغلاف الأخير	٣	ثلاثة وخمسون	ثلاثة وخمسين
الغلاف الأخير	٧	منهجة	منهجه



المؤلف في سطور

فضيلة الشيخ أحمد البسفي الأول بن مصطفى بن محمد مولود في صفر سنة ألف وثلاثمائة وثلاثة وخمسون هجرية مايو ألف وتسعمائة وأربعة وثلاثين ميلادية بمدينة الفشن محافظة بني سويف وهو من رجال التربية والتعليم وقد قضى حياته داعياً إلى الله بالأسوة الحسنة والسماحة الصادقة والكلمة الطيبة معلماً وداعياً إلى الله تعالى .

ومنهجة في الدعوة يقوم على المنهج الرباني من إخلاص النية في القصد والصدق في القول واليسر في العمل وعدم التكلف أو التطرف .

وهو دائما ينظر إلى ثمار هذا المنهج في التربية وهى(الأخلاق) ولذلك يقول في مقدمة كل درس له عبارته التي تلخص ما يدعو إليه (...وإن هذا الدين شجرة أصلها عقيدة التوحيد وذاتها شريعة الله وثمارها الأخلاق وشجرة بلا ثمار هى حطب للنار) وهذا هو العلم النافع في الدنيا والآخ



العنوان
الفشن شارع بحري المحكمة
٧٦٦١١٦١-٧٦٦٢٩٧١- ٧٦٦٣٢٤٩
٠١٠٣٤٦٢٣٥٨.